بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤتة
كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

شعر الزهد في القرن الرابع الهجري

إعداد
نزار عبدالله خليل الضمور
بكالوريوس لغة عربية/ جامعة مؤتة ١٩٩٥م

المشرف
الأستاذ الدكتور رشدي علي حسن

تاريخ تقديم الرسالة
١٤/ ٤ / ١٩٩٧م

شعر الزهد في القرن الرابع الهجري

إعداد
نزار عبدالله خليل الضمور

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة مؤتة
تخصص اللغة العربية وآدابها

أعضاء لجنة المناقشة

١-الأستاذ الدكتور رشدي حسن (المشرف) رئيسا

٢-الأستاذ الدكتور سمير الدروبي عضوا

٣-الدكتور جهاد المجالي عضوا

تاريخ المناقشة ١٧/ ٥ /٢٠٠٠م

الإهداء

إلى أحمد النبي صلّى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

إلى والديّ، وإخواني، وأخواتي، وأبنائهم، والأهل والأصدقاء.

إلى زوجتي، وأولادي بنان وعمر وجُمان وإيمان.

إلى كل الذين ساهموا في إخراج هذا البحث.

وإلى أحمد علي.

نزار الضمور
أبو عمر
الطفيلة
١٧ / ٤ / ٢٠٠٠م

فهرست المحتويات

الموضوع	الصفحة
* قرار لجنة المناقشة	ب
* الإهداء	ج
* فهرست المحتويات	د
* المقدمة	ح
* التمهيد	
١-المعنى اللغوي والاصطلاحي للزهد	٢
٢-الزهد في القرون الثلاثة الأولى	٧
* الفصل الأول : **اتجاهات شعر الزهد في القرن الرابع الهجري**	
-أولاً: تقديم " أوضاع العالم الإسلامي، وضياع شعر الزهد والتصوف"	١٥
- ثانياً: اتجاهات شعر الزهد:	
أ – شعر الفقهاء والعباد	٢١
ب – شعر المعتدلين من الصوفية	٣١
ج – شعرغير الزاهدين من الشعراء	٣٧
* الفصل الثاني : **موضوعات شعر الزهد**	
أولاً : الموت	٤٥
أ – موت الأقارب والأصدقاء	٥٥

ب – وصف القبور وأحوال الموتى ٥٩

ثانياً : التنفير من الدنيا ٦٥

ثالثاً : القناعة ٧٣

رابعاً : التوجه إلى الله ٨١

خامساً : النصائح والمواعظ

أ – النصائح الأخلاقية ٨٨

ب – الدعوة إلى الصبر ٩٣

ج – مجاهدة النفس ٩٦

د – المواعظ ٩٨

سادساً : الشيب نذير الموت ١٠١

سابعاً : التصوف ١٠٦

ثامناً : الجهاد والحرب ١١١

* الفصل الثالث : **الزهد وصلته بموضوعات الشعر الأخرى**

أولاً– الزهد والفخر ١١٧

أ – الفخر بأخلاقهم الحميدة ١١٨

ب – الفخر بانتسابهم للرسول صلى الله عليه وسلم ١٢١

ج – الفخر بالإسلام والدفاع عنه ١٢٤

ثانياً – الزهد والمديح ١٢٦

أ – حسن أخلاق الممدوح ١٢٧

ب – ابتعاد الممدوح عن زخرف الدنيا ١٢٩

ثالثاً – الزهد والرثاء ١٣٢

رابعاً – الزهد والحكمة ١٣٧

خامساً – الزهد والشعر الفلسفي ١٤٥

سادساً – الزهد وشعر المجون ١٥٠

* الفصل الرابع : الخصائص الفنية

أولاً – شعر الزهد شعر مقطوعات: ١٥٧

ثانياً – بين القديم والحديث:

– التخلي عن المقدمة الطللية والبكاء على الأطلال ١٦٤

– في المعاني والأفكار ١٦٧

ثالثاً – التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف:

– الاقتباس من القرآن الكريم ١٧٠

– الحديث الشريف ١٧٤

رابعاً– الألفاظ والأساليب والصورة الشعرية :

أ – بساطة اللغة والألفاظ ١٧٧

ب – استخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار ١٨٢

ج – استخدام ألوان البديع ١٨٧

د – الصورة الشعرية: ١٩٠

١ – صورة الموت ١٩١

٢ – صورة الدنيا ١٩٥

٣ – صورة القبر ١٩٨

* الخاتمة ٢٠٠

* المصادر والمراجع ٢٠٣

* ملخص البحث بالعربية ٢١٥

* ملخص البحث بالإنجليزية ٢١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ممن ساروا على نهجه في الزهد والعبادة والعمل، وبعد ...

فلقد حظي القرن الرابع الهجري بدراسات أدبية كثيرة على مـــرِّ العصـــور، تناولت جوانب الحياة الأدبية المختلفة، الشعرية والنثرية منها، في هذا القرن الـــذي امتاز بسمات عديدة، جعلته عصر ازدهار أدبي، مما دفعني إلى اختيار بحـــث فـــي موضوع من موضوعاته الشعرية؛ للمساعدة في كشف جوانب الحياة المختلفة فيه.

فكان شعر الزهد محط اهتمامي ودراستي، لاستكمال جهود البـــاحثين الذيـــن درسوا شعر الزهد في القرون التي سبقت القرن الرابـــع الـــهجري، حيـــث توقـــف بعضهم عند نهاية القرن الثالث؛ مشيرين إلى أن شعر الزهد قد تداخل فيما بعد مـــع الشعر الصوفي، دون تدقيق أو تمحيص، فتحاول هذه الدراسة أن تركز على شـــعر الزهد، وتطوره، وتميزه عن الشعر الصوفي، وأهم موضوعاته وسماته الفنية، وذلك في إقليمين عربيين هما العراق والشام؛ لأنهما كانا مركزين للحياة الأدبية والعلميـــة في ذلك الوقت.

والبحث إذ يستكمل جهود السابقين، فإن الباحث قد درس بإمعان مجموعة من الدراسات الحديثة التي عنيت بهذا الشعر، أو بدراسة اتجاهاته فـــي الأدب العربـــي، واستفاد منها في بحثه، فكان منها دراسة عبد الستار السيد متولي، وهـــي بعنـــوان:

"أدب الزهد في العصر العباسي، نشأته وتطوره وأشهر رجاله"، ودراسة علي نجيب العطوي:" شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجريين"، ودراسة عبد الحكيم حسان:" التصوف في الشعر العربي"، والتي خصص فيها المؤلف فصلا من فصول دراسته لتطور الشعر الزهدي .

أما منهج الدراسة فقد تناول البحث ظاهرة الزهد بالتحليل الموضوعي والفني، مستخدما المنهج التكاملي الذي يجمع بين المناهج المختلفة ويحقق الانسجام والتوافق بينها، مستعينا بالمنهج التاريخي لدراسة هذا الشعر، من خلال العودة إلى دواوين الشعراء المختلفة في هذا العصر، كديوان الصنوبري، والمتنبي، وكشاجم، وأبي فراس الحمداني، والشريف الرضيّ، والصوري، وغيرهم، جاعلاً كتاب الثعالبي "يتيمة الدهر" عمدته في ذلك.

وقد جاءت هذه الرسالة في تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، يتناول التمهيد المعنى اللغوي والاصطلاحي للزهد، مع الاستفادة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال العلماء، وخاصة الإمام ابن تيمية، ثم يستعرض باختصار تطور الزهد، وأشهر رجالاته منذ بداية الإسلام وحتى نهاية القرن الثالث الهجري، أي ابتداء هذه الدراسة.

ويقدم الفصل الأول دراسة لأهم الاتجاهات الرئيسية التي استقر عليها شعر الزهد في هذا القرن، ولكنه يبدأ بتوطئة حول أوضاع العالم الإسلامي في هذا القرن، وضياع شعر الزهد والتصوف بشكل خاص، والشعر العباسي بشكل عام، ثم يقسم

اتجاهات شعر الزهد إلى ثلاثة أقسام وهي زهد الفقهاء والعباد، وزهد المعتدلين من الصوفية، وشعر غير الزاهدين من الشعراء.

ويُعدُّ الفصل الثاني أوسع فصول الدراسة؛ لاحتوائه على موضوعات شعر الزهد المختلفة، حيث ابتدأ بموضوع الموت؛ لكثرة دورانه على ألسنتهم، وتم التفصيل فيه بالحديث عن موت الأقارب والأصدقاء، وعن وصف القبور وأحوال الموتى، ثم التنفير من الدنيا، والقناعة، وشعر التوجه إلى الله، والنصائح والمواعظ، مع تفصيل لها، بالحديث عن النصائح الأخلاقية العامة، ثم الدعوة إلى الصبر، ومجاهدة النفس والتحذير منها، والقصائد الوعظية في دواوين الشعراء، ثم موضوع الشيب، والتصوف، والجهاد والحرب.

ويعرض الفصل الثالث علاقة شعر الزهد بموضوعات الشعر الأخرى، وهي شعر الزهد وصلته بشعر الفخر، وهو في ثلاثة أشكال: الفخر بالأخلاق الحميدة، والفخر بالانتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والفخر بالإسلام والدفاع عنه، وشعر الزهد وصلته بشعرالمديح من خلال وصف حسن أخلاق الممدوحين وصلاحهم، ثم في مدحهم بالابتعاد عن الدنيا وزخرفها، وعلاقة شعر الزهد بشعر الرثاء، ثم علاقته بشعر الحكمة، وعن صلته بالشعر الفلسفي، وعن صلته بشعر المجون الذي عم وطغى في هذا القرن.

ويمثل الفصل الرابع دراسة فنية لشعر الزهد، إذ يشتمل على أربع مسائل هي: ظاهرة المقطوعات في شعر الزهد، وشعر الزهد بين القديم والحديث، من حيث المقدمات التقليدية والبكاء على الأطلال، والمعاني والأفكار الجديدة، وتقديم

التجربة الشخصية للشاعر، ودراسة مقدار التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ومسألة اللغة والأساليب والصورة الشعرية في شعر الزهد، من حيث: بساطة اللغة والتركيب، واستخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، واستخدام ألوان البديع، والصورة الشعرية؛ من خلال دراسة الصورة الفنية لعدة موضوعات في شعر الزهد، وهي صورة الموت، وصورة الدنيا، وصورة القبر.

وينتهي البحث بخاتمة تسجل خلاصته، وتدون أهم نتائجه.

وبعد، فالشكر لأساتذتي الكرام في جامعة مؤتة، وأقول لهم ما علمنا إياه الرسول صلى الله عليه وسلم في أفضل الثناء بالقول: " جزاكم الله خيرا "، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور رشدي الحسن مشرف الرسالة، و الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، والدكتور جهاد المجالي، لما بذلوه من جهد وعناية ورعاية، ومتابعة حثيثة، وسؤال مستمر أثناء الدراسة وأثناء كتابة الرسالة، ثم لمدرسي قسم اللغة العربية جميعا.

وأسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي وأن ينفع به شباب الأمة جميعا، فإن أحسنت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين.

التمهيد

أولاً : المعنى اللغوي والاصطلاحي للزهد

ثانياً : الزهد في القرون الثلاثة الأولى

التمهيد

أولاً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للزهد

الزهد والزَّهادة في الدنيا، ولا يقال الزُّهد إلا في الدين خاصة، والزهـــدُ: ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء كلها: ضد الرغبة (١) .

قال تعالى:﴿ وشَرَوهُ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهديـــن﴾(٢)، فإنهم قد باعوه بثمن قليل من الدراهم، وزهدوا فيه لأنهم كانوا يريدون التخلص مـــن تهمة استرقاقه وبيعه(٣)، وقد علموا أنه حر أو لأنهم لم يبذلوا فيـــه شـــيئاً، أو لأنـــهم جاملوا بهذا السعر البخس عزيز مصر ليقدم لهم بعض التسهيلات مع أنهم كان يمكن أن يبيعوه بسعر أعلى(٤).

ولم ترد كلمة زهد أو مشتقاتها في القرآن الكريم إلا في هذه الآية من ســـورة يوسف عليه الســـلام(٥)، وكذلك في وصف الحياة الدنيا جاء التعبير القرآني مستخدماً التشبيه التمثيلي مرة واحدة في قوله تعالى:﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (٦) ، قـــــال

١-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ت٧١١ هـــ)، لسان ا لعرب دار الفكر، بيروت، ١٩٦/٤

٢-القرآن الكريم، سورة يوسف، آية رقم ٢٠

٣-سيد قطب، في ظلال القرآن، ط١٢، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٦هـــ / ١٩٨٦م، م٤، ١٩٧٧/١٢

٤-أحمد نوفل، سورة يوسف "دراسة تحليلية "، سلسلة القصص القرآني، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٩هـــ/ ١٩٨٩م، ص٨٠

٥-محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م

٦-القرآن الكريم، سورة طه، آية ١٣١

المفسرون: الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته؛ لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا، وأشد رغبة فيما عند الله(١)، ويقول سيد قطب حول الآية بأنها" ليست دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وبالصلة بالله والرضى به، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا، وتبقى دائماً تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار"(٢).

والآيات القرآنية في هذا الباب كثيرة، تذم الدنيا وتزهد فيها، وترغب في الآخرة، وتبين شرفها عند الله عز وجل، ومنها قوله تعالى :﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾(٣)، وفيها مقارنة واضحة بين الحياة الفانية والحياة الدائمة.

أما المصطفى– صلى الله عليه وسلم – فكان يكثر من ذم الدنيا، ومقارنتها بالآخرة، فعن أبي سعيد الخدري أنه عليه السلام قال: " إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"(٤)، وعن أنس أنه عليه السلام قال:

١–محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط٤، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ٢/٢٥٢
٢–سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م٤ ، ١٦/ ٢٣٥٧
٣–القرآن الكريم، سورة العنكبوت، آية ٦٤
٤–الإمام مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ت٢٦١هـ/٨٧٥م)، صحيح الإمام مسلم،بشرح الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي، ت٦٧٦هـ ضبط وتوثيق صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، م٩، ١٧/٤٩

" اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة "(١)، وعن جابر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَه، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، قال : أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ قالوا : ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به ؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيبا أنه أسك، فكيف وهو ميت، فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم" (٢).

وتكلم الصحابة والتابعون في تفسير الزهد، وتنوعت عباراتهم في ذلك، فنجد لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وصفاً للزاهدين، حيث يقول: "طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن شعارا، والدعاء دثاراً (٣)،وقال أيضا:" الزهد بين كلمتين من القرآن، قال سبحانه وتعالى:﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾(٤)، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه"(٥).

ومنهم من قال :" أفضل الزهد: الزهد في الشرك، وفي عبادة ما عبد من دون الله، ثم الزهد في الحرام كله من المعاصي، ثم الزهد في الحلال، وهو أقل أقسام

١-ابن حجر (الإمام الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني، ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، ت٢٥٦هـ)، قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، الرياض، ٢-الإمام مسلم، م٩، ٧٤/١٨

٣-الشريف الرضي، نهج البلاغة، مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب(أبو الحسن علي بن أبي طالب، ت٤٠هـ/٦٦١م)، شرح الإمام محمد عبده، د. ط، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٤/٤

٤-القرآن الكريم، سورة الحديد، آية رقم ٢٣

٥-نهج البلاغة، ٤/ ٧

الزهد" (١)، وقال سفيان الثوري :" الزهد في الدنيا قصر الأمل، وليس بأكل الغليظ ولا لبس الغليظ"، وقال الفضيل:" أصل الزهد الرضى عن الله"(٢)، ويقول الإمام ابن الجوزية : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:" الزهد ترك مالا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة "، ثم قال: وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع، وأجمعها"(٣).

ونقف على معنى الزهد لدى شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه شكل من الزهد مضموناً روحياً، ولم يجعله محصوراً في دائرة الماديات فحسب، كما فهمه بعض المتصوفة عزوفاً عن مظاهر الحياة المادية وحدها، فإنه يرى أن " الزهد يكون مع الغنى، وقد يكون مع الفقر"(٤)، فالزهد المشروع عنده ترك ما لا ينفع في الآخرة، والزهد غير المشروع ترك ما يستعين به العبد على طاعة الله(٥)، ولذلك "درس ابن تيمية مشايخ الإسلام الذين فهموا الزهد عملاً وعلماً، ولم يفرق بينهم

١- ابن رجب الحنبلي(زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي، ت٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم، د. ط، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ٢٥٦.

٢- ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت ٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، شرح وضبط وتعليق يوسف علي طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ٢/٣٨١.

٣- ابن القيم الجوزية(الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، ت٧٥١هـ)، تهذيب مدارج السالكين، تهذيب عبد المنعم صالح العلي العزي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ١/٤٥٢

٤- ابن تيمية (الإمام العلامة أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، ت٧٢٨هـ)، مجموعة الرسائل والمسائل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ١/ ٢٢٤

٥- أحمد بن محمد بناني، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، ط١، جامعة أم القرى" كلية الدعوة وأصول الدين، السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، باب الفقر والغنى، ص١١٣، ورأي الإمام في الزهد، ص١٢٠

فقهاء أو محدثين أو زهاد، بل كان أساس تفرقته بين المتمسكين بالشريعة منهم والحائدين عنها، وأطلق عليهم اسم(أهل الدين والصلاح والزهد)، لأنهم حققوا المطلوب منهم على خير وجه "(١) .

أي أن الزهد في الإسلام لم يكن مقصوراً على الزهد في المتاع والمال والدنيا، كما هي صورته لدى الرهبان والنصارى المنقطعين عن أمور الدنيا بكاملها، فظهر زهد المجاهدين، وزهد الأمراء، وزهد الفقهاء، فمنهم من كان من كبار المجاهدين، ومنهم الأمراء والخلفاء، ومنهم العلماء والفقهاء، الذين شغلوا العالم الإسلامي بنتاجهم العلمي في الفقه والتفسير والحديث(٢) .

وقد فرّق ابن الجوزي بين الفقر والزهد، فقال: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أسباب كل طاعة، ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا"(٣).

وقد عرف ابن قدامة الزهد، مختصرا قول الغزالي، وابن الجوزي؛ فقال:" الزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه"(٤)، أو بمعنى آخر:" أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة"(٥).

١- مصطفى حلمي، الزهاد الأوائل، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ص(١٦، ١٧)، بتصرف
٢- المصدر السابق، ص ٨ بتصرف
٣- ابن قدامة (الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، ت ٦٨٩هـ)، مختصر منهاج القاصدين، د. ط، تعليق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٣١٦
٤- ابن الجوزي، مختصر منهاج القاصدين، ص٣٢٤
٥- هناد بن السري(أبو السري هناد بن السري الكوفي التميمي، ت٢٤٣هـ)، الزهد، تحقيق محمد أبو الليث الخير آبادي،مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ١٩٨٧م، مقدمة التحقيق، ص٣١

فهذه العبارة تؤكد المعنى الإسلامي للزهد، وأنه نشأ نشـــأةً إســـلامية خالصـــة مستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف عملاً وقولاً، لأن الرســـول صلـــى الله عليه وسلم كان زاهداً عابداً عاملاً في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل عمـــل من أعماله، وكان ينتهز المواقف العملية ليعلم أصحابه معنى الزهد، وحقيقة الدنيـــا والآخرة، كما في الحديث الشريف الصحيح السابق، عندما مرّ بقرب الجدي الأســـك الميت .

ثانياً: الزهد في القرون الثلاثة الأولى

لقد نشأ الزهد نشأة إسلامية خالصة، وكان الرسول صلـــى الله عليـــه وســـلم وأصحابه مثالا للإيمان والتقوى والمجاهدة، وقدوة صالحة للتابعين الذيـــن عُرفـــوا بالزهد في الدنيا، والإعراض عنها والإقبال على الله، وقد حفلت كتب الطبقات بذكـــر أخبارهم ووصف أحوالهم، وإثبات أقوالهم في النسك والزهد والعبادة، ومن هـــؤلاء التابعين فريق يُعرف باسم النساك، وفريق آخر باسم الزهاد، وفريـــق ثـــالث باســـم العُبّاد، وفريق رابع باسم البكائين، وهي تدل جميعاً على شدة العناية بـــأمر الديـــن، وقلة الإقبال على الدنيا، وكثرة الذكر لله والتوكل عليه(١) .

وبدأت في الشعر ظاهرة يمكن أن نطلق عليها " شعر التديـــن" (٢)، حوالـــي النصف الثاني من القرن الهجري الأول، قامت على الوعظ، والتذكير بالحياة الآخرة

١- مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، الفصل الرابع بتصرف

٢-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي (نشأته، وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري)، د . ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤ م، الفصل الثاني، (شعر التدين في القرن الأول)، ص١٢٧ - ١٦٨

ووصفها، وعلى الحكمة الدينية والأخلاق، وكان هذا الشعر يعبر عن الحياة الروحية العامة، إلا أنه لم يظهر شاعر زاهد، ولم يكن شعر الزهد موضوعاً من موضوعاته في الفترة الأموية، وإنما اشتهر به عدد من الرجال، وتميز من بينهم التابعي الكبير الحسن البصري .

وقد كان هذا الفن الشعري الجديد من نتاج النزعة السلبية في الحياة، والتي أنتجت الغزل الإباحي مقابل ترف المدن، وأنتجت الغزل العذري مقابل البوادي وحياتهم الفقيرة التي كانوا يحيونها، ولم يكن لزينة الدنيا مكان في نفوسهم(١)، فهي ردة فعل، وعودة إلى مضمون الحياة الروحية الحقيقية، الذي دفعت إليه طريقة الخلفاء في الحكم، من توجه للدنيا، وتقريب للفرس والموالي.

ثمّ ظهر شعر الزهد واضحاً في القرن الثاني وسط أجواء اللهو والمجون، والخروج على الدين وتمايز المجتمع إلى طبقات، أوسعها فقيرة فقراً مدقعاً، والأخرى مترفة؛ كفلت لنفسها أسباب النعيم، واستأثرت بطيبات الرزق والحياة الدنيا(٢).

وازدهر شعر الزهد لدوافع كثيرة، سياسية واجتماعية وثقافية(٣)، تمثلت السياسية منها في ظهور الأحزاب والفرق، وكثرة الخلافات والمنازعات، والتطاحن على الخلافة، وما أدّى إليه من فساد للحياة الإدارية والأوضاع الاقتصادية.

١- عبد الحكيم حسان، ص١٤٧.
٢- انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص٨٣
٣- انظر هذه العوامل بالتفصيل في كتاب عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، الباب الأول، الفصل الأول، ص٩ -٣٧

أما الدوافع الاجتماعية فبدأت مظاهرها باتساع الحياة المترفة اللاهية، ونزعات التحلل من العقيدة، وخاصة عند الطبقة العليا، والانغماس في الملذات وألوان الترف والنعيم، وزيادة الهوة بين الطبقات، ونشوء أجيال من أبنائها من أصحاب الأملاك والإقطاعات والأموال الطائلة، يمثلون علية القوم، وانتشرت أنواع الفسق والمجون والخلاعة، واستكثر الخلفاء من الغلمان والخصيان والجواري، وانشغلوا بهم عن الرعية، وما تعانيه من فقر مدقع، وظلم وبغي شديد.

وكان العامل الثالث يتمثل في الجانب الثقافي، بازدهار الثقافة الإسلامية الخالصة، والإقبال على الثقافات الأجنبية في شتى فروع المعرفة، وحركة الترجمة للاطلاع على فلسفة الحضارات الأخرى وأدبها، وأخلاقها، ومن أهمها الثقافة الفارسية، واليونانية، والهندية، وغيرها.

فاجتمعت هذه العوامل في تركيز النزعة إلى الزهد لدى الكثيرين من الشعراء، ودار هذا الشعر "حول النفس البشرية وطبائعها، وحول تقلب الدهر بالناس، والملوك، وزوال الحياة الدنيا، وانقضائها بالموت الذي لا مفر منه، ثم دخل الزهد ميدان الوعظ في شؤون الدنيا، والتزهيد فيها والحث على العبادة وطاعة الله"(١)، " وأصبحت شخصية الشاعر الفقيه، أو الشاعر المحدث، أو الشاعر الزاهد، من الشخصيات المألوفة في الحياة الروحية في القرن الثاني"(٢).

وقد برز منهم عبد الله بن المبارك، العالم العامل، والزاهد المجاهد، ومنهم

١- مصطفى عبد الشافي الشوري، الشعر العباسي (اتجاهاته وتطوره)، د . ط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م، ص٨٤

٢- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص١٧٦

أيضاً الفقيه الشاعر الإمام الشافعي، القائل في مرضه الذي مات فيه:(١)

إليـك إله الخلـق أرفع رغبـتي وإن كنـتُ يا ذا المـنّ والجود مجـرما

فيا ليـت شعري هل أصيـر لِجَـنّةٍ فأهنـا وإمّا للسـعـيـر فأنـدمـا

تعاظمني ذنبـي فلمـا قـرنتـُه بعفـوك ربـي كان عفـوك أعظمـا

وتسربت هذه المواعظ إلى شعر الشعراء غـير الزاهديـن، بـل المـارقين المتزندقين، ويمثلهم أبو نواس؛" فهو أشهر من نسك وتاب بعـد مجـون وخلاعـة، ويرجع ذلك إلى منزلته الشعرية من ناحية وإلى إخلاصـه فـي مجونـه وزهـده، وقيامهما عنده على مبدأ وفكرة هي علة ذلك الإخلاص فيهما من ناحية أخرى"(٢)، ثم اتسعت هذه الموجة على يد أبي العتاهية اتساعاً كبيراً، حيث انصرف إلى نظمه بعـد كبره واعتلاء الشيب مفرقه(٣).

وجدّت ظاهرة أخرى في القرن الثاني الهجري هي"ظاهرة المجانين"، "وهـم مجانين ينطقون بالحكمة، وتجري على ألسنتهم الموعظة، لأن جنونهم ليس مرضـاً، ولكنه جنون في طاعة الله تعالى والتعلق به، ولذلك يطلق عليهم في كتب الصوفيـة "عقلاء المجانين"، وساعد على ظهورها التأثر بالأفكار الأجنبية، إلى جـانب لبـس المراقع الصوفية، والسياحة في الجبال، والمرابطة في الثغور"(٤).

١- الشافعي(الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ت٢٠٤هـ)، ديوان الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة مجاهد مصطفى بهجت، مطابع جامعة الموصل، العراق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٨٥

٢- عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي، ص٥٥، وانظر عبد الحكيم حسان، ص١٩١

٣- ناظم رشيد، الأدب العربي في العصر العباسي، د. ط، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٩٨، وانظر مصطفى الشوري، ص٢٣٥-٢٥٣
وانظر مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢١٥ -٢١٦

٤- عبد الحكيم حسان، ص١٨٣

وكونت هذه الطبقة لنفسها جواً روحياً أخلصت له، وانقطعت عما سواه، وأنفقت حياتها في التعبد والمجاهدة وألوان الرياضة، واستمرت حتى نهاية القرن الثاني لتشكل نواة لحركة التصوف القوية في القرن الثالث الهجري، حيث ظهرت مقدمتها لدى إبراهيم بن أدهم، وغرز مبادئها الحارث بن أسد المحاسبي، "الذي كان يربط التصوف بالشريعة على مذهب أهل السنة، ويعتنق مذهب الشافعي"(١)، ومنهم أيضاً السري السقطي، شيخ متصوفة بغداد، وأول من تكلم في المقامات والأحوال، فكان يجعل الشريعة قوام التصوف(٢).

أما شعر الزهد فقد انفصل عن شعر التصوف، ولكنه استمر على يد مجموعة من الشعراء من أشهرهم وأغزرهم مادة، وأكثرهم استجماعاً لخصائص شعر الزهد، هو الشاعر محمود الوراق؛ الذي أكثر القول في الزهد والأدب والمواعظ والحكم(٣).

وتجاوب شعر الزهد مع الحياة العامة، وطلبته العامة والخاصة، وقال فيه الزهاد وغير الزهاد، وغلبت عليه الصنعة والعنصر العقلي، وظهور الطابع التعليمي(٤)، وقد وضعت كتب كثيرة في موضوع الزهد والورع والرقائق، نجد لها ثبتاً في مقدمة تحقيق كتاب الزهد لهناد، فبلغت تسعة وستين كتاباً، حتى القرن السادس الهجري، كان أكثرها في القرن الثالث، حيث بلغت ستة وعشرين كتاباً، تلاه

١- شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، ط٢، دار المعارف، مصر، ص ١٠٨
٢- المصدر السابق، ص١٠٩
٣- انظر عبد الحكيم حسان، ص٢٥٢
٤- المصدر السابق، ص٢٨٥

القرن الرابع بخمسة عشر كتاباً، مما يدل على أهمية الزهد، ومكانته في الإسلام حيث أعاره الكثيرون من أهل الحديث اهتماماً خاصاً، وأفردوه في صحاحهم، وجوامعهم، ومصنفاتهم(١)، وكان منهم الإمام أحمد بن حنبل الذي صنّف كتاباً في الزهد، تحدث فيه عن زهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزهد الأنبياء عليهم السلام، ثم انتقل إلى زهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، واستكمله بزهد التابعين إلى زمنه ممن كانوا على نهج الرسول عليه السلام ونهج أصحابه، ولم يبتدعوا في دين الله ما ليس فيه(٢).

واستمرت في شعر التصوف بعض المقطوعات الزهدية، إلا أنه قد بدأت تظهر فيه بعض المذاهب إلى جانب الحب الإلهي، الذي انتشر في بداية القرن الثالث، وكان أولها مذهب الفناء على يد أبي يزيد البسطامي، ثم بدأت في النصف الثاني من القرن الثالث مذاهب الاتحاد والحلول، والنور المحمدي، ووحدة الأديان، وغيرها لدى الحسين بن منصور الحلاج، وهي أفكاره التي كانت سبباً في فتور صداقته مع أبي القاسم الجنيد شيخ الطريقة الأكبر في بغداد، حيث أصبحا على طرفي نقيض في تأملاتهما وأفكارهما العقلانية(٣)، وكانت سبباً في قتله على هذه

١- هنّاد، الزهد، مقدمة المحقق، ص٤٦-٥٤ بتصرف

٢- نظر أحمد بن حنبل (الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ت٢٤١هـ)، كتاب الزهد، حققه وقدم له وعلق عليه محمد جلال شرف،ط١، دار الفكر الجامعي،بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

٣- مصطفى غالب، الحلاج الحسين بن منصور، د.ط، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٢-٢٣ بتصرف

الصورة التي نجدها في تاريخ بغداد[1]، ألا أنه لم يغفل الحديث عن الزهد في شعره، ووصف الدنيا والدعوة للتقلل منها، وسار تلاميذه على نهجه ومنهم أبو بكر الشبلي، حيث كانت بداية القرن الرابع الذي ظهر فيه الخلاف واضحاً بين الزهاد والصوفية، بل بين الصوفية أنفسهم.

١-الخطيب البغدادي(الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ت٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام حتى سنة ٤٦٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ترجمة الحلاج رقم ٤٢٣٢، ١١٢/٨

الفصل الأول

اتجاهات شعر الزهد في القرن الرابع الهجري

أولاً: توطئة

" أوضاع العالم الإسلامي، وضياع شعر الزهد والتصوف "

ثانياً: اتجاهات شعر الزهد :

أ- زهد الفقهاء والعبّاد

ب- زهد المعتدلين من الصوفية

ج- شعر الشعراء غير الزاهدين

اتجاهات شعر الزهد في القرن الرابع الهجري

أولاً: توطئة

" أوضاع العالم الإسلامي، وضياع شعر الزهد والتصوف"

تبدلت أوضاع الأمة الإسلامية منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وظهر بوضوح ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها، وقيام دويلات كثيرة مستقلة بين ربوعها وانتشار الثورات والفتن بين أنحائها، وضياع هيبة الخلافة العباسية في بغداد، بل ظهرت في القرن الرابع الهجري ثلاث خلافات تتنازع ولاءَ المسلمين في بغداد والقاهرة وقرطبة(١) .

وظهر ضعف الخلافة العباسية جلياً في بغداد بتعاقب الخلفاء، بدءاً بالمقتدر بالله بن المعتضد، الذي حكم سنة ٢٩٥هـ، وعمره ثلاثة عشر عاماً(٢)، فأهمل "أمور الخلافة كثيراً وحكَّم فيها النساء والخدم وفرّط في الأموال، وعزل من الوزراء وولّى، ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والثُّواب وخروجهم عن الطاعة "، فقتلوه عام٣٢٠هـ، ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبِّرون ويلعنونه، وتركوه مكشوف العورة، وتجرءوا على الخلفاء من بعده ، وانخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة(٣)، فحَكَم القاهر بعده سنة واحدة وستة أشهر، ثم خُلِعَ وسُمِّل من ليلته(٤) .

١- عبد الستار السيد متولي : أدب الزهد في العصر العباسي، ص(٢٠٢+٢٠٣)، بتصرف

٢- ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعز الدين)، ت(٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدّقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٤٣٩/٦

٣- المصدرالسابق، ٧٥/٧ بتصرف

٤- المصدرالسابق، ٩٨/٧

ثم جاء الخليفة الراضي أبو العباس أحمد بن المقتدر الذي ختم الخلفاء في أمور عدَّة: منها أنه آخر خليفة له شعر يُدَوَّن، وآخر خليفة خطب كثيراً على منبر، وآخر خليفة كانت له نفقته، وجوائزه، وعطاياه، وجراياته، وخزائنه، ومطابخه، ومجالسه، وخدمه، وحُجّابه، وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين (١).

وتوالى من بعده الخلفاء: المتقي، والمستكفي، والمطيع، والطائع، والقادر حتى عام ٤٢٢هـ، تحت سلطان آل بويه، في نزاعات كثيرة، وحياة مشحونة بالحوادث، والاضطرابات الداخلية والانقسامات، والمنازعات الدينية والسياسية(٢) .

ومما لا شك فيه أن الانقسام في حد ذاته إنما هو مظهر من مظاهر الضعف حيث أخذ الوهن يدب حثيثاً في المجتمع الإسلامي، ولعل أوضح مظاهر الضعف التي أخذت تستشري في جسم الدولة الإسلامية؛ هي تحول المسلمين من مواقف الهجوم إلى مواقف الدفاع، فالروم الذين طالما ذاقوا الأمرَّين من هجمات المسلمين المتعددة وكانوا يدفعون الجزية، أخذوا في القرن الرابع يهاجمون المسلمين في جبهات متعددة في العراق وبلاد الشام، وأخذت الدولة الإسلامية تتكمش انكماشاً مطرداً، وتتابعت الحملات على الدولة الإسلامية في مصر والشام وغيرها(٣) .

وفي وسط تلك الأحداث أخذ تيار الزهد والتصوف يقوى ويشتد في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، وأحدَثَ هذا رَدَّة فعلٍ عنيفة عند جانب كبير من أفراد

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٥٢/٧

٢- محمود الكناني، مزاج التسنيم في قصص الأنبياء والمرسلين وما بعد ذلك إلى يومنا هذا، مراجعة عبدالله الفارقي،ط١، مكتبة نهاوند، عمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص١٩٢-١٩٥ بتصرف

٣- عبد الستار متولي، أدب الزهد، ص٢٠٢

الأمة الإسلامية، فأوغلوا في الزهد، وكُره الدنيا، وسار بعضهم فـــي شِـــعاب الأرض، واختلفوا إلى رؤوس الجبال ينتظرون رحمة الله، بعيداً عن الناس وقســـوة الحياة(١) .

وانتشرت مذاهبهم في البلاد الإسلامية كفارس، ومصر، والشـــام، وجزيـــرة العرب، وغيرها من أنحاء العالم الإسلامي، وكان لهم مشايخ، وطوائـــف، وطـــرق ينتسب إليها المريدون، غير أن مذاهبهم لم تُصِبْ من النمو والازدهار في أي مـــن البلاد ما أصابت في بغداد التي كان نموها فيها سريعاً، وحظها من الصبغة العلميـــة عظيماً(٢).

ورغم ذلك فإن شعر الزهد لم تولِه كتب تاريخ الأدب عناية كافية، فلا نعـــثر فيها إلا على طائفة من أشعار الزهاد، أما شعر التصوف فلا نعـــثر منـــه إلا علـــى مقطوعات يسيرة ليست بذات غناء .

وربما تعود هذه الظاهرة إلى أسباب سياسية ومذهبية اقتضت إهمال مؤرخـــي الأدب للشعر الصوفي، فقد كان لإنكار الدولة علـــى الصوفيـــة بعـــض طرائقـــهم، واتهامها لهم بالخروج على مذهب السنّة، ثم ما صحب ذلك من ســـجن شـــيوخهم والتنكيل بهم؛ أثرٌ في انصراف المؤرخين عنهم، فضلاً عن أن الصوفية أنفسهم قـــد جعلوا علومهم خاصة بهم ولم يبيحوا لغيرهم الاطلاع عليها.

ويمكن أن يضاف سبب آخر، وهو أن الشعر الصوفي لم يكن مقصوداً لذاته

١- عبد الستار متولي، أدب الزهد، ص٢٠٣، بتصرف
٢- مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص١٢

كما هو الشأن عند الشعراء المحترفين، بل هو وسيلة لنقل مواجيدهم والتعبير عنها، فلم يحرصوا على تدوينه(١) .

أما كتب الصوفية والزهاد، وكتب الفقهاء في الرد عليهم وإنكار بعض طرائقهم فهي ذات غرض ديني، ولذلك فإن منقولاتها الشعرية إنما تَردُ عرضاً للاستشهاد بها على معنى من المعاني أوحالٍ من الأحوال، ومثال ذلك أن كتاب اللمع على أهميته،" لا تزيد الأشعار الواردة فيه على ثلاثمائة وخمسين بيتاً، وأكثرها وردت مُتَمَثَّلاً بها، وليست لشعراء صوفيين، وبعضها يتكررعدة مرات، ولا نجدها إلا بضعة أبيات، أما القطع الطوال أو القصائد الكاملة فلا وجود لها تقريباً(٢).

ويؤكد عدنان العوادي أخيراً إنه على الرغم من أن المصادر الصوفية والأدبية التي وصلت؛ فقيرةٌ بالمعلومات المفصلة عن الشعر الصوفي في هذه الحقبة، وعن تراجم شعرائه، إلا أن المختارات التي وردت من هذا الشعر في أوائل المصنفات الصوفية؛ لتدل على أن هذا النوع من الشعر كان كثيراً في القرنين الثالث والرابع(٣).

ثم يستشهد على ذلك بظهور شاعرين كبيرين، هما: الحلاج، والشبلي، نهاية الثالث وبداية القرن الرابع، ويؤكد ما ذهب إليه كثير من الباحثين من أن ما نقلته لنا مصادر الأدب والنقد كاليتيمة، ودمية القصر، وغيرها من مادة شعرية وخبرية عن

١- عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٨٦م، ص١١٢- ١١٣ بتصرف

٢- المصدر السابق، ص١٠٨- ١٠٩ بتصرف

٣- المصدر السابق، ص١١٧

أدب القرن الرابع ليست بقليلة، ولكنها قليلة جداً بالقياس إلى ما كان موجوداً وخاصة في شعر الزهد والتصوف[1] .

وهذا الاستشهاد بالحلاج والشبلي، يستدعي الوقوف قليلاً لبيان الموقف منهما في هذه الدراسة، أما الحلاج فمن الواضح أنه يمثل نهاية مرحلة القرن الثالث الهجري، وكان له نظرياته المعروفة في الاتحاد والحلول، والنور المحمديّ وغيرها، مما أشير إليه في التمهيد، والذي يخرجه تماماً من البحث .

وأما الشبلي فقد عاش جزءاً من القرن الرابع الهجري- موضوع البحث - ولكنه لا يمثل الصوفية المعتدلة، وإنما هو صاحب شطحات كثيرة وحياته بالنسبة لشطحاته تنقسم إلى قسمين: الأول، ما قبل مصرع الحلاج، وكان حافلاً بالشطحات النثرية والشعرية، والثاني: بعد مصرع الحلاج، وقد خفف الشبلي من جرأته في هذا الدور، وحاول أن يبدو على أقواله طابع سني لا يتعارض وتعاليم الشريعة الظاهرة، وقد رُوي أن الشبلي مرَّ على الحلاج وهو مصلوب فقال له: أولم ننهك عن العالمين؟؟، ومعنى هذا أن إباحة الأسرار خطأ يقع فيه العارفون ويجب التحرز منه[2] .

ولذلك فإن كثيراً من الباحثين – ممن يميلون إلى الصوفية ويدافعون عنهم–قد أشاروا إلى الشبلي، ووصفوه بأنه يمثل طائفة صالحة من صوفية القرن الرابع في بغداد، وأنه كان شيخ وقته حالا وظرفاً وعلماً[3] .

١- عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي، ص ١١٨
٢- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص٣٣٤
٣- مصطفى حلمي، الحياة الروحية، ص١٣٤

وقد تحدث عنه أستاذنا شوقي ضيف، فاعتبره تلميذاً للجنيد في اتباع الكتـــاب والسنة "، وأنه كان في تصوفه دائما سنياً(١)، وأنكر إيمانه بنظريات الحلول والاتحاد، وانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود كالحلاج، وفسَّرَ نظريَّتهُ في الفناء بقوله:" إنمـــا كان يريد الاحساس بالفناء في الذات العلية"(٢) ، وكأنَّهُ يريدُ أن يدفع عنه تهمة الشطح التي حاول هو أن يخفيها عن الناس بالتورية، فاخترت إلحاقه بالقرن الثالث وبشـيخه الحلاج في مذهبه، خاصة وأن عدداً من الباحثين قد درسوا مذهبـــه ضمـــن رجـــال القرن الثالث الهجري.

١- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، (الجزيرة- العراق- إيران)، ط ١، دار المعارف، مصر، ١٩٨٩م، ص٤٨٤

٢- المصدرالسابق، ص٤٨٥

ثانياً: اتجاهات شعر الزهد

لقد استمر اتجاه الزهد في هذا العصر كغيره من العصور، وذلك لارتباطه الديني القوي بالإسلام، وبسبب الظروف الاجتماعية والسياسية القاسية التي تساعد في التوجه نحو الزهد، وترك الدنيا، والانقطاع للعبادة، وجاء الشعر ممثلاً لذلك في عدة اتجاهات، " زهد الفقهاء والعباد " ممن كانوا يحرصون على السنة النبوية الشريفة في زهدهم وعبادتهم، ثم" زهد المعتدلين من المتصوفة "، الذين اختطوا لأنفسهم طريقاً سنيًّا صحيحاً بل حاربوا الانحراف في مذاهب أصحابهم ومشايخهم، وتمثل هذان الاتجاهان في شعر كثير من شعرائهم من العلماء والفقهاء، أو المتصوفة على السواء في القرن الرابع، نضيف إليهما اتجاهاً ثالثاً وهو " شعر غير الزاهدين من الشعراء"، وهو الشعرالذي نطق به شعراء حاولوا أن يثبتوا براعتهم في هذا اللون من الشعر زهداً وتصوفاً، أو أنهم كانوا يحاولون من خلاله مسايرة المجتمع من حولهم الذي كان يمور بهذه الحركات الفكرية بقوة وكثرة .

أ- زهد الفقهاء والعباد :

ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن شعر الزهد واتجاهاته، وموضوعاته التقليدية -كذم الدنيا الزائلة، والتذكير بالموت والبعث، والحساب، وما يتبع ذلك من حض على الزهد، ونبذ المتع وإعداد النفس للحياة الأخرى، والتغني بالمثل الدينية وفضائلها-؛ قد تحول تدريجياً إلى موضوعات التصوف وأساليبه(١)، وهذا خطأ

١-عدنان العوادي، الشعر الصوفي، ص١١٧

واضح لا يمكن التسليم به، وإنما جاء تعصباً للصوفية، أو إمعاناً في الدفاع عنهم، حيث يرى كثير من الباحثين المعتدلين أن الزهد كان أساساً للتصوف، وأن الشعر الزهدي كان مقدمة حسنة لشعر التصوف، لذلك فقد تلازما على صور مختلفة، "ولم تخلُ نصوص الشعر الصوفي من العناصر الزهدية للارتباط الوثيق بينهما، وبمرور الزمن أصبح أكثر إخلاصاً وأصدق عاطفة ، لأنه صدر من أناس حققوا التصوف عملياً وعاشوا تجاربه في حياتهم"(١)، فلم يذهب شعر الزهد، بل أصبح متصلاً بالفقه والعبادة، حتى بين الصوفية أنفسهم ممن جمعوا العلم والعمل.

وبناءً على ذلك نجد ارتباط الزهد بالفقه عند كثير من المؤرخين الثقات، فهذا ابن الأثير في تاريخه يشير في حوادث السنوات إلى وفيات أعيان الزهاد والصوفية، لكنه لا يصف أحداً منهم بجمع صفتي التصوف والزهد له، وإنما كان يفرق بينهما تفريقا واضحاً، ذلك أنه كان يشير إلى الصوفية بقوله:"وفيها توفي أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُريري الصوفي ت٣١١هـ، وهو من مشاهير مشايخهم"(٢)، أو بقوله" وفيها توفي أبو محمد جعفر المرتعش ت٣٢٨هـ، من أعيان مشايخ الصوفية، صحب الجنيد"(٣) ، وفي وفيات عام ٣٧٥هـ قال :" توفي فيها الوليد بن أحمد بن محمد أبو العباس الزوزني الصوفي المحدث، كان من العلماء في الحقائق وله تصانيف كثيرة "(٤)، وهي إشارة إلى المعتدلين منهم، وكذلك يشير في وفيات

١- عبد الستار متولي، أدب الزهد، ص٢٠٤
٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٦/٧
٣- المصدر السابق، ١٥٠/٧
٤- المصدر السابق، ٤١٧/٧

عام ٣٨٦هـ، فيقول :" توفي فيها أبو طالب محمد بن علي بن عطيه المكي صاحب قوت القلوب من الجبل نشأ بمكة تزهد ولقي الصوفية، وصنف، ووعظ بجامع بغداد(١)، وأيضاً في وفيات ٣٣١هـ، توفي فيها " أبو بكر محمد بن إسماعيل الفرغاني الصوفي أستاذ أبى بكر الدقاق، وكان يلبس قميصين، ورداءً، وسراويلَ، ونعلاً نظيفاً، وعمامة "(٢) ، في إشارة واضحة إلى اعتداله .

أما الزهاد فقد اختلفت إشارته إليهم، فوصفهم بالورع والفقه والعبادة، ومن ذلك قوله في وفيات سنة ٣١٦هـ:" توفي فيها أبو عوانة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الإسفراييني، وهو من الحفّاظ المكثرين، والأئمة المشهورين، طاف البلاد، وحجَّ عدة حجات، وكان زاهداً عابداً(٣) وفي سنة ٣٤٠هـ، توفي فيها "عبد الله بن الحسين بن لال أبو الحسن الكوفي، الفقيه الحنفي المشهور، كان أديباً بارعاً عارفاً بالأصول والفروع، عظيم العبادة، كثير الصلاة والصوم، ورعاً، زاهداً(٤) .

ويشير إلى آخرين بقوله " كان كثير العلم والزهد حافظاً مُؤدِّباً "(٥) ، أو بقوله :" كان إمام أهل عصره في الفقه والزهد والعبادة والورع(٦)، أو بقوله " وكان غاية في الزهد والورع"(٧)، وقوله :" وهو من أرباب الطبقات العالية في الزهد "(٨)، وهي جميعاً تؤكد اتجاهاً واحداً في الزهد والمحافظة على العبادات.

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤١٧/٧
٢- المصدر السابق، ١٧٦/٧
٣- المصدر السابق، ٤٨/٧
٤- المصدر السابق، ٢٤٠/٧
٥- االمصدر السابق، ٢٥٧/٧
٦- المصدرالسابق، ٤٠٢/٧
٧- المصدرالسابق، ٤٧/٨
٨- المصدرالسابق، ١٨٥/٨

ومثل ذلك نجده في "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك "، بقوله :" الفقيه إمـــام أهل الرأي في وقته، كان مشهوراً بالزهد والورع[1]، أو بقوله :"كـــان أحـد أئمـة المسلمين، حافظاً لمذهب الشافعي، حسن النظر مشهوراً بالزهد والورع، وَرَدَ بغـداد، وحدَّث بها، فسمع منه الدار قطني"[2] .

ونجد هذا المنهج في طبقات الشافعية الكبرى، فيقول:" الزاهد، العـالم، أحـد الصالحين"[3]، أو بقوله:" الأديب الزاهد، من العلماء الزُّهاد " المجتهدين في العبـادة، الزاهدين في الدنيا، تجنَّب السلاطين وأولياءَهم، إلى أن خرج من دار الدنيـا، وهـو ملازم لمسجده ومدرسته، قد اقتصر على أوقاف لسَلَفِهِ عليه، قوت يوم بيـوم "، ثـم يقول :" تخرّج به جماعة من العلماء الواعظين، وظهر له من مصنفاته أكـثر مـن ثلاثمائة كتاب مصنَّف"[4].

وفي ذلك إشارة إلى الوعاظ والقصاص، ودورهم في القرن الرابع الـهجري، حيث انتشر الوعاظ في جوانب الدولة الإسلامية، وتنقلـوا فـي أنحائـها، واشـتهر بعضهم بالزهد والوعظ، فمنهم ابن سمعون(أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسـماعيل البغدادي، ت٣٨٧هـ)، الذي وصفه ابن خلكان بأنه "كان وحيد عصره فـي الكـلام على الخواطر، وحسن الوعظ، وحلاوة الإشارة، ولطف العبارة، وكان يلقب بالناطق

١- ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن الجوزي،ت٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ١٤/ ٢٧٧

٢- المصدر السابق، ١٤/٢٨٧

٣- السُبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن، ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ٣/١٧٩

٤- المصدر السابق، ٣/١٨٠

بالحكمة، زاهداً واعظاً "[1]، وقد علت سمعته حتى قيل:" أوعظ من ابن سمعون"[2] ، ومنهم: أحمد بن أبي أحمد الطبري،" إمام عصره، له مصنَّف في أصول الفقه والكلام، كان إماماً جليلاً، أقام بطبرستان، وأخذ عنه علماؤها، ثم انتقل منها ليقيم على الرباط، وكان من أخشع النّاس قلباً إذا قصَّ، فمن ذلك ما يحكى أنه كان يقصُّ على الناس، فأدركته رَوْعَةٌ مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته، ومن خشية ما كان يذكر من بأسه وسطوته، فخَرَّ مغشيّاً عليه ومات"[3].

وقد اشتهر بعضهم الآخر بالوعظ والتصوف، فمنهم: علي بن إبراهيم أبو الحسن الحُصري، الصوفي الواعظ، بَصْري الأصل، سكن بغداد، وكان شيخ المتصوفة[4].

وقد وصف السُّبْكي بعض الوعاظ بأنه كان يجمع بين العلم والتقوى، متمسكاً بحبال الشريعة، إماماً في الفقه، والكلام والوعظ والورع، والعقل والدين، وذكر منهم الأستاذ أبو علي الثقفي، فإنَّ ابتداءه كان التصوف والزهد والورع[5]، ثم يروي حكاية للشبلي يعيب فيها على أبي علي الثقفي عندما علم أنّ بداره شيئاً من الفُرُش والأواني التي يتجمّل بها أهل الدنيا -بزعمه-، فصاح الشبلي، ثم قال: فهذا الذي يُغيِّر عليه أحواله[6].

١- ابن خلكان(أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، ت ٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس،دار صادر، بيروت، ٣٠٤/٤

٢- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩م، ٣١٢/٦

٣- السُّبكي،طبقات الشافعية الكبرى، ص٥٩

٤- ابن الجوزي، المنتظم، ص٢٨٥

٥- السُّبكي،طبقات الشافعية الكبرى، ص١٩٢

٦- المصدر السابق، ص١٩٣

وحتى نتبين هذا الاتجاه بشكل واضح فلا بد من الوقوف على جوانب الصراع المختلفة التي دارت في هذا العصر، ذلك أن صراعاً واضحاً قد دار منذ بداية هذا القرن بين الصوفية أنفسهم حول هذا الاتجاه وانحرافه عن الصواب والحقيقة، وفي الوقت نفسه دار صراع بينهم وبين العلماء والفقهاء من أهل السنة والسلف.

فقد كتب الفقهاء كتبهم فدونوا فيها الأحكام الظاهرة التي استخلصوها من القرآن الكريم والحديث الشريف، وكتب الصوفيون كتبهم فأودعوها مواجيدهم التي ذاقوها وحقائقهم التي كشفوها(١).

واختلف فِقهُ الفُقَهاء، وتصوفُ الصوفية، ومنشأ هذا الاختلاف راجع إلى أن الفقه هو علم الأحكام الظاهرة في العبادات والعادات والمعاملات، على حين أن التصوف هو علم الرياضيات النفسية، والمواجيد القلبية، والأحكام الباطنية(٢).

ومن هنا نظر الصوفية إلى أنفسهم على أنهم أرباب الحقائق وأهل الباطن، ونظروا إلى غيرهم على أنهم أهل ظواهر وأهل رسوم من القراء النساك، والفقهاء، والعلماء، مما يحط من شأن الفقهاء وعلمهم بالقياس إلى الصوفية وعلمهم(٣).

وكما نظر الصوفيون لهم بهذه الصورة فقد نظر الفقهاء إلى الصوفية نظرة مقابلة كلها سخط عليهم وتكفير لهم، وتجريح لمذاهبهم؛ ذلك لأن الفقهاء نظروا فيما

١- مصطفى حلمي، الحياة الروحية، ص١١٦ بتصرف
٢- المصدر السابق، ص١١٧
٣- المصدر السابق، ص١١٧-١١٨ بتصرف

خلفه الصوفيون من أقوال، وما أثر عنهم من أحوال، فأحنقهم ذلك عليهم لما بينه وبين تعاليم القرآن من مخالفة، فعمدوا إلى الإبانة عن الزيغ والضلال في قول الصوفية بأن النية مقدمة على العمل، وأن السنة خير من الفرض، وأن الطاعة خير من العبادة .

وقد نقل ابن الجوزي شعرا لبعض الفقهاء يؤكد هذه النظرة حيث يقول (١) :

قال الصوري: وأنشدني بعض شيوخنا لأبي العلاء المعري :

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة(٢)

صار التصوف صيحة وتواجدا ومطرقة(٣)

كذبتك نفسك ليس ذا سنن الطريق الملحقة

وقال أيضا : أنشدنا محمد بن ناصر، أنشدنا أبو بكر، قال: أنشدنا أبو اسحق الشيرازي الفقيه لبعضهم(٤) :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم وأهون بالحلول

أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

ولكن هذا لم يمنع أهل السنة من الإقبال عليهم، والرضى عنهم، والاهتداء في معاملتهم بالرسائل المشهورة، للمعتدلين منهم مثل " قوت القلوب "، لأبي طالب(٥) .

١- ابن الجوزي (الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي، ت ٥٩٧هـ)، تلبيس إبليس، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٦٨هـ، ص٣٧٨.

٢- التخرق: الكذب والافتراء، ولعلها من المخراق: جمعها مخاريق، ما يلعب به الصبيان من الخرق المفتولة، انظر لسان العرب، ٧٦/١٠، باب خرق

٣- التواجد: الشكوى، اللسان، ٤٢٦/١٠، والمطرقة: مضربة الحداد والصانع، اللسان، ٢١٦/١٠

٤- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٣٧٨

٥- مصطفى حلمي،الحياة الروحية، ص١٣٦

وقد وقف أهل السنة بشدة لنظريات الصوفية في القرن الثالث وبداية الرابع وعلى رأسهم الحلاج، وضاقوا بها ذرعاً،" وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الخروج عن الشرع حرمان وزيغ وسخافة، كما كانوا يعتقدون أن الطريق السليم لإدراك المعرفة الصادقة هو طريق الشرع لا طريق العقل"(١).

وتصدى الأشاعرة -الذين يعتبرون أنفسهم حراس الشريعة والتصوف السني-؛ لإنكار مثل هذه الأفكار والمذاهب وكل ما يدخل في بابها، وهَبُّوا ليذودوا عن الإسلام وليوقفوا ذلك التيار الجارف الذي كان يهدد كيانه، أو على الأقل حاولوا أن يكسروا من حدة ذلك التيار بتوجيهه وجهة ما تتفق مع أساليب الإسلام، وعلى رأسهم إمامهم أبو الحسن الأشعري(٢) .

وقد ظهر كثيرٌ من النساك، الذين عاشوا حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف، وانقطاع عن لذائذ الحياة، وانصراف عن زخارفها، ومنهم: ابن عطاء الآدمي ت٣٠٩ هـ، ومحمد الواسطي ت٣٢٠هـ، وأبو السد الصائغ ت٣٣٠هـ، وأبو الخير الأقطع ت٣٤١هـ،وأبو عثمان سعيد المغربي ت٣٧٣هـ،وأبو عبدالله محمد الشيرازي ت٣٩١هـ، وغيرهم كثير، ممن تحدث عنهم القشيري في الفصل الرابع من رسالته، وسماهم بأعلام التصوف(٣) .

١- عبد الستار متولي،أدب الزهد، ص٢٧٢

٢- المصدر السابق، ص٢٧٢-٢٧٣ بتصرف

٣- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، ت ٤٦٥ هـ)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق وإعداد معروف زريق، وعلي عبد الحميد بلطه جي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ومن هؤلاء ابن سالم البصري(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم، ت٣٥٠هـ)،" وهو من أهل الاجتهاد "(١)، صاحب المذهب المعروف بالسالمية؛ فقد هاجم البسطامي وحمل عليه حملة عنيفة لشطحاته الكثيرة؛ فقال:" إن فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد رحمه الله، لأن فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، والرب يُسمى به المخلوق، فيقال: فلان رب دار، ورب مال، ورب بيت، فقال أبو يزيد:" سبحاني، سبحاني "، وسبوح وسبحان اسم من أسماء الله تعالى، لا يجوز أن يسمى به غير الله تعالى، وعلى هذا يلزمه الكفر "(٢) .

وقد تكلم ابن الجوزي في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد والعباد، فحدَّدَ الزهد المشروع، وربطه بالعلم بالكتاب والسنَّة، وأشار إلى دور الفقهاء في توضيح الحقائق وبيان الدنيا المذمومة، وأكَّدَ خطر العبادة على جهل، فقال:" قد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث فيرى أنَّ النجاة تركها، ولا يدري ما الدنيا المذمومة فيلبس عليه إبليس، بأنك لا تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا فيخرج على وجهه إلى الجبال فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم، يصير كالوحش، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي، كيف لا وقد سمع عن فلان أنَّه هام على وجهه، وعن فلان أنَّه تعبد في جبل، وربما كانت له عائلة فضاعت، أو والدة فبكت لفراقه وربما لم يعرف أركان الصلاة كما ينبغي، وربما كانت عليه للناس مظالم لم يخرج منها،وإنما يتمكن

١- السلمي(الإمام أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السُّلمي النيسابوري، ت٤١٢هـ/١٠٢١م)، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، ط٢، دار الكتاب النفيس، حلب، سوريا،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جعله في الطبقة الرابعة، ص٤١٤

٢- الطوسي (أبو نصر عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى السراج الطوسي، ت ٣٧٨ هـ) اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص٤٧٢

إبليس من التلبيس على هذا لقلة علمه، ومن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم، ولو أنه وفق لصحبة فقيه يفهم الحقائق، لعرفه أن الدنيا لا تُذَمُّ لذاتها، وكيف يُذم ما مـــنّ الله تعالى به، وما هو ضرورة في بقاء الآدمي، وسبب في إعانته على تحصيـــل العلـــم والعبادة، من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسجد يصلي فيه، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حِلّه، أو تناوله على وجه السَّرَف لا على مقدار الحاجة، وأن يُصَرِّف النفس فيه بمقتضى رعونتها لا بإذن الشرع، وإن الخروج إلى الجبال المنفردة منهي عنـــه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يبيت الرجل وحـــده، وإن التعـــرض لتركـــه الجماعة والجمعة خسران لا ربح، والبعد عن العلم والعلماء يقوي سلطان الجـــــهل، وفراق الوالد والوالدة في مثل هذا عقوق؛ والعقوق من الكبائر"(١) .

وقد برز الشريف المرتضى في الربع الأخير من القرن الرابع، فكان"صـلحب مدرسة تخرج فيها كثير من الفقهاء والمتكلمين"(٢)، وكان شعره من بعض النواحـــي مرآة تنطبع على صفحتها أخلاق العالم الخبير بأمور الدنيا، المرشد المبصر بـــأمور الآخرة، فمن معانيه: ذم الدنيا، وشكوى الزمان، والوعظ، ومن ذلك قوله(٣):

يقـولـون أسـباب الحـياة كثـيـرة ... فقلـت وأسـباب المـنـون كـثيـر

ومـا هـذه الأيـــام إلا مـصـائـد ... وأشـراك مـكـروه لنـا وغـرورُ

يُسـار بنـا في كـلّ يـوم ولـيلـة ... فكـم ذا إلى مـا لا نـريد نسـيـرُ

١- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٥٠

٢- الشريف المرتضى(أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى، ت٤٣٦هـ)،الديوان، حققه ورتب قوافيه وفسر ألفاظه رشيد الصفار، راجعه وترجم أعيانه مصطفى جواد، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، مقدمة محمد رضا الشبيبي، ص١٧

٣- المصدر السابق، ٢٢/٢

ومـــا الـــدّهر إلا فـــرحة ثـــم تـــرحةٌ وما النـــاس إلا مطـــلـــق وأســـيـــرُ

ويقول في موقع آخر(١):

ماذا العنـــاء وظـــل العـــودِ يُقنـــعني وذا الشـــقاء وبعـــض القوت يكفـــيني

والمـــال تصبـــح صفراً كفُّ جامعـــه ولو أنـــاف على أمـــوال قـــــارون

فقد عُرف عنه أنه كان زاهداً في المال،" منصرفاً إلى العلم، مشغولاً بالدرس، عازفاً عن بهرجة السلطة ومقامات الرئاسة، وكان ميالاً للزهد في الدنيـــا بأســـرها، راغباً عنها، ذاماً لها، داعياً إلى الاعتبار فيها، جاعلاً منها مجازاً للآخرة، ومـــزاداً لدار القرار"(٢) ؛ فيقول(٣) :

قالوا: فرغت من الأشـــغال؟ قلت لهم: لو لم أكن بانتـــظار المـــوت في شُغُل

يا راقـــداً ونـــداء الله يـــوقـــظـــه ألا تـــزودت فيـــنـــا زاد مرتـــحـــلِ

مـــا لي أراك على ربِّ الورى بَطِراً وأنـــت في النّـــاس ملآن من الفشـــلِ

فالعزُّ في هجـــرة الدنـــيا وما ضُمِّنَتْ والذل في طلـــب الأمـــوال والـــدّولِ

ب: زهد المعتدلين من الصوفيَّة

أما من جانب الصوفية أنفسهم فقد خمدت تلك الجذوة التي كانت تضطرم بها قلوب الصوفية في القرن الثالث، والتي ملأتها وجداً ولهفاً للاتصال بالله، وتحولـــت في القرن الرابع إلى بحوث نظرية في عقائد الصوفية وأقوالهم وأخبارهم وطرقهم.

١- الشريف المرتضى، الديوان، ٣/٣٣١

٢- المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص٥٨

٣- المصدر السابق، ٣/٩٥

فصدر كتاب "اللمع" للسراج الطوسي، وكتاب " التعرف لمذهب أهل التصوف" للكلاباذي، وكتاب " قوت القلوب " لأبي طالب المكي، وكتاب " طبقات الصوفية " لأبي عبد الرحمن السلمي، وكتاب "حِلية الأولياء " لأبي نعيم الأصبهاني، ورسالة القشيري، وغيرها(١).

حيث يشير العوادي إلى أن هذه المؤلفات تعتبر أوثق مصادر لدراسة التصوف الإسلامي والتعرف عليه، ويؤكد أنها نعت كذلك على الصوفية الجدد حيدهم عن روح التصوف الأصيل، وانزلاقهم إلى مهاوٍ غريبة عنه(٢)، وهذا ما فعله صاحب كتاب " اللمع " الإمام السَّراج الطوسي، أكبر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم جميعاً بلا استثناء، والذي يعتبر صاحب مدرسة تتلمذ عليها من بعده الكثيرون، وهي المدرسة التي " حاربت في عنف وفي قسوة كل انحراف فلسفي، أو شطح ذوقي، تسرب إلى جوهر التصوف الإسلامي، الذي ابتلي منذ فجره الأول، كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة؛ بالدخلاء والأدعياء سلوكاً وقولاً "(٣).

يقول في مقدمته لكتابه اللمع:" وينبغي للعاقل في عصرنا هذا أن يعرف شيئاً من أصول هذه العصابة وقصودهم، وطريقة أهل الصحة والفضل منهم؛ حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم، والمتلبسين بلبسهم، والمتسمِّين باسمهم، حتى لا يغلط ولا يأثم "(٤) .

١- عدنان العوادي، الشعر الصوفي، ص٨٧
٢- المصدر السابق، ص٨٧
٣- اللمع، مقدمة التحقيق، الدكتور عبدالحليم محمود، ص٨
٤- المصدر السابق، ص ١٨

ثم يقول:" واعلم أنه في زماننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه، وكلاماً ألفه، وليس بمستحسن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا في هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذه الحكم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل"(١) .

فهو يجزم أن العلم هو الأساس والأصل للتصوف الحقيقي، على أن يرتبط بالعمل، ليكون نموذجاً صحيحاً للعبادة والإيمان، منكراً تعطيل القوى وترك العمل والانقطاع للعبادة، مقترباً من منهج الزهد العملي الحقيقي في الإسلام، والذي " يتمثل في حياة التقشف في المأكل والمشرب والملبس مع الخشية والورع والتقوى، وعدم الانقطاع عن العمل والتكسب والمشاركة في الحياة العامة "(٢) .

وكانت نظريات الحلاج سبباً في أن يختلف الصوفية في أمرها إلى طائفتين: طائفة تقبلها لاعتقادهم أن هذه النظريات لها أصولها في كتاب الله وآياته، حسب تفسيرهم الباطن للقرآن، وطائفة أخرى ترفضها لأن القرآن لا يشير إليها بعبارة صريحة، والإسلام لا يقرها مهما أوجدوا لها من مبررات(٣) .

١- الطوسي، اللمع، ص٢٠
٢- عبد الستار متولي، أدب الزهد، ص٢٢ بتصرف
٣- عبد الستار متولي،أدب الزهد، ص٢٧٢

ولقد كان الطوسي واضحا في تخطئة من قال بالوحدة والحلول، وحكم بكفر صاحبها، وأنه ضال بإجماع الأمة فيقول: " بلغني أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى ذكره، اصطفى أجساما حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية، فإن صح عن أحد أنه قال هذه المقالة، وظن أن التوحيد أبدى له صفحته بما أشار عليه، فقد غلط في ذلك "(١)، ثم عدد شيئا من أقوالهم، وحججهم في ذلك، وعاد ليقول ويؤكد:" فمن صح عنه شيء من هذه المقالات فهو ضال بإجماع الأمة يلزمه الكفر فيما أشار إليه، والذي غلط في الحلول، غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، وإنما يحل في القلوب الإيمان به والتصديق له "(٢) .

وقد أورد الإمام ابن الجوزي عددا من الإشارات إلى المعتدلين منهم، ووقوفهم في وجه الشطحات التي تودي بصاحبها إلى الكفر، وذلك في نقد مسالك الصوفية، ومنهم أبو علي الروذباري حيث " سئل عمن سمع الملاهي ويقول: هي لي حلال، لأني وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال، فقال : نعم، قد وصل لعمري، ولكن إلى سقر "(٣) .

وأبو علي الروذباري ت(٣٢٣هـ) هو أحمد بن محمد بن القاسم(٤)، أحد أئمة الصوفية، بغدادي الأصل، من أبناء الوزراء والرؤساء والكتبة، صحب في التصوف

١- الطوسي، اللمع، ص٥٤١
٢- المصدر السابق، ص٥٤٢
٣- انظر طبقات الشافعية، ٣/٤٩، وانظر تلبيس إبليس، ص٢٤٤
٤- السبكي، طبقات الشافعية، ص٤٨

الجنيد، وفي الفقه ابن سُرَيج، وفي النحو ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي، وكان فقيهاً محدثاً على مذهب الشافعي، قال السبكي: وأنشد أبو علي لنفسه(١) :

إن الحقيقة غيرُ ما تتوهَّمُ فانظر لنفسِك أي حال تُضرمُ

أتكون في القوم الذين تأخروا عن حقِّهم أو في الذين تَقدَّموا

لا تُخْدَعَنْ فتلوم نفسك حين لا يجدي عليك تأسُّفٌ وتَلَوُّمُ

فهو فقيه محدث، يدعو للتبصر في العاقبة، والتمعن جيداً لمعرفة الحقيقة عن طريق الشرع الحنيف، وعدم الانخداع بالمظاهر الكاذبة، فيندم وقت لا ينفع الندم.

وقد أشار ابن الجوزي إلى تفريق بعضهم بين الشريعة والحقيقة، واعتبره جهلاً من قائله لان الشريعة كلها حقائق، فإن قصدوا الرخصة والعزيمة فكلاهما شريعة، وقد كفَّر كثير من العلماء من قال بأن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر(٢) .

ومن الشعراء الذين ساروا زمناً مع المتصوفة ثم خرج عليهم وذمهم: أبو بكر محمد بن عمر العنبري، الذي أورد له ابن الجوزي قصيدة في ذم الصوفيَّة، يصفهم فيها بالجهل والدعاوى الكاذبة، وتخبطهم في الهوى، والسماع، والأنين والشهيق، وتمزيق الثياب، فيقول(٣) :

تأملت اختبر المدعين بين الموالي وبين العبيد

فألفيت أكثرهم كالسراب يروقك منظره من بعيد

١- السبكي، طبقات الشافعية، ص٥١

٢- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٣٢٤

٣- المصدر السابق، ص٣٧٦

فناديـــت يا قـــوم من تعـــبـــــدون فكل أشـــار بقـــدر الوجـــــــــود

فبـــعـــض أشـــار إلى نفســـــــــه وأقسم ما فوقـــها من مـــزيـــــــد

وبعـــض إلى خـــرقة رقـــــعـــت وبعض إلى ركوة من جـــلـــــــود

ثم يؤكد أن الشيطان يتلعب بهم، فهم كالمجانين ليس من حل لدائـــــهم ســـوى القيد، مقسماً بأنهم لا يعرفون قدر الله عزَّ وجل ومكانته، فيتابع قائلاً(١) :

فـــيـــا للـــــرجـــال ألا تعجـــبـــون لشيـــطان إخوانـــــنا ذا الـــمـــــزيـــد

يخبطـــهم بفنـــــون الجـــــنـــون ومـــا للمجـــانيـــن غيـــر القـــيـــود

وأقـــســـمُ مـــا عرفـــوا ذا الـــجلال ومـــا عـــرفوه بغيـــر الجـــحـــــود

وهذه الجوانب السلبية" يجب أن لا تجعلنا نترك الجوانب الإيجابية التي تمثلت في شجاعة بعضهم"(١)، كحال الشاعر الحسن بن علي بن سيار، الذي عايشهم فـــترة من الزمن وكان يظنهم خير النّاس، بتوجههم إلى الله واعتزالهم الناس في المســـاجد، وتوكلهم على الله في السفر، ثم تبين له ما وراء ذلك من مكر وخداع وتلبيـــس مـــن الشيطان، بطلب الراحة والدعة، والميل للمُرد، وسماع الغناء والطرب، فيقول(٢) :

رأيـــت قومـــاً عليـــهم سمـــــة الخيـــر بحمـــــــل الركـــــآء مبتهـــــلة

اعتزلـــوا النـــاس في جوامـــعـــــــهم ســـألـــت عنـــهم فقيـــل مُتَّـــكِـــلَـــة

وعندما تبين له حالهم تركهم، وكشف حقيقتهم، ودعا الناس إلى عدم الانخداع بـــهم :

١-عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة، بغداد ص٢٢٢، وانظر الفصل السادس بعنوان" الزهاد والمتصوفة "

٢-ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٣٧٧

إن أكلوا كان أكلهم سرفاً أو لبسوا شهرة مِثله

وجانبوا الكسب والمعاش لكي يستأصلوا الناس شرّها أكلة

فقل لمن مال باختداعهمُ إليهم، ثُبْ فإنهم بطلة

أما الشاعر الصوفي أبو إسحق التيمي القرشي، فقد فهم الدنيا على حقيقتها، ولذلك يحذرنا منها قائلاً[1] :

ننافس في الدنيا ونحن نعيبها وقد حذرتناها خطوبها

وما نحسب الأيام تنقص مدة على أنها فينا سريع دبيبها

ولكي يؤكد سرعة زوالها، يصور لنا نفسه محمولا إلى قبره، فيقول:

كأني برهط يحملون جنازتي إلى حفرة يُحثَى عليّ كثيبُها

وكم ثم من مسترجع متوجع ونائحة يعلو عليّ نحيبها

وباكية تبكي عليّ وإنني لفي غفلة من صوتها ما أجيبها

ويختمها بمخاطبة الموت، مؤمناً بمجيئه، داعياً للاعتباربه:

أيا هادم اللذات ما منك مهرب تحاذر نفسي منك ما سيصيبها

رأيت المنايا قُسِّمت بين أنفسٍ ونفسي سيأتي بعدهن نصيبها

ج- شعر غير الزاهدين من الشعراء :

تحدث كثير من الشعراء في موضوعات الزهد المختلفة، وطرقوا أبوابه العديدة، من ذم للدنيا، ودعوة للقناعة ، وحض على البذل ، وذم للحرص على المال،

١-أبو نعيم الأصفهاني(الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت٤٣٠هـ)، حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ١٤١/١٠

وأن الرزق مقدر بيد الله، مع إشارات كثيرة متعددة للمـــوت، وعلاماتـــه المتقدمـــة كالكبر، والمشيب، إضافة للوعظ والبكاء، والدعـــوة للتوبـــة، والمناجـــاة والدعـــاء، وغيرها مما نجده عند الكثيرين من شعراء القرن الرابع، لكنه لا يمثل اتجاهاً زهديـــاً عملياً في حياتهم، فبعضهم لا يؤمن به، وإنما هو تأكيد لقدرتهم وشاعريتهم بخـــوض غمار المواضيع المختلفة، وآخرون يعبرون عن تجاربهم في الحياة بأسلوب الحكمـــة والوعظ، وينقلون هذه التجارب للآخرين بطريقة فنيَّة لا تخلو مـــن الذكـــاء، لأنـــهم يستخدمون شعر الزهد الممتلئ بالبساطة والرقة، والغنائية الحزينة في أكثر الأحيـــان، مما يمس جوانب النفس البشرية بخفة ولطف، فينطبع فيها سريعاً ويؤثر فيها بعمق.

ولعل بعضهم قد استجاب في لحظات سريعة إلى فطرته الدينية، فنقلها علـــى شكل أبيات ومقطوعات زهدية، تخلل بعضها قصائد المدح، وبعضها قصائد الرثـــاء، وأخرى شعر الفخر، وغيرها من مواضيع الشعر التقليدية، ولدى كثير من شـــعراء العصر المشهورين كالمتنبي، وأبي فـــراس، والصنوبـــري، والشـــريف الرضـــي وغيرهم.

فهذا كشاجم يعلن التوبة حباً للقرآن الكريم، الذي تضمن كلام الله المحكـــم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقرأها وأنِسَ بها عن البشر، بل عـن الدنيا بأسرها، ودفعته للزهد، وإن لم يكن من القراء المعروفين" أي الزهـــاد"، كمـــا يقول هو عن نفسه، (١) :

١- كشاجم(أبو الفتح محمود بن الحسين السندي بن شاهك المعروف بكشاجم، ت٣٥٠هـ)، الديوان، تحقيق وشرح خيرية محمد محفوظ، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م،ص٢٣

من يتب خشية العقاب فإني تبت أنساً بهذه الأجزاء

بعثتني على القراءة والنسك وما خلتني من القرّاء

حين جاءت تروقني باعتدال من قدود وصيغة واستواء

أما الصوري فإنه يحذرنا من الدنيا، ويسميها دار الغرور، مؤكداً على فتنة المال، مذكراً بأن أزهد الناس لا يستطيع دفع هذه الفتنة عن نفسه؛ إلا بجهد ومشقة؛ فيقول(١) :

وهي دار الغرور قصّر باللو م فيها تطاول العُشّاق

وأراها لا تستقيم لذي الزهـ دِ إذا المالُ مالَ بالأعناق

ثم يصور حاله كحال الزهاد، رغماً عنه بسبب الفقر،فهو يعترف باجتهاده في طلب الدنيا، لكنه لا ينال شيئاً (٢) :

أغدو بهمة راغب فيها وحالة زاهد

متشددا في الرزق بيـ نَ نوائب وشدائد

فعلام أنكر عادتي والناس أهل عوائدِ

ونستمع إلى ابن نباتة السعدي وهو يتألم من المآسي التي تهبط على المجتمع من حوله كلّ يوم، فلا يعتبرون، ويتساءل أين ذهبت عقولهم، فيقول(٣) :

وتأخذ من جوانبنا الليالي كما أخذ المساء من الصباح

١-الصوري(عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري، ت٤١٩هـ)، الديوان، تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شاكر، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص٣٠٩

٢-المصدر السابق، ص١٣٧

٣-ابن نباتة السعدي(أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نُباتة السعدي، ت٤٠٥هـ)، الديوان، دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، ٧٥/٢

أمـــا في أهـــلـــهـــا رجـــل لبـــيـــب يـــحس فيشتـــكي ألـــم الجـــــراح

فإن زهداً مثل زهد ابن نباتة، أوغيره من الرؤساء وأصحاب المال والجـــاه؛ "مسبب بفعل تسلط عوامل ذاتية، ونفسية، وخارجية، دفعت مثل هؤلاء المتنعمين فـــي الحياة إلى التشبث بأذيال الزهد"، ثم إن هذا النوع من الزهد لا يدوم، " إنه زهد وقتي يزول بزوال مسبباته"(١) .

ولذلك شارك الخليفة القادر بالله شعراء عصره الحديث في الزهـــد، فـــيروي عنه أبو الحسن الأبهري قائلاً:" أرسلني بهاء الدولة إلى القادر بـــــالله فـــي رســـالة، فسمعته ينشد:

سبـــق القضـــاء بكـــل مـــا هو كائـــن . والله يـــا هـــذا لـــرزقـــك ضـــامـــن

أو مـــا ترى الدنـــيـــا ومصرع أهلـــها فاعمل ليـــوم فراقـــهـــا يـــا حـــائـــن

واعلـــم بأنـــك لا أبـــا لـــك في الـــذي أصبـــحـــت تجمـــعه لغيرك خـــازن

يا عـــامر الدنـــيا أتعـــمـــرُ منـــــزلاً لـــم يبـــق فيـــه مع المنيـــة ســـاكـــن

المـــوت شـــيء أنـــت تعـــلـــم أنـــــه حـــق وأنـــت بـــذكـــره مـــتـــهـــاون

إن المنـــيـــة لا تـــؤامـــر مـــن أتـــت في نفـــســـه يـــومـــاً ولا تـــســـتـــأذن

فقلت: الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين لإنشاد مثل هذه الأبيات، فقال: بـــل لله المنة، إذ ألزمنا بذكره ووفقنا لشكره، ألم تسمع قول الحسن البصري فـــي أهـــل المعاصي: هانوا عليه فعصوه، ولو عزّوا عليه لعصمهم"(٢) .

١- عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع، ص٢٢٤

٢- ابن الأثير، الكامل، ١٩٨/٨

ولا نستغرب أيضا وجود المعاني الزهدية لدى الشعراء الذين وصفوا باللـــهو والمجون، فهذا هو الشاعر المفجع، محمد بن أحمد الكاتب البصري، ت٣٢٧هـــــ؛ يمدح أبا القاسم التنوخي، فيجد منه جفاء، فيكتب له(١) :

لـــو أعـــرض النـــاس كلـــهم فـــأبـــوا لـــم ينقصـــوا رزقـــي الذي قسمـــا

فـــي الله مـــن كـــل هـــالـــك خـــلـــف لا يـــرهب الـــدهر من به اعتصمـــا

ثم عندما يعتذرعن خطأ ألم به، يشير إلى أنه بشر، ومن طبيعة البشر أنـــــهم يخطئون، فيقول:

غلطـــت والنـــاس يغلـــطـــون وهـــل تعرف خلقـــا من غلطـــة ســـلـــمـــا

وفي رواية أخرى أن الأمطار دامت، وقطعت الحركـــة؛ فيتوجـــه شـــاعرنا بالدعاء إلى الله، ويرجوه أن يوقف المطر بظرف واضح، قائلا(٢) :

يـــا خـــالـــق الخـــلـــق أجمـــعيـــنـــا وواهـــب الـــمـــال والبـــنـــيـــنـــا

ورافـــع الســـبـــع فـــوق ســـبـــــع لـــم تســـتـــعـــن فيهـــما معـــيـــنـــا

ومـــن إذا قـــــال كـــــن لـــشـــــيء لـــم تـــقـــع الـــنـــون أو يـــكـــونـــا

لا تســـقـــنـــا العـــام صـــوب غـــيث أكـــثـــر مـــن ذا فـــقـــد رويـــنـــا

ولا بد من الإشارة إلى شاعر آخر، هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني، ت٣٨٤هـــ؛ الذي شارك في شعر الزهد والحكمة، لكنه لم يكن مسلما، فقد

١- جمال الدين القفطي(جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، ت٦٤٦هـــ)، المحمدون من الشعراء، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، ط٢، دار ابن كثير، دمشق، وبيروت، ١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م،ص٢٣

٢- المصدر السابق، ص٢١

"أراده الملوك والوزراء والخلفاء كثيراً على الإسلام، وأداروه بكل حيلـــة، وتمنيـــة جليلة، حتى عُرضت عليه الوزارة إن أسلم، فلم يهده الله للإسلام كما هداه لمحاســـن الكلام، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ويســـاعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن الكريم حفظاً يدور على طرف لسانه، وسن قلمه"، وقالوا:" كان من نساك أهل دينه، والمتشددين في ديانته، وفي محاماته علـــى مذهبه، وتصونه عما يدعو إليه الهوى"(١)، فمن كلامه رسالته إلىأســـتاذه الشـــريف الرضي، يوصيه بأولاده قبل موته بقليل، فقال(٢) :

هو الأجل المحتـــوم لـــي جـــدّ جـــدُّه وكـــان يريـنـــي غفلـــــة المتوانـــــي

لـــه نـــذر قـــــد آذنتنـــــي بهجمـــة لـــه لســـت منـــها آخـــــذاً بأمـــــان

ولا بـــد منـــه ممـــهلاً أو معـــاجلاً ســـيأتي فـــلا يثنيـــه عنـــي ثـــــاني

ثم يرجوه أن يدفع عن أبنائه روعات الزمان وتقلبات أحواله، وقد ردّ عليـــــه الشريف الرضي بقصائد عدة، ورثاه كثيرا في شعره؛ لِما كان بينـــهما مـــن مـــودة وصداقة.

١- الثعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الثعالبي، ت٤٢٩هـ/١٠٨٣م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٢/٢٨٨

٢- المصدر السابق، ٢/٢٨٨

الفصل الثاني

" موضوعات شعر الزهد "

أولاً: الموت

أ- موت الأقارب والأصدقاء

ب- وصف القبور وأحوال الموتى

ثانياً: التنفير من الدنيا

ثالثاً: القناعة

رابعاً: التوجه إلى الله

خامساً: النصائح والمواعظ : أ- النصائح الأخلاقية

ب- الدعوة إلى الصبر

ج- مجاهدة النفس

د- المواعظ

سادساً: الشيب نذير الموت

سابعاً: التصوف

ثامناً: الجهاد والحرب

موضوعات شعر الزهد

مضى شعر الزهد ينكر على أهل الدنيا الحياة المادية المرتبطة بالأرض ارتباطاً حسيّاً، واستمر الشعراء يقفون في وجه تيارات الزندقة، والمجون المنحرفة، "ويقيمون السدود في طريقها، ليقللوا من شدة اندفاعها، وراحوا يصبون فيها ماءً بارداً ليخففوا من درجة حرارتها التي كانت تجتذب الشباب إليها كما تجتذب النار الأفاعي، فاتجهوا إلى الزهد والتقشف، وأداروا ظهورهم للحياة ومتعها، ومضوا يدعون الناس إلى عالم روحاني"(١)، ذلك أن الزهد كان" مضاداً للتهتك والمجون، والخلاعة والفحش، تلك المزالق التي تورط فيها شعراء المرحلة العباسية، فلما أفاقوا على إنذار نهاية الأجل، واقتراب رحلة العمر من غايتها؛ انصرفوا إلى التوبة والاستغفار والندم، والتوفر على الزهد طمعاً في رحمة الله وغفرانه "(٢).

ومن هنا فقد احتوى شعر الزهد موضوعات كثيرة، من بينها- كما يرى ابن قتيبة -(٣): الدعاء، والمناجاة، والبكاء، والتنفير من الدنيا، وذكر الموت، ووصف الكِبَر والمشيب، الذي أكثروا منه حتى قال قيس بن عاصم:" الشيب خطام المنية"، وقال آخر:" الشيب توأم الموت "، ثم الحديث عن الرزق، والصبر، والمال، وما يتصل بكل منها من موضوعات ذات جوانب مختلفة ومتعددة .

١-يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣٥

٢-مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص٧٩٤

٣-ابن قتيبة، عيون الأخبار،٢/٣٤٩.

أولاً : الموت

أكثر الشعراء من ذكر الموت، والوعظ به، واعتبروه النهاية المحتومة التي لا مهرب منها، ولا يمكن جحدها، ولا يملك أحدٌ ردَّها، ولها وقت معلوم لا تستقدم عنه ولا تستأخر، يقول الصنوبري (١) :

ما وُلِدتْ نفسٌ ولا أرضِعَتْ ... وما نزِّهت نفسٌ ولا متعت

ما قدرت أرزاق أيامنا ... فضيقت في القدر أو وسِّعت

إلا لتدعى عند ميقاتها ... حتى اذا ما دعيت أسرعت

ويدعو الناس إلى تذكر الموت والاعتبار به، لأن الحي سوف يموت غداً، ولا فرق بينه وبين الميت الذي دفن بالأمس؛ فيقول(٢) :

اذكر الموت واعتبر ... واصدق النفس وازدجر

من سيمضي إلى القبو ... ر غداً مثل من قُبر

و يحاول بعض الناس أن يختفي من الموت، أو يتحصّن منه، لكن الموت له بالمرصاد فيختطفه فجأة، ليُحمل على النعش كما حُمل السابقون من أهله، يقول(٣) :

كم اختطف الردى مَنْ فوق حصن ... كم انتزع الردى مَن فوق سور

وكم ممن غدا فوق الحشايا ... وبات مغيباً تحت الصخور

وكم لك مِن أخ قد سار أو مِن ... أخ سيسير عنك على سرير

١- الصنوبري(أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن مرّار الضّبي الحلبي الأنطاكي المعروف بالصنوبري، ت ٣٣٤هـ /٩٤٦م)، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٩٢

٢- الصنوبري، الديوان، ص٨٤

٣- المصدر السابق، ص٨٥

ثم يؤكد حقيقة يتغافل عنها الناس، أو يتناسونها، ذلك أننا عندما ننتسب إلى آبائنا وأجدادنا، فإننا في الواقع نعدد أمواتاً، وهلكى بني هلكى، وإن كان بعضهم مازال حياً، لأن الموت قادم وأمره نافذ في الكبير والصغير، في الغني والفقير، وليس ثمَّة فرق عندها بين القصور والقبور لأن ساكنيها جميعاً أموات، فيتابع(١) :

ألست إذا اعتزيت فلست تعزى إلى خلقٍ سوى أهل القبور

إلى موتى بني موتى وهلكى بني هلكى إلى يوم النشور

تأمل هل رأيت الدهر أبقى على بشر غني أو فقير

إلى أيِّ المدائن سرت يوماً لقيت قبورها مثل القصور

ويذكرنا بالأمم السابقة، والأنبياء والصالحين، وقد أصابهم الموت، فلو كان يترك أحداً لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ينجي منه قوة أو بأس، لنجى منه كسرى وقيصر بسلطانهما، أو قارون بماله ؛ فيقول (٢) :

هو الموت ما عافى رئيساً كما ترى فنرجو معافاةً ولا عافَ مرؤوسا

وإلا فأين الأنبياء محمد وعيسى، وموسى قبله وأخو موسى

وأين سليمان بن داود وأين من حوت عرش بلقيس يداه وبلقيسا

أصابت سهام الموت هوداً وصالحاً ولوطاً ونوحاً قد أصابت وإدريسا

وفي المعنى نفسه يقول الصنوبري مرةً أخرى (٣) :

انظر أعافى تبعاً أوعفَّ عن كسرى فخلّد أو عفا عن قيصر

١- الصنوبري، الديوان، ص٨٥
٢- المصدر السابق، ص١٦٩
٣- المصدر السابق، ص١٠٠

وتكون النهاية دعوته الإيجابية للرضى والانقياد لأمر الله سبحانه؛ فيتابع:

مـــا كـــان معلـــومـــاً بأن حلولـــه حتـــمٌ فحـــل لـــوقتـــه لـــم ينـــكـــر

مـــن ذا بأنياب الردى لـــم يفترس أم مـــن بمخلـــب صـــرفه لم يعصـــر

فالقَ الأمـــور بقلـــب راض مذعنٍ لمـــدبـــرٍ للأمـــــر غيـــر مـــدبّـــــر

أما ذهاب الأقارب والأصدقاء، والأبناء، فهو دليل على قرب رحيلنا نحن من بعدهم، فيخاطب الصنوبري ابنته بعد وفاتها مؤكداً لها أنه لاحق بها(١) :

إن كنـــت لا تقدميـــن مـــن سفرك فـــإننـــــي راحـــلٌ علـــى أثـــــرك

وكثير من الناس لاحق بها (٢) :

كـــم مـــــن عـــروس قصـــــورٍ أضـــحـــت عـــــروس الـــقـــبـــور

فـــــهـــــات مـــــن أي دور زُفّـــــــــــــت إلـــــى أي دور

و يظهر عليه تسليمه للقضاء، وإيمانه بالله، عندما يعتبرهـــا وديعـــة لديـــه فيخاطب نفسه قائلاً (٣) :

بنتـــــك يـــا أحمـــدُ فاقـــلُ الأســـى وديـــعـــة فـــي يـــدك استـــودعـــت

فكيـــف لا يظهـــر سيمـــا الرضـــى عليـــك إذ كانـــت قـــد استـــرجعـــت

و يعزي نفسه بذلك مرة أخرى فيقول (٤) :

وكنـــت وديـــعـــة ثـــم اســـتـــردت وليـــس بمنكـــر ردُّ الوديـــعـــــة

١- الصنوبري، الديوان، ص٩٧
٢- المصدر السابق، ص٩٨
٣- المصدر السابق، ص٢٩٢
٤- المصدر السابق، ص٢٢٩

أما أبو فراس الحمداني، فقد كتب إلى أخيه مستسلماً لحكم الله وقضائه(١) :

وهـل يدفـع الإنسان مـا هو واقـعٌ وهـل يعلـم الإنسـان ما هو كاسـبُ

وهل لقضاء الله في النـاس غالـبٌ وهـل من قضاء الله في الناس هـاربُ

فقد عاد من الأسر وقد امتلأت نفسه مرارة وحزناً وأسىً، وكأن أسره هـذا كشف له أسرار الحياة والإنسان والأقدار(٢) ، فيقول بعدها إن الحافظ هو الله :

إذا الله لـم يحـرزك ممـا تخافـه فلا الورى مناعٌ ولا السيـف قاضـبُ

ويؤكد نظرته هذه مرة أخرى (٣) :

مـا للعـبـيـد مـن الـذي يـقـضـي بـه الله امتـنـاع

دُدتُ الأسـودَ عـن الـفـرا ئـس، ثـم تفرسـني الضـبـاعُ

فإذا جاء الموت فلا ينفع حرص الحريص، ولا تحايل المحتال(٤) :

وإذا المنيـة أقـبلـت لـم يثنـهـا حِرصُ الحريـص، وحيـلة المحتـالِ

ولا يدفع أحد الموت بكثرة الخيل والرجال، أو السيوف والرماح، فيقول (٥) :

يا مـن أتتهُ المنـايـا غيـر حافلـةٍ أين العبيـد وأين الخيـلُ والخـولُ

أين الليـوث التي حوليـك رابضـةً! أين الصنائعُ؟ أين الأهلُ؟ ما فعلـوا؟

أين السيـوف التي يحميـك أقطُعهـا؟ أين السوابقُ أيـن البيضُ والأسـلُ؟

١-أبو فراس الحمداني (الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، ت٣٥٧هـ/٩٦٨م)، الديوان ، تحقيق سامي الدّهان، نشر المعهد الإفرنسي، دمشق، سوريا، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م، ٣٢/١

٢-عباس عبدالساتر، شرح ديوان أبي فراس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مقدمة الشرح، ص٧

٣-أبو فراس الحمداني، الديوان، تحقيق سامي الدهان، ٢٥٣/٢

٤-المصدر السابق ٣٠٠/٢

٥-المصدر السابق، ٢٧٥/٢

وهي طريق سوف يسير عليها البَشَرُ جميعاً، فيعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً[1] :

المرء رهـــن مصـــائـــب لاتنقضـــي حتى يُـــوارَى جســـمـــه في رمســـه

فمؤجـــل يلقـــى الـــردى في أهلـــــه ومعجـــلٌ يلقـــى الردى فـــي نفســـه

فهو متيقن من أنه سيؤول ككل حي إلى الموت، لذلك يخاطب قلبـــه طالبـــاً منه أن يخشع و يتوب، ويخاطب علمَهُ الثابت بهذه الحقيقة لكي يستفيد ممـــن دفنـــهم قبله، مستغيثاً بالله من هذا الخاطر الذي يجول في ذهنه عندما يفكر في دخوله إلـــى القبر الضيق المظلم الموحش [2] :

أيـــا قـــلـــبـــي، أمـــا تخـــشـــع ؟ ويـــا علمـــــي، أمـــا تنـــفـــــع؟

أمـــــا شَيَّـــعْـــتُ أمـــثـــالـــــي إلـــى ضَـــيْـــقٍ مـــن المضجـــــع؟

أمـــــا أعـــلـــــمْ بـــــأن لا بُـــــ ـــدَ لـــي مـــن ذلـــك المـــصـــرع؟

أيـــا غـــوثـــــاه، بـــاللـــــــ ـــهِ هـــذا الأمـــــر مـــا أفظـــع؟

ثم يتجلى إيمان الشاعر عندما يرثي نفسه، ويخـــاطب ابنتـــه، لكـــي تتحلـــى بالصبر الجميل، ويرجوها أن تتقيد بشرع الله في بكائها عليه، فلا تكشـــف ســـترَها، ولا تمزق ثوبها كعادة الجاهلية وهي آخر شعره قبل موته [3] :

أبـــنـــيَّـــتـــي لا تـــحـــزنـــــي كـــلُّ الأنـــام إلـــى ذهـــاب

أبـــنـــيَّـــتـــي صبـــراً جـــمـــيـــ ـــلاً للجـــلـــيـــل مـــن الـــمصـــاب

نـــوحـــي علـــيَّ بـــحـــســـرَةٍ ! مـــن خـــلـــف ستـــرك والحـــجـــاب

١-أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢/٢٣٣
٢-المصدر السابق، ٢/٢٥٢
٣-المصدر السابق، ١/٤٧

أما كشاجم فيرى الموت عادلاً في حكمه لأن الناس جميعاً إلى ذهاب[1] :

وما ظلم الموت في حكمه لعمرك حيّاً ولا غالطه

ومَن يك مِن أهل هذا الورى فأيدي المنايا له لاقطة

وهو يأتي فجأة، ويخطف الناس بعدما اكتملت لهم جوانب الحياة الهانئة الرخية بشهادة الأصدقاء والأعداء، لكنها طريق سوف يسلكها الأحياء جميعاً[2]:

وصار للنبل إذا ما بدا قيل أهذا بشرٌ أم مَلَك

وقال مولاه وأعداؤه تبارك الرحمن ما أكملك

راح عليه للردى رائحٌ وكلُّ حيٍّ سالكٌ ما سلك

ويرى الشريف الرضي أن الناس قد غفلوا عن الموت، فيذكرهم بمصارع الغابرين، وأن الحياة قصيرة تمر كالبرق الخاطف، فعليهم أن يعتبروا ويستعدوا قبل أن يتخطفهم الموت كما تخطف السابقين، فيقول في الزهد[3] :

قُل للهوامل في الدُّنا: ما بالكم كالنائمين، وأنتم أيقاظُ

أين المقاول والجبابر قبلكم فاضوا على علل الزمان وفاظوا[4]

متنافسين على المقام، و إنما خلف الركائب سائق ملظاظُ

اللبثُ لمحٌ، والمناخُ محفزٌ والرّعي خطفٌ، والورود لماظ

١-كشاجم، الديوان، ص٣١٤

٢-المصدر السابق، ص٣٨١

٣-الشريف الرضي (أبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرضي، ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥م)، الديوان، تحقيق احسان عباس ، دار صادر،بيروت، ١٩٩٤م ، ٥٩٧/١

٤- فاضوا : اندفعوا وخاضوا وأكثروا، وفاظ الرجل: يفيظ فيظاً وفيوظاً، ماتوا، اللسان، ٢١١/٧

ويظهر إيمانه بحتمية الموت عندما يجعله سناناً يصيب القريب أو سهماً يصل البعيد، فلا يمنع منه درع حصين، ولا خيل ضامرة سريعة، ولو أن الإنسان ابتغى مهرباً في جوف الأرض، أو في أعالي السماء لما وجد من الموت مهرباً(١) :

أراه سناناً للقريب مُسدداً وسهماً إلى النأي البعيد مُفَوَّقا

إذا ماعدا لم تبصر البيض قُطَّعاً ولا الزَّغْفَ مَنّاعاً ولا الجُردَ سُبّقا(٢)

ولا في مهاوي الأرض إن رُمتَ مهبطا ولا في مراقي الجوّ إن رمت مُرتقى

ولا الحوت إن شق البحار بفائتٍ ولا الطير إن مدّ الجناحَ وحلّقا

ويصور الموت فوق رؤوس البشر كالرعد لا يخطئ الإصابة، يسايرهم حيثما ساروا فلا يعلم أحد متى يموت، وأين يدفن (٣) :

نسير وللآجال فوق رؤوسنا تهزُّم نَوءٍ بالمقادير صائبُ(٤)

وما يعلم الإنسان في أي جانبٍ من الأرض يأوي منه في الترب جانب

فهو ينظر في ذلك قول الله عزّ وجل: (" وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت إن الله عليم خبير")(٥) .

ثم يمضي حتى نهاية قصيدته الرثائية فيدعو للصبر الجميل ، فلا رادّ لأمر الله ، ولا ينفع الوجد والبكاء، فإن الميّت لا يعود (٦) :

١-الشريف الرضي، الديوان، ٧١/٢

٢-الزّغف، الدِّرع المحكمة، وقيل الواسعة الطويلة، لسان العرب ١٣٥/٣

٣-الشريف الرضي، الديوان، ١٤٣/١

٤-تهزّم الرعد تَهَزُّماً: صوته، اللسان ٦٠٨/١٢، والنوء به مفرد أنواء وهو سقوط نجم في المغرب ويكون معه المطر، اللسان ١٧٤/١

٥-القرآن الكريم، سورة لقمان، آية رقم ٣٤

٦-الشريف الرضي، الديوان ،١٤٣/١

فصبـــراً جميـــــلاً، إنمـــا هي نومـــةٌ وتُلحقـــنـــا بـــالأوليـــن النّوائـــــبُ

وليس لمن لم يمنـــع الله مـــانـــــــعُ ولا لقضـــاء الله في الأرض غالـــب

ولو ردَّ ميْتـــاً وَجدُ ذي الوجـــد بعـــده لرَدّك وجـــدي، والدموع السَّـــواربُ

و يستشعر الرضي قرب الموت عندما ارتجل يرثي صديقاً له مـــات قبلـــه بشهور فيصف عينه من البكاء كأنها عين ماء لا تنقطع، وقلبه فارغٌ، ولا يتصـــــور لنفسه البقاء، فقد أصبح مقطوع الظهر من بعده، فكأنما أصابته هـــو النائبـــاتُ ولـــم تخطئه، وهكذا مات الرضي بعد هذه المقطوعة بعدة شهور (١) :

لـــــوداع إخـــــوان الـــشبـــــــا بِ مـــضـــت مطـــايـــاهم تـــخـــــبُ

فـــارقـــتـــهـــم والـــعـــيـــنُ عـيـــــ ـــنٌ بـــعـــدهـــم والقـــلـــب قـــلـــــبُ

مـــا كـــنـــت أحـــســـب أنـــنـــــي جَـلِـدٌ عـلـــى الأرزاء صـــعـــــبُ

أو أنـــنـــي أبـــقـــــى وظـــهـــــ ـــري بـــعـــد أقـــرانـــي أجَـــــــبُّ

مـــــا أخـــطـــــأتـــك الـــنـــائـــبـــــا تُ إذا أصـــــابـــت مـــن تُـــحِـــبُّ

وشعر المتنبي أيضاً باقتراب الأجل(٢) ؛ فإنه لما استأذن عضـــد الدولـــة فـــي المسير، أذن له، وخلع عليه،" فأنشده الكافية التي هي آخر شعره، وفي أضعافها كلام جرى على لسانه كأنه ينعى فيها نفسه، وإن لم يقصد ذلك "، وفيها تسعة مواقع فيـــها ألفاظ يتطير بها، ثم ختمها بالهلاك فهلك، وهو قوله (٣) :

١-الشريف الرضي، ١٧/١

٢-الثعالبي، يتيمة الدهر، ٢٧٥/٢

٣-المتنبي (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي، ت٣٥٤هـ)، ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت،١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ١٣٣/٣

وأيــاً شئــت يا طــرقــي فكــونـــي أذاةً أو نــجـــاة أو هــلاكـــــا

فقد أكثر من التشاؤم، ما لم يخطر على قلبه في جميع عزائمه وأشعاره(١) .

وقد وصف المتنبي الموت قائلاً (٢) :

وما المــوت إلا ســارق رقّ شخــصــه يصول بلا كف ويسعــى بلا رجــل

ويعزي الخليفة الراضي نفسه عندما اشتدت به العلة، ويعتبر نفسه وديعة لابد من عودتها إلى يد مالك الملك(٣) :

وأيقنــت أنــي مهــجــة مستــعـــارةٌ تُرَدُّ إلى مِلْكِ المعيــر بغُصَّـــاتِ(٤)

و يخاطب نفسه طالباً منها أن تكون حذرة بعدما جرَّبت وعرفت أن المــوت لا يحابي أحداً، فإنه يساوي بين الحريص على الدنيا والزاهد فيـــها، فــإذا جــاء لا يؤجل، وإذا اكتملت للمرء حياة طيِّبة هانئة فإنما هي دليل على بدء نقصـــه، ولكــن الغرور هو الذي يجعله ينسى ويتغافل(٥) :

أيا نفــس كوني بعد علمــك والفحــص على حذر وارضي من الكل بالشّقص(٦)

ثقي واعلمي أن الممــات معجـــــلٌ إلى كل ذي زهدٍ عزوفٍ وذي حرص

ولا تــطلبــي حـــال التمــام فإنـــه إذا تـــم أمرُ المرء آذنَ بالنقـــص

١-المتنبي، الديوان، ٣/١٣٥، هامش الشرح

٢-المتنبي، الديوان، ٣/١٧٥

٣-الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، ت٣٣٥هـ)، أخبار الراضي بالله و المتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢هـ إلى سنة ٣٣٢هـ من كتاب الأوراق، عني بنشره ج.هيورث . دن، ط٣، دارالمسيرة، بيروت،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٦٤

٤-غصّ بالماء: شرق به، وغصات الموت منه، اللسان ٦/٧

٥-الصولي، أخبار الراضي، ص١٨٤

٦-الشقص: الطائفة أو القطعة، وقيل النصف أو هو قليل من كثير، اللسان، ٧/٤٨

وطرق كشاجم هذا المعنى في وصف الدنيا(١) :

إنـمـا الـدنـيـا كـوهـمٍ أو كـأحـلام مـنـام

كـلُّ شـيء يُـتـوَقّـى نـقـصـه عنـد الـتـمـام

واعتبر بعض الشعراء الموت مناسبة لنبكي أنفسنا نحن، فهذا أبو بكـر بـن طاهر الأبهري أحد الصوفية الذين آلمهم بكاء الناس على موتاهم وليس على أنفسهم، فقد حضر جنازة، ورأى إخوان الميِّت يُكثرون البكاء، فنظر إلى أصحابه وأنشد(٢) :

ويبكـي على الموتـى ويتـرك نفسـه ويزعم أن قـد قـلَّ عنهـم عـزاؤه

ولو كـان ذا رأي وعقـل وفطـنـة لكـان عليـه لا عليـهـم بكـاؤه

وقد آمنوا بأن البكاء لا يرجع ميتاً ولا يشفي غليلاً، يقول الشريف الرضي(٣):

أيُرجـعُ ميْـتـاً رنّـةٌ وعـويـلُ ويشفـى بأسـراب الدمـوع غليـلُ؟

فالبكاء لا ينفع الميت ولو حَوّل سواد العين إلى بياض، والدعاء لقبره بالسـقيا لا يفيده أيضاً، فما هو إلا تقليد يستخدمه الشعراء ترويحاً عن قلوبهم (٤) :

وما تجـدي الدمـوع علـى فـقـيـد ولو غسلـت مـن العيـن السـوادا

وما السـقـيـا لتـبـلـغـه ولكـن وجـدتُ لها علـى قلبـي بُـرادا

فإن الميِّت لا يدري عمَّن بقي بعده شيئاً هل بكاه، أم نساه(٥) :

ومن مات لم يعلـم وقد عانـق الثـرى بكـاه خليـلٌ أم سـلاه خليـلُ

١-كشاجم، الديوان، ص٤٤٥

٢-أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ٣٢٥/١٠

٣-الشريف الرضي، الديوان، ١٩١/٢

٤-المصدر السابق، ٣٧٦/١

٥-المصدر السابق، ١٩٢/٢

ونقف على أمرين متصلين بالموت، يحتاج كل منهما إلى شيء من التفصيل، وهما موقف الشعراء من موت الأهل والأصدقاء، ووصفهم للقبور وأحوال الموتى.

أ-موت الأقارب والأصحاب :

ففي دعوتهم للرضى بالقضاء، والتسليم لله يؤكد الشعراء بعض المعاني القرآنية الكريمة في نظرة الإنسان القاصرة للأحداث من حوله، فلعل ما يظنه هو شراً عليه، إنما هو خير في باطنه يستدعي الشكر والثناء للخالق سبحانه وتعالى، فوقف الشعراء عند وفاة الأب والأم والأبناء والأصدقاء، واعتبرها بعضهم نعمة، يقول الصنوبري (١) :

من ذا يُعزيه فكم نعمة باطنة في نكبة ظاهرة

وكذلك قال الشريف المرتضى يعزي أحد أحبته عن بنت له (٢) :

من عاش إما مات أو كانت له في كل يوم عَبرة تتحدر

إن المصيبة في الأحبة للفتى لو كان يعلم نعمة لا تشكر

أما الأب فإن وفاته قد استبدلت حياة كشاجم من الأنس إلى الوحشة (٣) :

لا تبعدن أبي الشفيق وإن غدوت رهين رمس

ولقد علت دنياي بعـ ـدك وحشة من بعد أنس

ويبكيه مرة أخرى ويدعو له بالرحمة، وأن يتجاوز الله عز وجل عن زلاته، رحمة وكرما منه سبحانه، وأن لا يوكله إلى ما قدمت يداه من عمل، لقول الرسول

١-الصنوبري، الديوان، ص ١٠٠
٢-الشريف الرضي، الديوان، ٣٥/٢
٣-كشاجم، الديوان، ص ٢٦٠

صلى الله عليه وسلم:" لن يُدخِلَ أحداً منكم عملهُ الجنّة "، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال :" ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"(١) ، مستشعراً أنها طريقٌ يسلكها البشر جميعاً، فيقول (٢) :

تغمّد الله بحُسـ ـن العفو عنه زلك
مُسامحاً غير موـ فٍ بالحساب عملك
ولا إلى ما قدّمت يداك فيه وكلك
يا أبتِ كلُّ أبٍ يورد يوماً منهلك
والحي يقفو من مضى به الردى حيث سلك

وموت الأم عند الصنوبري إغلاق لأحد أبواب الجنّة في وجهه، فيقول(٣) :

قد صوحت روضتي المونقة وانتزعت دوحتي المورقة(٤)
بابٌ إلى الجنّة ودّعته مُذ رأيت الموت قد أغلقه

وعند أبي فراس موت أمه موتٌ لدعائها له، ويسليه عنها أنه لاحق بها (٥) :

بأيِّ دُعاء داعية أوقى بأي ضياء وجه أستنير
بمَن يُستدفع القدر المُوّقى بمن يستفتح الأمر العسير
نُسلّى عنكِ: أنّا عن قليلٍ إلى ما صِرتِ في الأخرى نصير

١-الإمام مسلم، صحيح مسلم، م٩، ١٣٣/١٧
٢-كشاجم، الديوان، ص ٣٨٥
٣-الصنوبري، الديوان، ص ٣٧٤
٤-صوحت: يبست، اللسان ٥١٩/٢، والمؤنقة: الأنيقة، أي المعجبة، والأنيق: الشيء الحسن المعجب، والمأنوقة: المحبوبة، اللسان ١٠٠/١٠
٥-أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢١٥/٢

وعندما تموت ابنة الصنوبري يعزيه كشاجم بها فيقول(١) :

أتأسى يا أبا بكر لموت الحرّة البكر

وقد زوجتها القبر وما كالقبر من صهر

وعُوِّضتَ بها الأجر وما كالأجر من مهر

ويذكره بالشكر، والصبر، والتسليم لله ، فالمصائب نِعَمٌ من الله يبتلي بها صبر عباده، فيؤجرون عليها، فيتابع قائلاً :

ورزءٌ أشبه النِّعـ ـمة في الموقع والقدر

وقد يُختار في المكرو هِ للمرء وما يدري

فقابل نعمة الله التي أولاكَ بالشكر

أما موت الأصدقاء والخلان عند الشريف الرضي فهو إحياء لأخوتهم ومحبتهم وتجديد لها، مقارنة بآخرين من الأحياء الذين ماتت محبتهم وأخوتهم، لأنهم لايراعون حقوق الأخوة والصداقة، فموت الصديق الصادق موت لجزء من أجزائك، وكأنك تموت شيئاً فشيئاً، أو جزءاً فجزءاً(٢) :

أحبابي الأدنينَ كم ألقى بكم داءً يُمِضُّ فلا أداوي الدّاءَ

أحيا اخاءَكمُ الممـاتُ، وغيرُكم جرّبتهم، فثكلتهم أحياء

إلا يكن جسدي أصيب فإنني فرّقته، فدفنته أعضاء

١-كشاجم، الديوان، ص٢٤٦

٢-الشريف الرضي ، الديوان ،٣٤/١.

فالإنسان عنده كالقضيب من الشجر ما يكاد يصبح أخضرَ مزهـــراً حتـــى يعود عارياً من شبابه ونضرته (١) :

وكـــأن الأيـــــام يُـدركـــن ثـــأراً عندنـــا فيـــه، أو يَقضـــيـــن نـــــذراً

إنمـــا المـــرء كـــالقضـــيـــب، تـــراه يكتســـي الأخضر الرّطيب ليعـــــرى

معكس السهـــم ذا يُـــراش ليمـــضـــي في المرامـــي، وذا يـــراش ليبـــرى(٢)

ويفقد شاعرنا السرور لفقد صديق آخر طلّق الدنيا (٣) :

وآخـــرَ طلّـــقـــت الســـرورَ لـــفـــقـــده وقـــد راحَ للدنيـــا النّشوز مُـــطلّقـــا

ويبكي ابن دريد صديقاً له، ويتمنى لو أنه يقاسمه العمر، ولو استطاع لمـــا دفنه في التراب بل جعله في قلبه بين ضلوعه؛ لكرمه وشجاعته (٤) :

بنفسي ثرىً ضاجعـــت في تربة اليـــلا لقد ضمّ منك الغيث، والليث والبـــدرا

فـــلـــو أن حيـــاً كـــــان قبـــراً لميِّـــت لصيّرت أحشـــائي لأعظمه قبـــــــرا

ولو أن عمري كـــان طـــوع مشيئتـــي وساعدني التقديـــر قاسمته العمـــــرا

وما خلـــتُ قبـــراً وهو أربـــــع أذرع يضم ثقال المُزن والطـــودَ والبحـــرا

فيظهر بذلك التسليم لله، والرضى بأمره عندما يفقـــد الشـــاعر أحـــد أقاربـــه أوأصدقائه، فيدعو لهم، ويعتبر ذلك نذيراً لنا؛ كي نستعد للسير في الطريق نفسها.

١-الشريف الرضي، الديوان، ١/٥٠٠

٢-" قبل الرمي يراش السهم "، انظر الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد، ت٥١٨هـ/١١٢٤م، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٢/٤٩١

٣-الشريف الرضي، الديوان، ٢/٧١

٤-ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، ت٣٢١هـ/٩٣٣م) ديوان ابن دريد، تحقيق عمر بن سالم، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٣م، ص ٦٩

ب- وصف القبور وأحوال الموتى :

واستخدم الشعراء وصف القبر وظلمته، وأحوال الميت فيه، طريقاً للترهيب من المعاصي، وخاطبوا الموتى وأجابوا على ألسنتهم، وهم يعلمـــون أن الميّـت لا يجيب، ولكنّهم أرادوا وصفاً متخيلاً لحالهم، لكي نبقى على حذر من هذا المآل.

فهذا أبو القاسم الحسين بن علي المغربي، عندما غيّرمكان نومـه قُلِـقَ فـي فراشه ليلاً، فأخذ يتصور كيف يكون حاله في القبر (١) :

إنـــي أبـثُّـــك مـــن حـــديـــ ـثي والحـديـث لـه شجـون(٢)

فـارقـــتُ مـوضـــع مـرقـــدي ليـــلاً فنـافـرنـي السكـــون

قُـــل لـــي فـــأول لـيـلـــةٍ في القـبـر كيـف تُـرى أكـون

ويذم الشريف المرتضى الدنيا، ويحث على الزهد، فيستخدم وصـــف القـبر دليلاً على ذلك (٣) :

والمـــرء غايـة لُـبـسِـه كَـفَـنٌ يبلـى وآخِـر بيـتـه اللّـحـــدُ

ويستغرب ممن ينسى نهايته، عندما يُهال التراب فوقه، ويُصَفّح بالحجارة(٤):

أَلَـــيْـسَ وراءك مُـــزوَّرةٌ عليـهـا الصـفـائح والجـنـدلُ

إذا مـا أنـاخ الفـتـى عنـــدهـا مقيـمـاً فـيـا بُعدَ مـا يرحـــلُ

وإن جـاءهـا فـوق أيـدي الرجـال فبالـرَّغم مـــن أنـفـه ينـــزل

١-الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣٥/٥

٢-الحديث ذو شجون، مثل عربي مشهور، انظر الميداني ٣٥١/١

٣-الشريف المرتضى، الديوان، ٢٢٧/١

٤-المصدر السابق، ١١/٣

وعندما يتخيل الصنوبري القبر، يصفه لنا فراشا من الطين، ضيقا مظلما، لا تمر فيه الريح ولا تصله الشمس، وفي ذلك عبرة أي عبرة (١) :

يا فراشا من المدر ... ووسادا من الحجر

جوف بيت كتولج الظـ ... ـبي في الضيق والقصر(٢)

مظلم اللون لا ترى ... فيه شمس ولا قمر

ليس يدري المقيم فيه ... بريح ولا مطر

يا بني الموت إن للـ ... ـحي في الموت معتبر

أما الميت، فكيف يكون ؟، إنه يتحول من القوة إلى الضعف، ومن الحديد في عزمه وشدته إلى تراب لا يبدئ ولا يعيد، فيقول الرضي(٣) :

أرى المرء يفعل فعل الحديـ ... ـد وهو غدا حمأ لازب

ذلك أنه يوضع تحت الأرض على جنبه، ويسندونه بالتراب من أطرافه حتى لا يميل إلى يوم المعاد؛ فهو متخاذل كمن نام بعد سكر شديد، ولكنه نائم في أحشاء الأرض التي ستأكله فيعود إليها كما خلق منها، فهو من تراب وسوف يصير إلى تراب كما يقول الشريف الرضي (٤) :

ومسندين على الجنوب كأنهم ... شرب تخاذل بالطلا أعضاؤه(٥)

١-الصنوبري، الديوان، ص ٩٦

٢-التولج: كناس الظبي أو الوحش، وهو موضع في الشجر يستتر به من الحر، اللسان، ٣٩٩/٢

٣-الشريف الرضي، الديوان، ١٣٩/١

٤-المصدر السابق، ٣٣/١

٥-الطلا: بعض العرب يسمي الخمر الطلاء، يريد تحسين اسمها، إلا أنها الطلاء بعينه، أي القطران تطلى به الإبل، اللسان ١١/١٥

تـــحـــت الصعـــيـــد لِغير إشفـــاق إلـــى يـــوم المعـــاد تضمهـــم أحشـــاؤه

أكلتهـــم الأرض التـــي ولـــدتـــهـــــمُ أكل الضـــروس حلـــت لـــــه أكلاؤه

ويقدم لنا الصنوبري صورة جديدة لحال الميت فهو يقول: إننا نرى الموتـــى صباح مساء عندما نشاهد التراب المتطاير، الذي تحمله الريح فتذهب وتجيء بـــــه، فإنما هو عظام وجلود وشعور للموتى الذين دفنوا على مرِّ الدهور(١) :

أما أبصـــرت قومـــاً قـــطُّ مـــاتـــوا عـــلى مرِّ السنـــيـــن أو الشـــهـــور

فأبصـــرت العظـــام بـــلا جـــلـــــود وأبصـــرت الجلـــود بـــلا شـــعـــور

بلـــــى أبصـــرتهم أيضـــاً ترابـــــاً تجولُ به القَبُـــولُ مـــــع الدَّبـــور(٢)

والمَيِّت يتبدل الأكفان بالحلل، ويعلو التراب غرته بدلاً من الضياء، (٣) :

جســـم تفـــرد بـــالأكفـــان يجـــعـــلهـــا مـــذ طلّق العمر أبـــدالاً مـــن الحلل

وغـــرة كـــضيـــاء البـــدر لامـــعـــــة صار التـــراب بهـــا أولى من الكلل

شر اللبـــاس لبـــاس لا نـــزوع لـــــه والقبر منزل جـــار غيـــر منتقـــــل

ويتخيل أبو الحسن التهامي نفسه كيف يصير تحت الـــثرى وحيـــداً، يتركـــه الأصحاب والأصدقاء، ثم يأكله الدود، فيطلب العفو من الله قائلاً (٤) :

تبدّل صاحـــبـــي فـــي اللحـــــد منـــي وهـــــال علـــى منـــاكبـــيَ الصّعيـــدا

١-الصنوبري، الديوان، ص٨٥

٢-القبُول: ريح الصبّا وهي التي تستقبل باب الكعبة سُميت قبولاً لأن النفس تقبلها، اللسان ٥٤٥/١١، الدبور: ريح تهب من نحو المغرب، تقابلها الصبّا من المشرق، اللسان ٢٧١/٤

٣-الشريف الرضي، الديوان، ٢١٨/٢

٤-أبو الحسن التّهامي (أبو الحسن علي بن محمد، ت٤١٦هـ) ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق محمد زهير الشاويش، ط٢، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص٦٧

وودّعـنـي وعـزّ عـلـيـه أنـي أودِّعـه وداعـاً لـن أعـودا

فلو أبصرتني مـن بعـد عَشـرٍ رأيـت محاسِني قد صِـرن دودا

وحيـداً مفـرداً، يا رَبّ عـفـواً بعبدك حين تتـركـه وحـيـدا

أما الناس فيعودون بعد دفن أقاربهم لا يحملون إلا التراب، يزيلونـه عـن ملابسهم وأيديهم كما يقول الشريف (١) :

كـم راحـلٍ وليّـتُ عنـه، وميِّتٍ رجعـتْ يـدي من تربـه غبـراء

أما الميِّت فيبقى وحيدا دون سمير بعد أنسه بالجيران والأهل والأقارب، فـهل يشعر به جيرانه من الموتى؟ هذا ما يتساءل عنه الصنوبري في رثائه لوحيدته (٢) :

واحـدتي أمسيـت في وحـدة مـن بَـعـدِ ألافٍ وسُـمَّـار

مـا بـال جيرانـك أهـل البلـى هـل داركتـهـم رقَّـة الجـار

ويبقى الاتصال الوحيد معهم أن نستغفر لهم فعندمـا يرثـي الصنوبـري صديقه، يعتذر عن قلة زيارته له، ويستبدلها بالترحم عليه، والاستغفار له (٣) :

اعـززْ علـيَّ بأن أزورك يـا أخـي فـي منـزلٍ نـاءٍ عـن الـزّوار

خليـتَ دورك واتسـاع فضـائهـا مستبـدلاً منهـا بـأضيـق دار

فلئن حمانـي مـن لقائـك ما حمـى فترحمـي يلقـاك واستغـفـاري

وهوعندما يخاطبه يعلم أنه لا يجيب، لأنه يستغرب نداء البواكي للموتى(٤) :

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢٢/١

٢-الصنوبري، الديوان، ص ٩٥

٣-المصدر السابق، ص ٩٨

٤-المصدر السابق، ص٩٧

نســـاءٌ فـــي حـدادٍ صـائحـــات كغربـان تصـايحُ فـي الوكـــور

ينادينَ الأحبـة فـــي صخـــــورٍ وكيف يجيـب من تحـت الصخـور

ويؤكد الشريف الرضي ذلك، فعندما نادى لم يجبه ســوى الصــدى، ولــم يشاهد سوى التراب المتطاير تذروه الرياح (١) :

ولـقـد مـررت ببـرزخٍ، فسألـتـه: أيـن الألـى ضمّتـهـمُ أرجـاؤه

مـثل المطـيِّ بواركـاً أجداثـــه تُسفي على جنبـاتهـا بـوغـاؤهُ(٢)

ناديتـه، فخفـي علـيّ جوابـــه بالقـول إلا مـا زَقّـت أصـداؤه(٣)

ويسأل الصنوبري ابنته عن غيبتها عن شهر رمضان الذي حضر، وقد كانت تؤنسه في لياليه، ويتذكر اعتكافها فيه للدعاء، وقراءة القرآن، فيجيب على لسانها(٤) :

يـا أبـي لـيس عـند مـن مـات عـلـم ولا خـبـر

لا هـلال الـصـيـام يُـرْ عَـى ولا الـفـطـر يُنـتـظـر

درسَـتْ يـا أبـي الـمـحـا سِـنُ وانـمـحـت الـصـور

فـي ثـرىً لا يُـحَـسُّ فـيـ ـه بـمـن زار أو هـجـر

فإن المؤنس الوحيد في القبر، هو المعروف والعمل الصالح، الذي يصبح نوراً للمؤمن في قبره، فيقول الشريف الرضي عن والدته (٥) :

١- الشريف الرضي، الديوان، ٣٣/١

٢-تُسفي: سفت الريح التراب: ذرّته، وقيل حملته، والسافياء: الغبار، اللسان ٣٨٩/١٤، وبوغاؤه: التراب بعامة، وقيل التراب الناعم، اللسان ٤٢١/٨

٣-زقا يزقو الديك والطائر والصدى والهامة: صاح، اللسان ٣٥٧/١٤، والصدى: كانت العرب تقول إذا بلي الميّت يخرج من هامته طائر يسمى الصدى، وقيل الصدى: ذكر البوم والهامُ، اللسان ٤٥٤/١٤

٤-الصنوبري، الديوان، ص٩٦

٥-الشريف الرضي، الديوان، ٣٠/١

معروفُـكِ الســامي أنيــسُـك كلمـــا ورد الظلام بوحشـــة الغبـــراء

وضياء ما قدّمتِـــهِ مِــن صـــالـــحٍ لكِ في الدُّجــى بــدل من الأضــواء

وعندما يدفن الصالحون الزاهدون، فإن قبورهم تصبح رياضاً مـــن ريـــاض الجنّة، ويتعدى خيرها ونورها إلى القبور المجاورة، فتبرد حرارة نارها(١) :

لقد أودعـــوا الأكفـــان منـــه عبـــادةً ونسكـــاً وتسبيـــحاً لعَمري وتقديســا

نأى عن نعيـــم العيـــش زهـــداً كأنـــه يعـــد نعيـــم العيش من زهده البوســا

لقد حُسِـــبَ الفردوسُ قبـــراً حللتَـــــه وأضحت قبورٌ جاورتـــه فـــراديسـا

وليس القبر إلا مرحلة من مراحل الإنسان، وهي لا تقاس إلا كالقيلولة لمـــا بعدها من حياة دائمة، في جنّةٌ أو نار، فيقول عنها الشريف(٢) :

نقولُ: مقيـــلٌ فـــي الكرى لجنـــوبـــنـــا وهل غيـــر أحشاء القبـــور مقيـــلُ

ثم يدعو لشراء رغد الجنّة بالخشن من العيش، فهي أفضل نهايـــة، وأســـعد نتيجة، يقول (٣) :

ما كان يومـــاً بالغبـــيـــن من اشتـــــرى رغـــد الجنان بعيشة خشنـــــــاء(٤)

ويتحدث الصولي عن يوم البعث والنشور، بعدما يشير إلى أن النّاس سـوف يبقون في حبسهم –وهو البرزخ –ينتظرون ذلك اليوم الـــذي يـــأتون فيـــه جميعـــاً للحساب، عندها لن تسمع لهم من الخوف والرعب صوتاً ولا حساً(٥) :

١-الصنوبري، الديوان، ص ١٧١

٢- الشريف الرضي، الديوان، ١٧١/٢

٣-المصدر السابق، ٢٧/١

٤-الغبن في البيع: الوكس أي الخداع، ورجل غبين في الرأي والعقل والدين، أي مخدوع، اللسان٣١٠/١٣

٥-الصولي، أخبار الراضي، ص ٧٤

أوّلُـهـم منـتـظـرٌ آخـــــــرٌ فهـو عليـه الـدهـر ذو حـــبـس

حتـى يجـيـئـوا وكَفَـات لهـــم ولا يُـرى للقـوم مـن حِـــــسٌ (١)

وبَعْثُهـم مـن بعـد ذا كـلُّـــــه لِخَابِـل الجِـنَّـــــةِ والإنـــــس(٢)

تخشـع أصواتهـم خـيـفـــــة فـلا تُنـــاجـي يسوى الهمـــس

ناظراً في ذلك معنى الآية القرآنية الكريمة "يومئذ يتَّبعون الداعيَ لا عِـــوَجَ له وخشعت الأصوات للرَّحمن فلا تسمع إلا همساً، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً"(٣) .

وأخيراً فليختر الإنسان لنفسه إحدى الدارين، يقول الصنوبري (٤) :

ولا دارٌ سـوى داريـن فـاخـتـــر خلـوداً في النّـعيـم أو السَّعـيـــر

ثانياً : <u>التنفير من الدنيا</u> :

شكى الشعراء من الدنيا وتلونها، ووصفوها، وحذروا النـــاس مـن تقلبـها، واستخدموا في ذلك المعاني القرآنية، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الشريف الرضـــي الذي وقف كثيرا عند الدنيا، وزوالها بسرعة، وشدة غرور الناس بها، وطول الأمـل الذي يفسد الأعمال، حيث طغت هذه الفكرة على شعره، ووردت بصور مختلفة فـي سائر قصائده ، ومع ذلك يرى بعض الباحثين أن لمحات الزهد التـي جـاءت فـي شعره" إنما هي خطرات ألمت بالشاعر في وقت ضيق أو عند وقوع حادثة، أو حين

١- وكفت العين: دمعت وسالت، وقيل للعين وكوف: إذا تقاطر الدمع، اللسان ٣٦٣/٩

٢-خبل: ضرب من الجن يقال لهم الخابل، والخابل: الشيطان، والخابل: المفسد، اللسان ١٩٧/١١

٣-القرآن الكريم، سورة طه، الآيتان ١٠٨، ١٠٩

٤-الصنوبري، الديوان، ص ٨٥

يفقد عزيزاً "[1]، وهذا رأي قريب من واقع الشاعر ونفسيّته، فقد "كان مغموساً في الحياة السياسية، وكان مشغولاً بالمجد الذي يريد تحقيقه، وذلك كلُّه لا يتيح فرصة للتزهيد، على النحو الذي عرف به الزُّهاد"[2]، لكننا نجد في عفته، وحرصه على دينه، ما يناسب هذه اللمحات الكثيرة في شعره، لإيمانه وصدقه فيما يقوله، ونكاد نجدها في قصائد المديح والفخر وسائر الفنون على السواء، فلعله زَهِدَ بطريقة تختلف عن غيره من الشعراء؛ فهو كما يقول قد زهد في الدنيا لأنه لم يبلغ ما يريد من طموح وآمال عريضة فاحتقر الدنيا، وأصبح الزمان وأهله في نظره شيئاً هيناً لا قيمة له، بل أصبح طعم الموت والحياة عنده شيئاً واحداً فيقول [3] :

زهدت وزهدي في الحياة لعلة ... وحجة من لا يبلغ الأملَ الزهد

وهان على قلبي الزمان وأهله ... ووجداننا، والموت يطلبنا، فقدُ

فالدنيا في نظره أنفاس معدودة تمضي، وأيام تمر سريعاً، لا فرق بينها إلا أن الناس أسموها غروراً أمس واليوم وغداً، فيخاطب الناس جميعاً مؤكداً ذلك[4]:

لا تَعُدَّ العيشَ شيئاً، إنه ... نَفسٌ يقضي، وأيام تُعَدُّ

إنما الأيام يومٌ واحدٌ ... وغرورٌ اسمه اليوم وغد

وعندما وقف بالحيرةِ تذكر أهلها فلم يجدهم إلا ركباً تأنّى برهة ثم ارتحل[5] :

١-عبد الفتاح محمد الحلو، الشريف الرضي حياته ودراسة شعره، ط١، هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ١٩٣/٢

٢-المصدر السابق، ١٩٣/٢

٣-الشريف الرضي، الديوان، ٣٣٦/١

٤-المصدر السابق، ٢٧٤/١

٥-المصدر السابق، ٥١٠/١

حـــبـذا أهلك المحـلـون أهـــــلاً يـــوم بانـــوا وحبّـذا الـــدّار دارا

لـم يكونـوا إلا كركـب تأنّـــــى بُرهة فـــي مُنـاخـه ثـم ســـارا

وعندما يشكو الدنيا بمرارة يقولون له: ماش الدهر هكذا كيفما اتفق، فكيـــف يفعل وقد أبصر الحقيقة بقلبه؛ فالدنيا ظل زائل، ونوم مرعب ومخيف؛ فيقول(١) :

يقولـون ماش الدهـر من حيث ما مشى فكيف بماشٍ يستقيـم وأضـلـــــع

وما واثق بـــالدهـر إلا كـــــراقـدٍ على فضل ثوب الظلُّ والظل يسرعُ

وقالوا تعلل: إنمـا العيـش نومـــــة يقضي ويمضـي طارق الهّم أجمـعُ

ولو كان نوماً ساكنـاً لحمـــــــدته ولكنـــه نـــوم مَـرُوع مفـــزّعُ

فلذلك كان حذراً منها وقال لها ارجعي عندما جاءته بزينتها وزخرفها(٢) :

إني اذا حلب البخيـل لـبانهـــــا أمسيـــت أحـــلبهـا دم الأوداج(٣)

خطبتنـــيَ الدنيـا فقلـت لها ارجعـي إنـــي أراك كـثـيـــرة الأزواج

ثم يحذر الناس منها حتى لا يقعوا في حبائلها(٤) :

لا تأمن الدنيـا عليـــك فإنهـــا ذاتُ البـعـول تـبـدل الأبـــدالا

ثم يصورها امرأة جميلة في فتنتها، لكنها متقلبة المزاج(٥) :

هي دنيـا إن واصلـت ذا جفـت هـا ذا ملالاً كـــأنهـا عطبـــول(٦)

١-الشريف الرضي، ٦٦٧/١

٢-المصدر السابق، ٢٣٩/١

٣-الوَدَج: عرق في العنق، والجمع أوداج، وهما عرقان، وقيل ماأحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح، اللسان٣٩٧/٢، واللَّبان: الصدر أو الوسط، وقيل ما بين الثديين للإنسان وغيره، اللسان ٣٧٦/١٣

٤-الشريف الرضي، الديوان، ٢٠٣/٢

٥-المصدر السابق، ١٨٧/٢

٦-عطبول: جارية جميلة فتية ممتلئة طويلة العنق، وهي الحسنة التامة، اللسان ٤٥٦/١١

ويشبهها بامرأة حمقاء، في طبعها وأخلاقها، فلا يستحسن معاتبة الأحمق[1] :

شربنـــا من الأيـــام كأســاً مـــريـــــرة تدارُ بأيـــدٍ لا نَـــــرُدُّ شرابـــــهـــا

نعاتبـــهـــا والذنـــب منهـــا سجيـــــــة ومن عاتـــب الخرقـــاء ملَّ عتابهـــا[2]

وتتحول هذه النظرة العقلانية الواضحة للدنيا وزوالها إلى دعـــوة صريحـــة للتوجه للخالق فهو أكرم مأمول وأعظم مسؤول، ضارباً مثـــلاً واضحـــاً لاســـتحالة الخلود في الدنيا لمن يأمل ذلك، باستحالة عودة الأيام الماضية، فيقول[3] :

ليس المعـــاد إلـــى الدنيا بمتفـــــــقٍ ولا رجـــوعٌ لمن يمضـــي بـــه الأجلُ

والله أكرمُ مولـــى أنـــت آمـــلـــــه يوماً، وأعظـــم من يعطـــي ومن يُســـلُ

وكيف نأمل أن تبقـــى الحياة لنـــــا وغيرُ راجعـــــةٍ أيـــامـــنـــــــا الأولُ

ولذلك يعلن على الملأ طلاق الدنيا بعزم شديد، فيطلقها ألفاً، ويعجـــب ممـــن يمسكون بها، ناسين أن التقوى هي الزاد الوحيد منها، وأن نهاية الجميع واحدة[4] :

مالي إلى الدنيـــا الغـــرورة حاجـــــةٌ فليخزَ ساحـــرُ كيـــدها النّقّـــــــــاثُ

طلقتهـــا ألفاً لأحســـم داءهـــــــــا وطـــلاقُ من عـــزم الطـــلاق ثـــــلاثُ

سكناتهـــا محـــذورةٌ، وعهـــودهـــــا منقـــوضـــــــةٌ، وحبالهـــــــا أنكاثُ

إني لأعجـــب من رجـــالٍ أمسكـــوا بحبائـــل الدنيـــــا، وهـــنَّ رثـــــاثُ

أتراهـــمُ لم يعلمـــوا أنّ التقـــــــى أزوادنـــا، وديـــارنـــــا الأجـــــداثُ

١-الشريف الرضي، الديوان ٧٢/١

٢-الخُرق: الجهل والحمق، والخرقاء: الحمقاء الجاهلة، اللسان ٧٥/١٠

٣-الشريف الرضي، الديوان ١٨٢/٢

٤-المصدر السابق، ٢٢٨/١

أما الببَّغاء فيعجب من خداع الدنيا للبشر بزينتها وزخرفها دون نتيجة سوى الهمِّ الطويل ثم النهاية المحتومة وهي الموت (١) :

حتام تخدعنا الدنيا بزخرفها ولا تحصّلنا منها على أرَبِ

نُسرُّ منها بما نجني عواقبه همّاً، ونهرب والآجال في الطلب

لا تستكن لطوارق النُّوَبِ والقَ الخطوبَ بوجه محتسبِ

ثم ينادي بأعلى صوته محذراً منها، طالباً من النّاس أن لا يغتَّروا بها(٢) :

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي

ولا يغرركُمُ حسن ابتسامي فقولي مضحك والفعلُ مبكي

وفي وصف الدنيا قول أبي محمد طاهر بن الحسين فيها (٣) :

إذا تبرّجت الدنيا فعاهرةٌ خضابها دَمُ من تصبي فتغتالُ

كأنها حيّة راقت مُنقَّشة ولان ملمسها والسمُّ قتّالُ

ويعقب الثعالبي قائلاً:" أخذه من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:" مثل الدنيا كمثل الحيّة لينٌ مسها، والسم ناقع في جوفها، يهوي إليها الغِّر الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل"(٤)، وهذا ما يقوله الشريف المرتضى أيضاً(٥) :

ألا إنما الدارُ دارُ البلاء ففي شهدها أبداً حنظلُ

١-البَبّغاء (أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، ت ٣٩٨هـ)، الديوان، دراسة وتحقيق سعود محمود عبد الجابر، ط١، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة، الدوحة، قطر، ١٩٨٣م، ص٥١

٢-المصدر السابق، ص ١٢٩

٣-الثعالبي، يتيمة الدهر، ٢٩/٥

٤-الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٢٨/٤

٥-الشريف المرتضى، الديوان، ١٠/٣

وقد ألمّ الشريف الرضي بهذا المعنى، فالأماني والآمال في الدنيا عنده كالسم مدسوساً مع العسل، ويقول(١) :

ونستلذ الأماني وهي مرويّة كشارب السمِّ ممزوجاً مع العسل

نؤمل الخلد والأيام ماضية وبعض آمالنا ضرب من الخطل(٢)

وقريباً من هذا المعنى يقول أبو الفرج الساوي(٣) :

هي الدنيا أشبهها بشهدٍ يُسِمُّ، وجيفةٍ طُليت بمسكِ

هي الدنيا كمثل الطفل، بينا يقهقهُ إذ بكى من بعد ضحك

ألا يا قومنا انتبهوا فإنا نُحاسَب في القيامة غيرَ شك

والتقوى هي خير زاد يحمله المرء من هذه الدنيا الفانية، المليئة بالأوجاع والآلام والأحزان (٤) :

قلّب قلوب بني الدنيا فلست ترى فيما يُقلّب قلباً ما به وجعُ

أما لله ما حملت أنثى ولا وضعت إلا وللموت لا للعيش ما تضعُ

وإن مُنْتَجِعَ التقوى لَمُنتجِعٌ مَرْعىً له نُجَعٌ ما بعدها نُجَعُ(٥)

فهو يقصد المثل العربي" من أجدب انتجع "(٦) .

أما أبو فراس فيرى الدنيا خيلاً صعبة الانقياد، ويجب أن نحذر منها(٧):

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢١٩/٢

٢-الخطل: الهراء والمنطق الفاسد المضطرب، اللسان ٢٠٩/١١

٣-الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤٩٥/٣

٤-المصدر السابق، ص/٢٩٠

٥-النُّجعة: طلب الكلأ في موضعه، والمنتجع: المنزل في طلب الكلأ، ويقال: فلان نجعتي، أي أملي، ونَجعَ الدواء: إذا عمل ونفع، اللسان ٣٤٨/٨

٦-يضرب للمحتاج فيقال له: اطلب حاجتك من وجه كذا، انظر الميداني، مجمع الأمثال، ٣٤٩/٣

٧-أبو فراس الحمداني، الديوان، ٥٣/١

ألا إنما الدنيـا مطية راكـــــــــبٍ عـــــلا راكبوهـا ظهر أعوج أحدبا(١)

شموسٌ متى أعطتـك طوعاً زمامهـا فكـن للأذى من عُقـهـا مُتَرقّبـــا(٢)

ويشرح كشاجم بصورةٍ جميلة شقاء الإنسان في الدنيا، عندما تؤذيه وتعـلنده كالشوائب في مائه الذي يشربه (٣) :

يشقى الفتى بخلاف كـــــلِّ مُعـانـدٍ يؤذيـه حتـى بالقـذى فـي مائـه

يهوي إذا أصغـى الإنـاءَ لشربـــــه وتروغ عنه عـنـد سكـب إنائـه(٤)

فهو لا يجد في الدنيا صفاءً، رغم تجاربه الكثيرة، فيدعوه ذلك للزهد فـــي الدنيا، والتخلي عنها، وينقلب عما كان يهواه ويحبه إلى حالة البغض والكراهية (٥) :

سأصرف عنك يـا دنياي وجهـــاً وأبغـضُ منك ما قد كنـت أهـــوى

بـلوتُ مشاربـاً لـــك مترعـــاتٍ علـى ظمـأٍ فلـم أرَ فيـك صفـواً

فنعيمها سراب كما يرى الشريف المرتضى، لذلك يحذر من طلبها(٦) :

ولا تطلب الدنيا فـــإن نـعيمـهـــا سرابٌ تراءى في البسيـطـة زائـلُ

وهذا أبو بكر الخالدي، يؤكد أن الذي يعرف الدنيا حقاً يستصغر شأنها (٧) :

ومن عرف الدنيا استقـل سرورهـــا ولو برزت من حُسنها في مجاسـدِ(٨)

١-العَوَج: الانعطاف فيما كان قائماً، وأعوج: فرس سابق رُكب صغيراً فاعوجت قوائمه، والأعوجيه منسوبة إليه، وهو فحل كريم، اللسان،٣٣١/٢، والحَدَب: خروج الظهر ودخول البطن والصدر، وقيل الأحدب: الشرير، اللسان ٣٠٠/١

٢-شَمَسَ: شَرَدَ، والشَموس من الدواب: الشّرود والجموح التي تمنع ظهرها، اللسان ١١٣/٦

٣-كشاجم، الديوان، ص٣٢

٤-صغا: مال، وأصغى الإناء أساله وَحَرَفه على جنبه ليجتمع ما فيه، اللسان ٤٦١/١٤

٥-كشاجم، الديوان، ص٣٥

٦-الشريف المرتضى، الديوان، ٣٩/٣

٧- الخالديان(أبو بكر محمد ت ٣٨٠هـ، وأبوعثمان سعيد ت ٣٩٠هـ، ابنا هاشم الخالدي، ديوان الخالديين، جمعه وحققه سامي الدّهان، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٤٧/١

٨-المِجْسد: القميص الذي يلي البدن من جسد المرأة، فتعرق فيه، والجمع مجاسد، اللسان ١٢٠/٣

ويراها كذلك شقيقه أبوعثمان سعيد، فهي حقيرة، ومصائبها كثيرة، لا يصبر فيها إلا ذوي العزم، فيزدادون بنوائبها معرفة وأجراً وذكراً جميلاً[١] :

تزيدني قسوة الأيام طيب ثنا ... كأنني المسك بين الفهر والحجر[٢]

ولست أبكي لشيب قد مُنيت به ... يبكي على الشيب من يأسى على العمر

وقد نظرت إلى الدنيا بمقلتها ... فاستصغرتها عيوني غاية الصغر

أما الصولي فيحذر من أحبَّ الدنيا أن يُصيبه العمى والجنون [٣] :

من عزّ بالدنيا هفا قلبهُ ... وعاد منه النُّورُ ذا طَمْس[٤]

وزال في تلوينها عقله ... وغاله طيفٌ من اللقس[٥]

ثم ينتقل للحديث عن الموت، ليعود مُجدّداً إلى الدنيا، ويركز الآن على خداعها للناس بالآمال والأماني، فتصيبهم الغفلة فيها وينشغلون بالمطعم اللذيذ، واللباس الجميل حتى يأتي الموت فجأة [٦] :

يخدع فيها بالمنى نفسه ... ووافدُ الموتِ به مُرسي

ينسى الذي يأتي به صَرفُها ... والأمل الغرّارُ قد يُنسي

وهي المعاني التي أكدها الرسول عليه السلام، ومنها فيما يرويه أنس أنه قال:" يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر"[٧] .

١- الخالديان، الديوان، ١٢٨/٢

٢-الفهر: حجر يملأ الكف يُدقُّ به الجوز ونحوه، اللسان ٦٦/٥

٣-الصولي، أخبار الراضي، ص٧٣

٤-هفا: الطائر إذا طار، وكذلك القلب، اللسان ٣٢٦/١٥، والطمس: الامحاء والدروس، وطموس البصر: ذهاب نوره وضوئه، اللسان ١٢٦/٦

٥-اللقس: الحرص والشّره، اللسان ٢٠٨/٦

٦-الصولي، أخبار الراضي، ص٧٤

٧-الترمذي، الجامع الصغير، ٢٠٦/٤

ثالثاً : القناعة

ربط الشعراء بين المال وبين الدنيا، فهما زائلان، ولا يبقى إلا الذكر الجميل بين الناس، والأجر الجزيل عند الله عز وجل، الذي جعل المال امتحاناً وابتلاءً، فمن أخذه من حقه، واستعمله فيما أمر الله، وأنفقه في سبيل الله ؛ فقد فاز ونجا، وأما من بخل به، وكنزه، أو استعمله في المعصية فهو يحمل وزره، ثم يسلمه للورّاث من بعده فإن أساءوا التصرف فيه، أو أحسنوا، فهو الخاسر الوحيد لأنه زائل مثله.

فيجمع الصوري المال والدنيا في بيت واحد قائلاً [1] :

والمالُ يَنْفدُ والحياة كلاهما ... فعلامَ يُجمعُ نافِدٌ في نافدِ

ثم يكرر المعنى بزوال المال، مع دعوة صريحة واضحة للبحث عن الذكر الجميل بالإنفاق من المال في وجوهه التي ترفع ذكر المرء عالياً [2] :

أرى المال عن أهله زائلاً ... ولستُ أرى المجد بالزائلِ

وهذا مُقيمٌ وذا راحلٌ ... فخُذْ للمقيم من الرّاحلِ

ذلك أن الذي ينفق راجياً وجه الله ، سوف يعوضه عنه الأجر الكثير، فعليه أن يعطي الجميع، فقراء أم أغنياء، يقول أحمد بن عبد الرحمن النحوي في ذلك [3] :

إذا ما نلت من دنياك حظاً ... فأحسن للغني وللفقير

ولا تمسك يديك على قليل ... فإن الله يأتي بالكثير

١- الصوري، الديوان، ص١١٤
٢- المصدر السابق، ص٣٨٨
٣- الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣/٣٦٣

لأنك عندما تنفق إنما تقدم لنفسك، وتمهّد لها طريقاً صعباً، فما زرعته فسوف تحصده، أما المال الباقي من بعدك فهو من نصيب الورثة، أو من توصي لهم به، أو يتصرف فيه القاضي إذا كان أولادك صغاراً، فيجب أن يعوّد الإنسان نفسه على الإنفاق صغيراً قبل أن يكبر فيصبح البخل من طبعه، يقول أبو مسلم الجهني [1] :

امهد لنفسك يا أبا الفياض واعلم بأنك عن قليل ماض

ويحوزُ مالكَ وارثٌ للمال أو موصىً إليه أو وكيل القاضي

إن الكبير إذا تناهت سنّه أعيت رياضته على الرواض

وعندما يشاهد أبو الفرج عبد الصمد بن علي الصوري صديقاً له يعمر داره، فإنه يحذره من التبذير حتى لا يكون من إخوان الشياطين، لقول الله عز وجل: " إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين" [2] ، فهو يعتقد أن عمارة الدنيا، وبناء البيوت المرتفعة من أعمال أهل الدنيا من السلاطين والحكام والأمراء، أما الذي يخشى الله فلا ينفق ماله في أي أمر إلا إذا كان في سبيل الله [3] :

دع عمل الطين للسلاطين لا تك من إخوان الشياطين

فما بقاء الدريهمات إذا أنفقن هيناً في الماء والطين

ويغضب أبو فراس عندما يعاتبه الناس على كثرة عطاياه [4] :

ضلالٌ ما رأيت من الضلال معاتبة الكريم على النوال

١- الثعالبي، اليتيمة، ١٠٤/٥

٢- القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية رقم ٢٧

٣- الثعالبي، اليتيمة، ٨٥/٥

٤- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢٧٨/٢

ولا والله مـــا بخلـــــت يمينـــــي ولا أصبحـــت أشـــــقاكم بحـــــال

ولا أمســـي يحكـــم فيـــه بعـــــدي قليـــل الحمـــد مذمـــــوم الفعـــــال

ولكنـــــي ســـــأقنيه، و أقنـــــي ذخـــائر مـــن ثـــــوابٍ أو جمـــــال

فهو يؤمن بأن الفقر والغنى بيد الله ، يقلب أحوال الناس كيف يشاء، وليـــس الإنفاق سبباً للفقر، وكما أن النعمة لا تدوم، كذلك الفقر لا يدوم [١] :

هـــل تـــرى النعمَـــــة دامـــتْ لصغـــــــــيرٍ أو كبـــــــــير

أو تـــــرى أمريـــــن جـــــاءا أولاً مثـــــــل أخـــــــــير

إنمـــــا تجـــــري التصـــــا ريـــــف بتقليـــــب الأمـــــور

ففقـــــير مـــــن غنـــــــيّ وغنـــــيٌّ مـــــن فقـــــير

لذلك يصبح المال عاراً على صاحبه إذا لم يكن قانعاً عفيفاً، وهـــي نصيحـــة يخاطبنا بها الشريف الرضي [٢] :

أبثك أن المال عارٌ علـــى الفتـــى ومـــا المـــالُ إلا عقـــةٌ وقنـــوعُ [٣]

ثم يحذر من البخل لأنه من طبائع اللئام [٤] :

نهيتك عـــن طبـــع اللئـــام فـــإنني أرى البُخل يأتي والمكـــارمَ تُطلـــبُ

تعلّم فإن الجودَ في النّـــاس فطنـــةٌ تناقلـــها الاحـــرارُ والطبـــعُ أغلـــبُ

١- أبو فراس، الديوان، ٢٠٤/٢

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٦٢١/١

٣- القنوع: السؤال والتذلل، وقيل الطمع، والقانع: الراضي، ومن العرب من يجيز القنوع بمعنى القناعة، اللسان ٨/ ٢٩٨

٤- الشريف الرضي، الديوان، ١٠٨/١

أما المال الذي يأتي بالذل والسؤال والإهانة فلا حاجة له، لأن كرامة المـــرء أبقى وأدوم له من المال الزائل [1] :

لا حاجة بي إلـــى مـــال يعبدنـــي له الرجاء ويضنيني بـــه الشـــغل

حسبي غنى نفسي الباقي وكل غنـى مـــن المغـــانم والأمـــوال ينتقـــل

ويرسلها حكمة على المدى قائلا [2] :

يا آمـــن الأقـــدار بـــادر صرفـــها وأعلـــم بـــأن الطـــالبين حثـــاث

خذ من تراثك ما اســـتطعت فإنمـــا شركـــاؤك الأيـــام والـــــوراث

لم يقض حـــق المـــال إلا معشـــر وجدوا الزمان يعيث فيـــه فعـــاثوا

تحثوا على عيب الغني يـــد الغنـــى والفقر عن عيـــب الفتـــى بحـــاث

فالبيت الأخير:" يعد من الحكم المشهورة والمتداولة" [3] ، فإن إنفاق الغني من ماله يغطي عيوبه ويخفيها عن الناس .

ثم يتابع الشريف وصيته الزهديه، محذرا من تحكم الشهوات في المال، فإن المرء لن يأكل من ماله أكثر من حاجته، أما ما يزيد فسوف يؤول للوراث [4] :

المال مال المرء ما بلغـــت بـــه ال شهوات، أو دفعـــت بـــه الأحـــداث

ما كان منه فـــاضلا عـــن قوتـــه فليعلمـــن بأنـــــه مـــــيراث

١- الشريف الرضي، الديوان، ١٨١/٢

٢- المصدر السابق، ٢٢٨/١

٣- الشريف الرضي، الديوان، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ج١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، حاشية ص٢١٨

٤- ديوان الشريف الرضي، تحقيق إحسان عباس، ١ /٢٢٨

ويستغرب كشاجم قول القائلين بأن من أحب أهل البيت يبقى فقيراً طوال عمره، ويقول: هذا كذبٌ وافتراء، وتأويل باطل لدعوته عليه السلام، التي كانت تحذر من الدنيا وحب المال، فالواقع أنهم تركوا الدنيا وتخلوا عن المال طائعين راغبين، إرضاءً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، [1] :

زعموا أن من أحبّ عليا ظلّ للفقر لابساً جلبابا

كذبوا كم أحبه من فقير فتحلى من الغنى أثوابا

حرّفوا منطق الوحي بمعنىً خالفوا إذ تأوّلوهُ الصوابا

إنما قوله: ارفضوا عنكم الدُّ نيا إذا كُنْتُم لنا أحبابا

فإن الإنسان كلما أنفق من ماله زاد وبورك له فيه، أما الحريص على الرزق فهو ذليل عند كشاجم، ويضيع ماله من حيث لا يدري [2] :

بالحرص في الرزق يذل الفتى والصبرُ فيه الشرف الشامخ

ومستزيد في طلاب الغنى يجمعُ لحماً ما له طابخُ

ضيع ما نال بما يرتجى والنارُ قد يطفئها النافخ

لكننا نعلم أنه لا يوجد حرٌّ يقبل الذل، فماذا يفعل إذا عَدِم المأكل الحلال الطيب، ولم يجد المال ؟ يجيبه كشاجم [3] :

لا تغدُ كَلاً واجتنب أمراً يخافُ الحرُّ عاره

١- كشاجم، الديوان، ص٣٨

٢- المصدر السابق، ص١٣٣

٣- المصدر السابق، ص٢٠٤

وإذا عُدِمْـــتَ مـــــن المـــــآ كـــلِ خيرهـــا فكـــــلِ الحجـــارة

وتحدث الشعراء عن القناعة، واهتموا بها، فهذا الشاعرمحمد الرّهاوي، ممـن كانوا يعارضون أبا العتاهية، يقنع بقوت يومه ولا يقبل الهوان والذل [١] :

قنعـت بـالقوت مـن زمـــاني فصنـت نفسـي عـن الـــهوان

مـن كنـتُ عـن مالـه غنيـــاً رأيتُـــه كـــــالذي يرانـــي

أما الصنوبري فعندما يلبس ثوباً من القناعة يجد نفسه مرتاحاً لذلك، حتـى أنه يستقبل المصيبة كما يستقبل الخبر المفرح بروح راضية [٢] :

نفس صبراً فلـن يطيـق نـهوضاً ذو جنـاحٍ جناحُـــهُ مقصـــوصُ

قـد لبسـت القناعـة الآن ثوبـــاً فاستوى الشريُ في فمي والخبيـصُ[٣]

ونفس الشريف الرضي تغالبه في مطالبها الكثيرة ، فلا يجد الراحة والرضـى إلا بردعها، فإن نجح في ذلك فهي القناعة الكاملة [٤] :

وتشتاق نفسي حالـــة بعـد حالـةٍ وأزجُرُهـــا ؟ إنـــي إذاً لقنـــوعُ

فهو يصف حال النفس البشرية التي لا تقنع، فتهلك صاحبها، مع أنـه يملـك سيف القناعة، ويملك الرضى بقضاء الله الذي يعز من يشاء، لذلك لا يقبل الذل[٥] :

فـوالله لا ألـقـى الزمـان بـذِلَّـةٍ ولو حطّ في فوْدَيّ أمضى غـــروبه[٦]

١-الثعالبي، اليتيمة، ٣٩/٥

٢-الصنوبري، الديوان، ص٢١٣

٣-الشري: الحنظل، وقيل شجره، واحدته شرية، اللسان ٣٤٠/١٤، والخبيص: الحلواء، اللسان ٢٠/٧

٤-الشريف الرضي، الديوان، ٦٢١/١

٥-المصدر السابق، ١٣٤/١

٦-الفود: معظم شعر الرأس،مما يلي الأذن، اللسان ٣٤٠/٣، وسيف غرب: قاطع حديد، اللسان ٦٧٣/١

قَنِعتُ ، فعندي كـــلُّ مَلْـكٍ نُزُولُـه عن العِــزّ والعليــاء مثــلُ رُكوبــهِ

وفي الحديث الشريف عن فُضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله عليه الســـلام يقول:" طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع"(١) .

ويذم أبو فراس الحرص، وما يؤول إليه حال صاحبـــه مــن ذل وهــوان، ويرى الغنيَّ غنيَّ النفس ولو كان حافياً، ولا يملأ القلب غنى إلا القناعة(٢) :

تعِسَ الحريص وقل ما يـــأتي بــه عوضاً عـــن الإلحــاح والإلحــاف

إن الغنـــي هــو الغنـــي بنفســـه ولو أنـــه عــاري المنــاكب حــافي

ما كل ما فـــوق البسـيطة كافيــاً وإذا قنعــت فبعــض شــيء كــافي

وتعاف لي طمع الحريص فتوتـــي ومروءتـــي وقنـــاعتي وعفـــافي

وقد ورد ذلك في الحديث الشريف فيما يرويه أبو هريرة قــال: قــال عليــه السلام:" ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس"(٣) .

والقناعة لا تتعارض مع الهمة العالية كما يقول كشاجم (٤) :

قنــوعٌ علــى أن لـــــي همـــة تنــاط النجــوم بــها فــي قــرنْ (٥)

والمال والصديق متلازمان عند الشريف الرضي (٦) :

إذا قل مالُ المـــرءِ قــلّ صديقــهُ وفارقــهُ ذاك التّحنُّــنُ والـــوُدُّ

١- الترمذي، الجامع، ١٥٦/٤
٢- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢٥٥/٢
٣- الترمذي، ١٦٥/٤
٤- كشاجم، ص٤٨٤
٥- القرَن: الحبل يقرن به البعيران، اللسان ٣٣٦/١٣
٦- الشريف الرضي، ٢٣٥/١

وهذا لا يوجب التخلي عن الكرم والجود وخاصة على الأصدقاء، فإن ذلك معناه البخل المذموم، فالحل الوحيد هو البذل، والعطاء باستمرار دون انتظار سؤال، أو طلب من الآخرين، كما يرى أبو فراس [1] :

ليس جودا عطية بسؤال قد يهز السؤال غير الجواد

إنما الجود ما أتاك ابتداء لم تذق فيه ذلة الترداد

لذلك فإنهم عندما طالبوا الإنسان أن يفهم دور المال في الحياة، وأن يقنع بما يسره الله له، وأن يتوكل عليه سبحانه، فقد ربطوا ذلك بالرزق وأنه مقدر مكتوب، من الله عز وجل، ومهما تعب الإنسان في طلبه؛ فإنه لايزيد ولا ينقص [2] :

هي المقادير لست تقدر أن تعدو أرزاقك المقاديرا

فالرزق آت كله، ولو كان في أفواه السباع، مع وجوب السعي بقدر المستطاع [3] :

ولا تعجل إذا حاولت أمرا تنل ما رمت من غير امتناع

وما لم تستطعه فعد عنه وأوضع في سبيل المستطاع

فرزقك سوف تدركه جميعا ولو أضحى بأفواه السباع

وهكذا استمرت الدعوة للقناعة، والرضى بما قسمه الله، مع العمل قدر المستطاع، مرتبطا بالتوكل عليه، وليس القعود والتواكل المذموم.

١- أبو فراس الحمداني، الديوان ص٦١

٢- الصنوبري، الديوان، ص٢٩

٣- المصدر السابق، ص٢٧٤

رابعاً : التوجه إلى الله

لقد توجه الشعراء إلى الله بالدعاء والشكر، وطلب المغفرة، ودعـــوا النـــاس جميعاً لذلك، معتقدين أنه لا مسؤول بحق إلا الله، ولا فارج كـــرب أو هـــمّ إلا الله ، ولا يكف البلاء إلا الله ، وأن رحمته واسعة لمن يعظمه سبحانه، ثم يطلب منه التوبة ولا ييأس من إجابة الدعاء .

فهذا الصنوبري يتوجه لله بعد ما وصف الثلج، الذي هو من بديـــع خلقـــه سبحانه، فيعظّم الله بقدرته، وخلقه للأشياء والنفوس جميعاً [١] : .

تعالـــــى الله خـــالق كل شـــيء بقدرتـــه وبـــــاري كـــل نفـــس

لقد أضحى جميـــع الأرض تجـــري كواكبـــه بســـَعـْدٍ لا بنـــَحـــْس

ويحمدهُ عز وجل بعد أن يصف الشتاء، مسلماً راضياً بالقضاء والقدر [٢] :

فـــالحمد لله حمـــد مُبتـــــهج بمـــا قضـــاه عليـــه أو قـــدَّرْ

ثم يؤكد قدرة الخالق سبحانه، عندما اشتاق إلى دمشق وأهلـــها، فيتوجـــه لله راجياً أن يعينه على رؤيتهم مستذكراً قدرته عز وجل في إعادة يوسف إلى أبيه[٣] :

عسى من أرى يعقوب غرّة يوســـفٍ يُريّنيـــهم إن القديـــــر قديـــرُ

وليس هذا بعيداً على الله فهو قادرٌ على ما لا تتوقعه العقول والأذهان، ويقـدم لنا مثلاً على هذه القدرة، حتى نتصور عظمة الخالق؛ فيقول[٤] :

١- الصنوبري، الديوان، ص١٨٠
٢- المصدر السابق، ص٨٢
٣- المصدر السابق، ص٨٣
٤- المصدر السابق، ص٣٦٥

إن مـــن قـــدر الفـــــراق قديـــرٌ أن يذيـــقَ الفِـــراقَ طعـــمَ الفـــــراق

والتوكل على الله تعظيم له سبحانه وتعالى، فإن توكل الإنسان على غيره فقد وقع في الشرك المحرم، كما يقول الشريف المرتضى، [1] :

ما ضر من رهـــــب الملـــوك لو انه رهـــب الذي جعل الملـــوك ملـــوكـــا

وإذا رجـــوت لنعمـــــة أو نقـــمـــــة فارجو المليـــــك وحاذر المملـــوكـــا

وإذا دعوت ســـوى الإلـــــه فإنـــمـــا صيرت للـــرحمـــن فيـــك شريـــكـــا

وهذا التعظيم يعني التوجه لله فهو المعين والنـــاصر، وإلا أصبـــح الإنســـان مخذولاً ضالاً، لا معين له، ولو كثر أهله وعشيرته، أو اعتمد على أفضل دليل فـــي الدنيا، يقول أبو فراس في ذلك قبل موته [2] :

إذا لـــم يُعنـــك الله فيمـــا تريـــــده فليـــس لمخلـــــوق إليـــــه ســـــبيل

وإن هو لم ينصرك لم تلق نـــــاصراً وإن عـــزّ أنصـــارٌ وجـــــلّ قبيـــلُ

وإن هو لم يرشدك في كـــل مســـلكٍ ضللـــت ولـــو أن السّـــماك دليـــــل

لأنه خالق كل شيء، وأكبر من أي شيء، فلا تخشَ إلا إياه[3] :

فلا تحتفـــل بالنـــاس في الذم والثـــنا ولا تـــخـــشَ غـــير الله فالله أكـــبـــر

والتعظيم يعني اليقين بأن الوقاية والحماية، وأن العزة منه وحده سبحانه[4] :

ومن لـــــم يـــوقِّ الله فـــهو ممـــزّق ومـــن لـــم يُعِـــزّ الله فـــهو ذليـــــلُ

١- الشريف المرتضى، الديوان، ٣٦٦/٢

٢- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣١٩/٢

٣- ابن دريد، الديوان، ص٢١

٤- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣١٢/٢

ولذلك يظهر الإيمان الصادق بقدرة الله في المواقف والملمات، فعندما أشار عليه بعض المنجمين بأمر ما، خالفه متوجها إلى الله ، فعلم الغيب والإرادة بيده[1] :

يـــا معجبـــا بنجومـــه لا النحـس منـك ولا السـعاده

الله ينقـــص مـــا يشـــا ء وفـــي يـــد الله الزيـــاده

دع مـا أريـــد ومـــا تريـــ ـــد، فـــإن لله الإراده

ومن يتوكل على الله فهو حسبه، والتجربة خير برهان عند أبي فراس [2] :

ولمـــا أن جعلـــت اللـــ ـــه لـي سـترا مـن النـوب

رمتنـــي كـــل حادثـــة فـأخطتني ولـــم تصـــب

فإن آمنت بأن الأمر كله بيده، ولا يتم شيء إلا بإذنه، فافزع إليه، وتوجه إليه في كل أمورك، فإن أصعب الأمور عنده سبحانه سهل ويسير، كما يقول الببغاء[3] :

كـــل الأمـــور إلـــى مـــن بـــه تتـــم الأمـــور

وافـــزع إليـــه إذا لـــم يجـــرك عجـــزا مجـــير

وكـــلُ صعـــبٍ عســـيرٍ عليـــه ســـهلٌ يســـيرُ

بل إن الراحة الحقيقة لا تكون إلا في تفويض أمورك كلها للعليم الخبير، الذي هو أرحم بك من نفسك، وأرأف بك من والديك الشفوقين، كما يقول الشريف[4]

قـد قلـتُ للرجـل المقسِّـم أمـرهُ فـوِّض إليـه تنـم قريـر العيـن

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٧٤/١
٢- المصدر السابق، ٣٨/١
٣- الببغاء، الديوان، ص٩٤
٤- الشريف الرضي، الديوان، ٤٩١/٢

رُدّ الأمـور إلـى العليـم بسـرها وتلقـى مـا يعطيكـه بيديـن

الله أنظر لـي مـن النفـس التـي تغـوى وأرأفُ بـي مـن الأبويـن

حتى عند إصابتك بالمرض والضُرّ، فإن الله جوادٌ كريم، فوجِّه الشكوى إليه وحده فهو الرحمن الرحيم [1] :

لا أشـتكي ضـري مـن الـ نـاس وهـم مـن أعلـمُ

إن إلـهاً مـسَ بالـ ـضـرِّ جـوادٌ منعـمُ

أشـكو الـذي يرحمنـي إلـى الـذي لا يرحـمُ

فمن طبيعة البشر أنك إذا سألتهم شيئاً يغضبون، أما الخالق سبحانه وتعالى فهو يغضب إن لم يتوجه إليه خَلْقُهُ بالطلب والسؤال، فإن سألوه واعتصموا بحبله فسوف يجيبهم، يقول كشاجم [2] :

لا تسأل الناس شيئاً واغْدُ معتصماً بالله تلقَ الـذي أملـت مـن أمـلِ

فالنـاس تغضبـهم إمـا سـألتهمُ والله تغضبـه إن أنـت لـم تسـلِ

وما أجمل التوبة لله والاعتذار له عن الزلل، فالبشر خطاؤون وخيرهم التوابون، وعندما يعلم العبد أن له رباً غفوراً، فينادي يا رب، فلن يرده الله صفر اليدين، يقول البديعي[3] :

بدرت زلـة الحـكيـم وقبـلـي زلَّ داوُد سـيد الزهـادِ

١- الشريف الرضي، الديوان، ٣٢٥/٢
٢- كشاجم، الديوان، ص ٤١٠
٣- الثعالبي، اليتيمة ٤٢/٥

ثم نادى : الأمانُ يا رب قـــد تبـــــ ـــت فهب لي خطيئتـــي واعتمـــادي

والليـــالي كمـــا علمـــت حبـــــالى كـــل يـــــومٍ تجيـــنَ بـــالأولادِ

ويستغرب أبو القاسم البهدلي ممن لا يتوجهون إلى الله بطلب التوبة والمغفرة، فكثيراً ما يرجو الناس من بعضهم المسامحة والعفو، فكيف لا يُرجى مـــن الجبـــار سبحانه وتعالى، ثم يتساءل من نحن في جنب الله ؟ فلو جاءه العبد بقـــراب الأرض خطايا ثم استغفره لغفر له، لأن المعصية لا تنقص من ملك الله شيئاً، لكنه يحـــب أن يتوب إليه عباده [1] :

مـــن أنـــا عنـــــد الله حتـــى إذا أذنبـــت لا يغفـــر لـــي ذنبـــي

العفـــو يرجـــى مـــــن بنـــي آدم فكيـــف لا يرجـــى مـــن الـــربِّ

فهو محيط بكل ذنوبنا، ويعلم جهرنا وما تخفي الصدور، وطلب التوبة منـــه يخفف العقاب، لأنه اعتراف بها، فكيف إذا كنت موحداً مؤمناً صادقاً، كمـــا يقـــول أحمد بن فارس اللغوي [2] :

يا ربِ إن ذنوبي قـــد أحطّـــتَ بـــها علماً وبـــي وبـــإعلاني وإســـراري

أنـــا الموحِّـــدُ لكنـــي المقِّـــرُ بـــــها فَهَبْ ذنوبـــي لتوحيـــدي وإقـــراري

كذلك ابتهل الخليفة الراضي، ودعا الله عز وجل أن يغفر له لإيمانـــه أولا، ثم لاعترافه بذنبه ثانيا، فهو خير من غفر سبحانه[3] :

١- الثعالبي، اليتيمة، ٢٨/٥

٢- ابن الأثير، الكامل، ٣٩٢/٧

٣- الصولي، أخبار الراضي، ص١٨٥

ربِ إني ذخرت عندك أرجو مُدّخْـــر إنني مؤمن بما بين الوحيْ في السُّـوَرْ

واعترافي بترك نفعي وإيثاريَ الضرّر رَبّ فاغفر لي الخطية يا خَيْرَ من غَفَرْ

لكن التوبة لا تستقيم للعبد إذا صاحبها اليأس، فحذر الشـــعراء منـــه، لأن لله ألطافاً خفية تحيط بعباده، وإن لم ينتبه لها كثير من الناس، كما يقـــول أبـــو فـــراس موصياً والدته[1]

يـــــا أمتـــــا لا تيأســـــــــي لله ألطـــــــــاف خفيـــــــــه

كـــم حـــادث عنـــا جـــــلا ه وكـــم كفانـــا مـــن بليـــه

أوصيـــك بـــالصبر الجميـــــ ـــل ! فإنـــه خـــــيرُ الوصيّـــهْ

ويغلب الرجاءُ اليأسَ، ويأتي الفرج بعد الشدة، كما يرى الشريف الرضي[2] :

لا تيأسَـــــــــنَّ ، فربّمـــــــا عَظُـــــمَ البـــــلاءُ وفُرّجـــــا

قـــد ينسَـــــخُ الخـــوفَ الأمـــا نُ ، ويغلـــبُ اليـــأسَ الرَّجـــا

ويتوجه كشاجم لله داعياً بالتوفيق لأحسن القول، فهو مقصّرٌ في عمله، طالباً من الله أن يُبقي حَبْلَ أمله ورجائه متصلاً بعفوه ورحمته، فإنه سبحانه هـــو الرجـــاء والأمل [3] :

أيـــا ربّ وقـــق لخـــــير المقـــا ل إن لـــم أوفـــق لخـــير العمـــــل

ولا تقطعـــن أملـــــي والرجـــاء فـــأنت الرجـــاء وأنـــــت الأمـــل

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ص١٨٣

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٢٣٩/١

٣- كشاجم، الديوان، ص٤٢٤

أما أبو المجد محمد بن عبدالله المعري، وهوالأخ الأكبر لأبي العـــلاء، فإنـــه يرجو النجاة بعفو الله عز وجل، ذلك أنه مؤمن بأنه لا ينجي أحداً من البشر عملـــه، حتى الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أخبر عن نفسه في حديث ســـابق [1] ، فـــلا نجاة يوم الحساب إلا بعفو الكريم المهيمن سبحانه، فيقول [2] :

كـــرم المـــهيمن منتـــــهى أملـــــي لا نيتـــــي أرجـــــو ولا عملـــــــي

يـــا مفضـــلا جلـــــت فواضلـــــه عن بغيتـــي حتـــى انقضـــى أجلـــي

كم قـــد أفضـــت علـــي مـــن نعـــم كم قـــد ســـترت علـــي مـــن زلـــل

إن لـــم يكـــن لـــي مـــا ألـــوذ بـــه يـــوم الحســـاب فـــان عفـــوك لـــي

ولأنه لا يوفق لأحسن العمل إلا الله، فانه ينبغي تقديم الشكر له عندما ييســـر للعبد عملا صالحا يقضيه على أفضل وجه، وإن كان الإنسان عاجزا بطبعـــه عـــن الشكر لكثرة النعم التي يعرف جزءاً منها ولا يعرف أكثرها، وقـــد فعـــل الشـــريف الرضي ذلك عندما يسر له الله عز وجل الحج، وكفاه في ذهابه ورجوعـــه فيقـــول شاكرا [3] :

يا ذا المعـــارج كـــم ســـألتك نعمـــة فمنحتنيـــــها بـــــالذنوب الأوفـــــر

أي العوارف منـــك أشـــكر فضلـــه عجز المقـــــل وزاد طـــول المكـــثر

١- انظر الفصل الثاني من الرسالة: موضوع الموت، ص٥٦

٢- العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن محمد، ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، ج٢، قسم شعراء الشام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م، ص٦

٣- الشريف الرضي، الديوان، ٤٧٩/١

خامساً : النصائح والمواعظ

آمن الشعراء بأن الرائد لا يكذب أهله، فإنهم بعدما بينوا حال الدنيا ومآلـــها، والقبر وما بعده، قاموا بتوجيه نصائحهم للناس للتحلي بأفضل الأخـــلاق الإســلامية التي دعا إليها القرآن الكريم، وحرص عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وطبقـــها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم، من حلم، وعفو وصدق، وكتمان للسر، وحفـــظ اللسان من الغيبة، وذم الحسد، والكبر، ووقفوا كثيراً عند الصبر وأهميتـــه وفضلـــه، وذموا الجزع ونتائجه، ثم وعظوا وذكروا الناس بمعاني الزهـــد المختلفـــة، تـــأكيدا لإيجابية واضحة في دعوتهم التي وقفوا عندها واهتموا بها بأنها ليست انعزالا عـــن الناس والمجتمع من حولهم .

أ- النصائح الأخلاقية :

يقول الرّهاوي إن المكارم كلها تأتي من أصلين اثنين (١) :

إن المـــكـــارم كلـــهـــا لـــو حصـــلت رجعـــت بجمـــلـــتهـــا إلى شيئيـــــن

تعظيـــم أمـــر الله جـــلّ جـــلالـــــــه والسعـــي فـــي إصلاح ذات البـــيـــن

وهذا ما حث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو الدرداء أنـــه قال: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا: بلى، قـــال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة "، ويُروى أنه قال: " هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر؛ ولكن تحلق الدين"(٢) .

١- الثعالبي، اليتيمة، ٣٥/٥

٢- الترمذي، السنن، ٢٢٨/٤

ويدعو الشريف الرضي للوفاء بالوعد لأنه يمثل الصدق، أما إخلاف الوعد فهو من أخلاق المنافقين، بل كذب صريح مكشوف، وعيب من أخطر العيوب التي يجب الحذر منها[1] :

إياك أن تسخو بوعد ليس عزمك أن تفي به

فالصدق يحسن بالفتى والكذب يحسب من عيوبه

ويركز الصنوبري على الحلم، وضرورة الإكثار منه [2] :

فأكثر ما استطعت الحلم إني رأيت الحلم من كرم الطباع

وليس من الحلم كشف سر الصديق، أو الوقوع في عرضه أثناء غيبته فهي أخلاق مذمومة لا تليق إلا بالأحمق كما يقول الشريف [3] :

وإذا الحكيم رمى بسر صديقه عمدا فأولى بالوداد الأحمق

ومن الحلم أيضا السكوت عن الجاهل كما يرى أبو مسلم الجهني [4] :

وإذا بليت بجاهل متحكم يجد المحال من الأمور صوابا

أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

ومن الحلم كتم الغيظ ومغفرة الإساءة، بل البحث عن الأعذار للمسيء من الأصدقاء والإخوان كما يقول أبو القاسم الحسين بن علي [5] :

كن حاقدا ما دمت لست بقادر فإذا قدرت فخل حقدك واغفر

١- الشريف الرضي، الديوان، ١٨٧/١
٢- الصنوبري، الديوان، ص٢٧٤
٣- الشريف الرضي، الديوان، ٨٣/٢
٤- الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٠٤/٥
٥- المصدر السابق، ٣٥/٥

واعــذر أخــاك إذا أســاء فربمـــا لجــت إســاءته إذا لـــــم تعـــذر

ويعلي أبو فراس من شأن مسامحة الصديق، والصفح عن زلاتــه باســتمرار ويجد لذلك لذة يستحلي فيها الإحسان والمغفرة [1] :

يجنـــي الخليــل فاســتحلي جنايتـــه حتى أدلَّ علـــى عفــوي وإحســاني

يجني علي وأحنـــو صافحــا أبــدا لا شيء أحسن من حان على جـــاني

فهذا دليل على فهمهم لطبائع الناس كما جربهم الشريف الرضي [2] :

من كشف الناس لم يسلم لـــه أحــد النـــاس داء فخــل الــداء مســتورا

فلا بد من العفو عن الآخرين، والتجاوز عن أخطاء الأصدقـــاء منـــهم لأن الصديق نادر، ولأنه في الوقت نفسه بَشَرٌ لا بد أن يخطـــئ ، وإلا فــاخلق لنفســك إخواناً على طبيعتك وأخلاقك [3] :

إن كُنتَ لا تصطفـــي إلا أخـــا ثِقـــةٍ فاخلقْ لنفســك إخوانــاً علـــى قــدرِ

وأنت تستطيع التمييز بين النّاس ومعرفتهم؛ فإن أخلاق الأخ الصادق تظـهر في إقالته لعثرتك، وستر عيوبك، وحفظ غيبتك، ومشاركتك في السراء والضـــراء، وإلا فليس بأخ عند كشاجم [4] :

أخـــوك الـــــذي إن عَـــثَرْ تَ أنـــهض مـــن عَـــثْرَتِكْ

يزينـــك فـــــي حَضْرتِـــك ويرعـــاك فـــي غيبتـــكْ

١- أبو فراس، الديوان، ٤٠٥/٣
٢- الشريف الرضي، الديوان، ١ /٥٢٥
٣- المصدر السابق، ٥٢٤/١
٤- كشاجم، الديوان، ص٣٩٥

شـــــريكك فـــــي محنتـــــك وأنســـــك فـــــي نعمتـــــك

ذلك أن الذي يبتعد عنك إذا أصابتك مصيبة، أوعند فقـرك؛ إنسـان لئيـم لا صداقة له ولا أخوة، ويحذرنا منه أبو فراس [1] :

احـذر مقاربـة اللئـــام فإنـــه ينبيك عنهم فـــي الأمـور مجـرب

قـوم إذا أيسـرت كـانوا إخـــوة وإذا تربـت تفرقـوا وتجنبـــوا[2]

وقد انتبهوا إلى أمر مهم في هذا الجانب، وهو أن ينظر المرء إلى نفسه، وأن يحاسبها، وينظر في عيوبها قبل النظر في عيوب الناس، ذلك أن لكل إنسان عيوبـا تلازمه كما يلازمه وجهه، ولكنه لا يرى هذا الوجه بطرفه، بينما يستطيع النظر فـي وجوه الآخرين كما يشاء، يقول في ذلك أبو الغوث المنيحي[3] :

أأرى عيـوب العـالمين ولـم أرى عيبي خصوصا وهو منـــي أقـرب

كالطرف يستجلي الوجـوه ووجهـه أدنـى إليـه وهـو عنـه مغيـب

وهو تشبيه جميل وقف عنده الشريف الرضي كذلك [4] :

وكل فتى يرنو إلـــى عيـب غـيره سريعا وتعمى عينـــه عـن عيوبـه

ثم يحذرنا الرهاوي من خلق ذميم هو الكبر، لأن رداء الخالق سبحانه هو الكبرياء فكيف تنازع الله عز وجل رداءه، وأنت يكفيك القليل في هذه الدنيا [5] :

١- أبو فراس، الديوان، ٥١/١

٢- ترب: خسر وافتقر فلزق بالتراب، اللسان ٢٢٧/١

٣- الثعالبي، اليتيمة، ٩٣/٥

٤- الشريف الرضي، الديوان، ١٣٤/١

٥- الثعالبي، اليتيمة، ٣٤/٥

حَذّرتك الكِـــبرَ لا يَعْلَقـــكَ مَيْسَـمُهُ فإنـــه ملبـــسٌ نازَعْتـــــهُ اللاهـــا

إنـــا ننـــافس فـــي دنيـــا مفارقـــةٍ ونحـــن قـــد نكتفـــي منـــها بأدناهـــا

ينظر بذلك الحديث الشريف في قوله عليه السلام:" العز إزاره، والكبريـــاء رداؤه، فمن ينازعني عذبته"(١) .

وهنا يقف عبدالله بن محمد النامي، ليعدد للناس ثلاثة أسباب تناقض التكـــبر والعجب، وهي موجودة في الناس جميعاً، فأولها أنه كان نطفة مستقذرة، وثانيها فـــإن حُسْن صورته سوف يتحول تحت التراب إلى جيفة منتنة، وأخيراً فكيف ينســـى مـــا يحمله في بطنه من أقذار (٢) :

عجبـــتُ مـــن معجـــبٍ بصورتـــه وكـــان مـــن قبـــلُ نطفـــة مَـــذِره

وفي غـــدٍ بعـــد حُسْـــن صورتـــه يصـــير فـــي الأرض جيفـــة قـــذِرة

وهـــو علـــى عجبـــه ونخوتـــــه ما بيـــــن ثوبيـــه يحمـــل العَـــذِرَه(٣)

ويحذرمن النظرة الحرام، فإنها سهم من سهام إبليس، تجرُّ البلاء والشقاء(٤) :

يا عيـــن منـــك شـــكايتي وبلائـــي أنـــت التـــي أســـلمتني لشـــقائي

لمّا نظرتِ إلـــى محاســـن وجهـــه أشعلت نارَ الشـــوق فـــي أحشـــائي

ثـــم اعتـــبرتِ لتخدعينـــي بالبكـــا فكشـــفت ذاك الســـــر للأعـــداء

فتـــأملي مـــاذا جنيـــت وأمســـكي بـــالله عنـــــا معشـــــر الغربـــاء

١- الإمام مسلم، صحيح مسلم، م٨، ١٦/١٧٣

٢- الثعالبي، يتيمة الدهر ٣ /١٤٢

٣- العَذِرة والعاذر: الغائط، وعَذِرة الطعام: أرداً ما يخرج منه، اللسان ٤/٥٥٤

٤- المصدر السابق، ٣ /١٤٢

وأجمل منها أيضاً حديث الصوري عن عاقبة النظرة الحرام[1] :

تعرضت لي فلو أنـــي علـــى حـــذرٍ لم يحتكم ناظري في لـــــذة النظـــر

وكنت أغضي ولا أقضي له وطـــراً منها لعلمي بعقبـــى ذلـــك الوطـــر

والمـــرء مـــا دام ذا عيـــنٍ يُقلّبـــها في أعين العين موقوف على خطـــر

يســـر مقلتـــه مـــا ضَـــرَّ مهجتـــه لا مرحباً بسرورٍ عـــــاد بـــالضّرر

ب- الدعوة إلى الصبر

ركّز الشعراء على الصبر لحاجتهم إليه؛ بسبب ظروف العصر المتقلبة فـــي كل حين، وتغير أخلاق الناس وتراجعها، ثم لتذكير أهلهم وأصدقائهم ليصبروا فـــي الحوادث التي تُلّم بهم والتأسي بالصالحين الصابرين، ولعلمهم بأن الجزع لا يفيد ولا ينفع، فإن الأجر العظيم في الصبر، والبشارة الكاملة لأهله في الدنيا والآخرة، لقولـــه تعالى:﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمـــرات وبشّر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعـــون، أولئـــك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾[2].

فهذا أبو فراس يوجه رسالة لأمه عندما كان في الأســـر مثقـــلاً بـــالجراح، يطلب منها الصبر والتجلد، ضارباً لها المثل بذات النطاقين- رضي الله عنها- [3] :

فيا أمتـــا لا تعدمـــي الصـــبر إنـــه إلى الخير والنجح القريـــب رســـول

١- الصوري، الديوان، ص٢١٦

٢- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات ١٥٥- ١٥٧

٣- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣١٢/٢

فيا أمتـــا لا تخطئـــي الأجـــر إنـــه على قدر الصـــبر الجميـــل جزيـــلُ

أما لك فـــي ذات النطـــاقين أســـوة بمكـــة والحـــرب العـــوان تجـــولُ

أراد ابنها أخذ الأمـــان فلـــم تجـــبْ وتعلـــمُ، علمـــــاً، إنـــه لقتيـــل

تأســـي كفـــاك الله مـــا تحذرينـــه فقد غال هذا النـــاس قبلـــك غـــولُ

فهو يعتبر الأسر حكم الله عز وجل، فلا بد من نفاذ أحكامه، أما الصبر فـــهو منحة منه أيضاً، وهو يعطيه لعباده على قدر مصائبهم [1] :

لكـــن قضـــــاء الله والـــــــ أحكـــام تنفـــذُ فـــي البريـــة

والصـــبر يـــأتي كـــــل ذي رزءٍ علـــى قـــدر الرزيّـــــة

أما أكثر الناس صبراً فهوأعظمهم أجراً وثواباً، كما يقول الشريف الرضي[2] :

صـــبراً علـــى الضـــراء واحتســـاباً أصبرنـــا أعظمنـــا ثوابـــاً

مـــا الدمـــع ممـــا يـــزع المصابـــا ولا يـــرد القـــدر الغلابـــا

نعم، فإنه لا ينفع الدمع ولا الجزع، فليس للمصائب مـــن عـــدة يســـتعملها الإنسان أفضل من الصبر يقول الصنوبري [3] :

الصبر من عُـــدد الرزايـــا فـــاصبر إن المطيـــل تلـــــهفاً كـــالمقصر

لـــن يفثـــأ الأيـــام عـــن فتكاتـــها جزع الجزوع وعـــبرة المســـتعبر[4]

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣/٤٣٤

٢- الشريف الرضي، الديوان، ١/١٥٤

٣- الصنوبري، الديوان، ص١٠٠

٤- فثأ غضبه: كسره وسكنه، اللسان ١/١٢٠

ذلك أن الناس جميعاً معرضون للمصائب، أما النتيجة فتختلف حسب صبرهم[1] :

فمن آب منـــا صـــابراً آب رابحـــاً ومن آب منا جازعـــاً آب منحوســاً

وهي نتيجة أحلى من العسل لمن يصبر، رغم مرارة الصبر التي ذاقــها أولاً، فيقول كشاجم [2] :

إني فزعت إلـــى صـــبري فـــأنقذني من سوء فعلك بي إذ قصرت حيلـــي

والصبر مثل اسمه في كـــل نائبـــة لكن عواقبـــه أحلـــى مـــن العســـل

وأخيراً فإن خير الناس من يشكر الله عز وجل في السراء والضراء، وليـــس هذا إلا للمؤمن لأنه يصبر في الضراء لعلمه أنه إن جزع فلا مناص له إلا بـــالصبر، وهو يشكر في الضراء لأن لطف العليم الحكيم محيط به فلم يُصَبْ بأكبر منها، ثـــم إن الفرج سيأتي من اللطيف الخبير تكريماً لصبره، كما يعبر عن ذلك الببغاء [3] :

صبرت ولم أحمد على الصبر شـيمتي لأن مآلي لو جزعت إلـــى الصـــبر

ولله فـــي أثنـــاء كـــل ملمـــةٍ وإن آلمت لطفٌ يحض على الشـــكر

وكم فـــرج واليـــأس يحجـــب دونـــه أتاك به المقدور من حيث لا تـــدري

بل إن الله يفرج عنك إذا صبرت من حيث لا تتوقع [4] :

كم كربةٍ ضاق صدري عن تحملـــها فملت عن جلدي فيها إلـــى الجـــزع

ثـــم اســـتكنت فـــأدتني إلـــى فـــرج لم يجر بالظن في يـــأس ولا طمـــع

١- الصنوبري، الديوان، ص١٦٩
٢- كشاجم، الديوان، ص٤١٥
٣- الببغاء، الديوان، ص٩٩
٤- المصدر السابق، ص١١٩

ج- مجاهدة النفس :

فعندما عرفوا أن أقرب أعداء الإنسان إليه، هي نفسه التي بين جنبيه، حرصوا على التحذير منها، وعدم تركها لشهواتها، ففي ذلك الهلاك، وفي مخالفتها النجاة، فالنفس تأمر بالسوء، أو يلعب بها الشيطان؛ إذا تُركَتْ على هواها، فتصبح من أكبر أعداء الإنسان، وقليل من الناس من يجاهدها، كما يرى الصوري [1] :

كلُّ امرىءٍ نفسهُ عَدُوَّتُه لكنّه قلَّ من يُجاهِدُها

ويبحث الشريف الرضي عن أعدى أعدائه، فيجد نفسه أشد منهم جميعاً[2] :

أروم إنصافي من رجالٍ أباعدٍ ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا

إذا لم تكن نفسُ الفتى من صديقه فلا يحُدِثَنْ في خلّة الغير مطمعا

وترويض النفس ليس سهلاً، فإنك لن ترضى عنها إلا بإسخاطها كما يرى كشاجم، وهي مع ذلك لن ترضى عنك فسوف تبقى لك لائمة [3] :

لم أرضَ عن نفسي مخافة سخطها ويُرضي الفتى عن نفسه إغضابُها

ولو أنني عنها رضيتُ لقصّرت عمّا تريدُ بمثلهِ آدابُها

ويبقى الإنسان معها في صراع دائم، يشتد عند الانتقال إلى المشيب [4] :

تنشطني أخريات الشباب وتقتادني أوليات الكِبَرَ

فنفسي تتوق إلى الغانيات وقلبي يهم بأن ينزجر

١- الصوري، الديوان، ص١٢٩
٢- الشريف الرضي، الديوان، ٦٦٤/١
٣- كشاجم، الديوان، ص٤٣
٤- المصدر السابق، ص٢٦٤

والقلب لن ينفع صاحبه إلا بمخالفة النفس، فان طاوعها فذلك ضرر لها[1] :

ألا إن قلـــبَ الفتـــى مُضغَـــةٌ تَضُـــرُّ، ولكنـــها تنفَـــعُ

ذلك لأن القلب زمام على النفس التي هي أقرب الأعداء إليك، وموت القلب أخطر المصائب، عندما لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، فيتركها على هواها[2] :

النفس أدنـــى عـــدوٌ أنـــت حـــاذره والقلب أعظم ما يبلـــى بـــه الرجـــل

ثم يوصي الناس جميعاً بكبح جماحها، وأن لا يكون الإنسان عبداً لشـــهواتها، وليتفكر في ضرر اللهو وعاقبته قبل أن تسوقه إليه نفسه سوقاً فتكون فيه نهايته[3]:

أكْبَـحُ النفـــسَ إن جمحـــــــ ـــــتْ إلـــى غايـــةٍ بـــــها

أنـــــا مولـــــىً لشـــــهوتي وســـــوايَ عبـــــدٌ لـــــها

لـــو رأى المسْـــــتَغِرُّ مـــــا ضَـــرَرُ اللـــهو مَـــا لـــهَا

ويتابعه على ذلك كشاجم قائلاً [4] :

حكمـــة الصـــانع المقـــدر أن لا شـــيء إلا وفيـــه نفـــع وضـــر

فاجتهد أن يكـــون أكـــثر قسميـــ ـــك مـــن النفـــع والأقـــل الأضـــر

وتحمـــل مـــرارة الـــرأي واعلـــم أن عقبـــى هـــواك منـــه أمـــر

رض بهذا التدبير نفســـك واقصـــر هـــا عليـــه ففيـــه فضـــل وفخـــر

لا تطعـــها علـــى الـــذي تبتغيـــه وليرعـــها منـــك اعتســـاف وقـــهر

١- الشريف الرضي، الديوان، ١/ ٦٧٣
٢- المصدر السابق، ٢ /١٧٩
٣- المصدر السابق، ٢ / ٥٦٨
٤- كشاجم، الديوان، ص٢٢٢

د- المواعظ

تأثر الشعراء بهذه التجارب التي عاشوها، فأخذوا يوجهون الرسائل المفتوحة للبشرية جمعاء، تحمل خلاصة تجربتهم في الحياة، مليئة بنغمات حزينة مؤثرة حول الموت والدنيا الفانية، ورؤيتهم الحقيقية لها، داعين للزهد، والتوجه لله لإيمانهم بأهمية الوعظ، وسرعة تأثيره على القلب؛ فيقول الصنوبري[1] :

وقد مضى لي وعظ لا خفاء به ... وعظ يظل بسمع القلب يستمع

والوعظ ذو أثر فيمن يلين به ... كما يلين بختم الخاتم الشمع

فجاءت مواعظهم غنية بالمعاني الزهدية المختلفة، على شكل مقطوعات متكاملة؛ فمنها قول أبي فراس واعظا [2] :

أما يردع الموت أهل النهى ... ويمنع عن غيه من غوى

فيا لاهيا، آمنا، والحمام ... إليه سريع، قريب المدى

إذا ما مررت بأهل القبور ... تيقنت أنك منهم غدا

وأن العزيز بها، والذليل ... سواء، إذا أسلما للبلى

غريبين ما لهما مؤنس ... وحيدين تحت طباق الثرى

فلا أمل غير عفو الإله ... ولا عمل غير ما قد مضى

فإن كان خيرا فخيرا تنال ... وإن كان شرا فشرا ترى

١- الصنوبري، الديوان، ص٢٩٢

٢- أبوفراس، الديوان، ٦/١

ويقف الخليفة الراضي هذا الموقف فيقول واعظا [1] :

أيـــــها الآمـــــل الـــــــــذي تـــــاه فـــــي لجـــــة الغـــــرر[2]

أيـــــن مـــــن كـــــان قبلنـــــا ذهـــب الشـــــخـــص والأ ثـــــر

ســـــيرد المعـــــار مـــــــن عمـــــر كلـــــــه خطـــــــر

أما الشريف المرتضى فيدعونا لنتفكر فيمن عاشوا قبلنا، ممن ساروا علـــى وجه الأرض منعمين، وكيف أصبحوا عظاما بالية في قبور داثرة، [3] :

أين الذين على هذي الثرى وطئـــوا وحكموا في لذيذ العيـــش فـــاحتكموا

لم تبق منهم على ضن النفوس بـــهم إلا رســـوم قبـــور حشـــوها رمـــم

وعندما ينظرللدنيا يراها متقلبة، وخير الناس من يتعظ بها، فإنها ســـاعات تمر ولا يبقى لنا منها إلا التعب والكد والنصب [4] :

لا تعطنـــــي بالزمـــــان معرفـــــة قد ضـــاق بـــي مـــرة وقـــد رحبـــا

أي خطـــوب لـــم تولنـــي عظـــــة وأي دهـــر لـــــم أفنـــــه عجبـــا

ســـاعات لـــهو تمـــــر مســـــرعة عنـــا وتبقـــي العنـــــاء والتعبـــا

أما الشريف الرضي فيذكرنا بالمنزل الأخير [5] :

قـــد آن أن يســـــمعك الصـــــوت أنـــــائم قلبـــــك أم ميـــــــت

١- الصولي، ص١٨٥
٢- الغرر: الخطر، اللسان ١٣/٥
٣- الشريف المرتضى، الديوان، ١٦٧/٣
٤- المصدر السابق، ٥٦/١
٥- الشريف الرضي، الديوان، ٢٦٧/١

يـــا بـــانيَ البيـــتِ علـــى غـــرّةٍ أمـــــامكَ المـــــــنزلُ والبَيْـــــتُ

أيجـــزعُ المـــــرءُ لمـــــا فاتـــــه وكـــــلُ مـــــا يُدْرِكُـــــهُ فَـــــوْتُ

وإنمـــا الدنيـــا علـــــى طولـــــها ثنيّـــــةٌ مَطّلَعُـــــها المـــــوتُ

ثم يدعو للصبر لأنها دنيا زائلة [1] :

إن أشـــر الخطـــبُ فـــلا روعـــةٌ أو عَظُـــمَ الأمـــرُ، فصـــبرُ جميـــلْ

ليُـــهْوِنِ المـــــــرءُ بأيامـــــــه أنّ مُقَـــامَ المـــرءِ فيـــــها قليـــلْ

إنـــــا إلـــــى الله وإنـــــا لـــــــه وحســـــبنا الله ونعـــــمَ الوكيـــــل

ويُزَهِّدُ فيها لأن الموت هو آخرها [2] :

رُويـــدكَ لا يَغُـــرَّكَ كيْـــدَ دُنيـــــا هـــي المرنـــان مُصميـــةٌ الرمايـــا[3]

فـــإنك ســـالك منـــــــها طريقـــاً تُقَطَّـــعُ فيـــه أرقـــــاب المطايـــا

أترجـــو الخلـــد فـــي دار الفَنـــاني وأمن السّرْب فـــي خُطـــط البلايـــا[4]

وتغلـــقُ دون ريـــب الدّهـــر بابـــاً كـــأنك آمـــــن قـــــرع الرّزايـــــا؟

وإن المـــــوت لازمـــــةٌ قِـــــراهُ لـــزومَ العـــهدِ أعنـــــاق البرايـــــا

وأخيراً نقف على مقطوعة وعظية للصنوبري يبدأها بالاستغفار، فيقول[5]:

أستغفر الله كم ذا الجـــهل والسَّـــرَفُ أستغفر الله كم ذا الخُـــرْقُ والعُنُـــفُ

١- الشريف الرضي، الديوان، ٢/٢٢٠

٢- المصدر السابق، ٢ /٥٧٧

٣- المرنّة: هي القوس، والمرنان مثله،اللسان ١٣/١٨٧، وأصمى الرمية: أنفذها، والإصماء: قتل الصيد في مكانه، ومعناه سرعة إزهاق الروح، اللسان ١٤/٤٦٩

٤- السِّرب: القلب، وأصبح آمناً في سِربه: في نفسه، وقيل: أهله وولده وماله، وفي قومه،اللسان ١/٤٦٤

٥- الصنوبري، الديوان، ص٣٣٢

يدعو إلى الجـــهل داعينـــا فنتبعـــه يمضي على الجهل ماضينا ولا يقـف

ثم يستذكر المواعظ الكثيرة التي جاءته ليرتدع، ويدعو قلبه المســوّد مــن الذنوب كي يتوب، ويهاجم نفسه وغرورها، وتعلقها بالأمل الطويل :

لأدعــون بوالــهفي ويــا أســـــفي إن كان يجدي عليَّ اللّهفُ والأســف

هي القلوب قد اسودت وحُـــق لـــها من الذُّنوب التي اسودت بها الصُّحُفُ

متى النزوع فحسبي ما جَنيت ومـــا قد اقــترفت فكــم أجنـــي وأقــترف

يا ويـــح نفســـي أغرتـــها ســـلامتها إن الســـلامة مقـــرون بـــها التَّلـــف

ثم يؤكد أنه في طريق يحتاج فيه إلى زاد من التقوى :

لا ســـير إلا بـــزادٍ يُســـتعانُ بـــــه فاستأنفِ الـــزّاد إن الـــزّاد مؤتنـــفُ

وهي أبيات تؤكد ما ذهبنا إليه من إيجابية الزهد، في دعوته الواضحة إلـــى التحلي بالأخلاق الحسنة، وترك المذموم منها، والتزود بالأعمال الصالحة قبل فـوات الأوان، أما خير ذلك كله فهو تقوى الله عز وجل في السر والعلن.

سادساً: <u>الشيب نذير الموت</u>

وصف الشعراء الشيب، فجعلوه نذيراً للموت، وواعظاً للناس قبل الكِبَر، لكـي يرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه، فهو من الحواجز التي تمنع صاحبها من المعـــاصي وتدفعه للرزانة والتعقل، وتزهده في الدنيا، وهو دليل على الخـــبرة والتجربـــة فـــي الحياة، ولذلك دعوا إلى ترك اللهو والعبث، وقارنوا بين مرحلة الشباب وما فيها مـن غفلة ولعب ومعصية، وبين مرحلة الشيب وكبرَ السن وما فيها من عظـــة ورســـالة

للإنسان كي يتوب ويستغفر، ويعود إلى طريق الحق والصواب، فقد مضى العمر ولم يبقَ إلا القليل.

فهذا الخليفة الراضي يرى الشيب أكبر واعظ، فكل أمر لا بد له من نهاية، فالشباب مصيره للشيب أو الموت، أما الشيب فليس بعده إلا الموت [1]:

كلُ صفوٍ إلى كَدَر ... كلُ أمنٍ إلى حَذَر

ومصير الشباب للموت ... فيه أو الكبر

دَرَّ دَرُ المشيبِ من ... واعظٍ ينذِرُ البشر

ولذلك لا يحسب الشريف الرضي للإنسان من عمره سوى فترة الشباب، أما عند ابتداء الشيب فقد انقضى العمر، لأنه أكبر نذير للموت [2]:

عُمرُ الفتى شبابهُ، وإنما ... آونَةُ الشيبِ انقضاءُ العُمُر

وعندما يقارن كشاجم بين الشباب والشيب، فإنه يجد الحق الأكبر في الصحبة للشيب لأنه يلازمك حتى الموت [3]:

تفكرتُ في شيب الفتى وشبابهِ ... فأيقنت أنّ الحق للشيبِ واجبُ

يُصاحبُنا شرخُ الشبابِ فينقضي ... وشيبي إلى حين المماتِ مُصاحبُ

ولأنه يعتبره أيضاً دليلَ الخبرة والتجربة في الحياة [4]:

ألم ترَ أن تكرار الليالي ... يُفيدُ المرءَ علماً واختباراً

١- الصولي، ١٨٥
٢- الشريف الرضي، الديوان، ٤٦٧/١
٣- كشاجم، الديوان، ٤٣
٤- المصدر السابق، ١٨٥

ويصقُـلُ جوهَـرَ الألبـابِ حتـى يُصَـيّرَ صفـوَ معدنـها نُضـارا

فمثـلُ ذاك تسـتدِلُ عليـه بليـلِ الشَّـعر تجعلـهُ نـهارا

بل إن السريّ الرفاء الذي كان يتشيع على مذهب الشيعة الإمامية–والذي ليس له إشارات في الزهد– يجعل الشيب مانعاً من التخلي عن مذهبه، فيقول [1] :

أأرغـب عـن وداد أبـي تـراب وقـد شـحن الـترائب والضلوعـا

وأعرض بعد وخط الشـيب عنـه وقـد أحببتـه طفـلاً رضيعـاً

أماالصنوبري فإن الشيب عنده يحجز صاحبه عن اللهو واللعـب، فيُطمئـن عاذلته بذلك، فلا حاجة لتوصيته، أو الخوف عليه، فيقول [2] :

أقلّـي لـن يحـلّ اللـهوُ داراً إذا ألقـى المشـيبُ بـها عصـاه

دُجى شَـعرٍ أرتـك يـدُ الليـالي نجـومَ الحلـم تطلـع فـي دجـاه

وهو تشبيه جميل لهذه الشعيرات البيضاء ، فإنها تمثل الحلـم، والاتـزان، والتعقل، في ظلام اللهو والتسرع واللعب، التي هي رداء لا يليق بعمره، فيقول[3] :

ألقـت رداء اللهوعن عـاتقي خمـسٌ وخمسونَ مضت واثنـتان

أما الصوري فقد كان الكبر والشيخوخة سبباً في منعه من الانتقال، وحريـة الحركة فيجد نفسه وكأنه أصبح يسير في الوقت الأخير من عمره [4] :

١– السري الرفاء (أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الرفاء الموصلي، ت٣٦٢هـ)، الديوان، تحقيق حبيب حسين الحسني، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٨م، ٣٧٨/٢

٢– الصنوبري، الديوان، ص٤٦٤

٣– المصدر السابق، ص٤٥٣

٤– الصوري، الديوان،ص٢٠٣

جزاك اللّه عن ذا النُّصح خـــيراً ولكن جـــاء فـــي الزّمـــن الأخـــير

وقد حدّت لـــيَ الســبعون حــدّاً نـــهى عمّـــا أمـــرت مـــن الأمـــور

فهو يستشعر قرب الموت، ويخافه بعدما جاءته الرسل الكثيرة منه(١) :

وأكثـــر ما تخوفنـــي المنـــايـــا وكم قـــد جاءنـــي منهـــا رســـول

ويوافقه ولده الشاعر عبد المنعم الصوري، الذي يرى فقد الشباب أهم الرسل التي تذكر بالموت، فيقول (٢) :

أرى الله يعطينـــي ودهـــري يأخـــذ وفي كـــل يوم سيـــف قتلـــي يشحـــذ

وكيف سلوي عن شبابـــي، وفقـــده طريـــق إلـــى سمت المنيـــة ينـــفـــذ

ونلاحظ في البيت الأول تأدب الشاعر مع الله عز وجل؛ فـــهو ينســـب إليـــه العطاء الجزيل، وعندما يتحدث عن الأخذ والنقص لا ينسبه إليه، سائراً على طريقـــة القرآن الكريم في قول إبراهيم عليه السلام: " الذي خلقني فهو يهدين، والـــذي هـــو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين "(٣) ، حيث نسب المرض لنفسه.

ويقف أبو فراس مع نفسه وقفة صدق، محذراً إياها بعدما رأى الشـــيب فـــي عارضيه، داعياً إياها إلى الوقار، والابتعاد عن اللهو، والتوجه لله، وطلب عفوه(٤) :

مـــا آن أن أرتـــــاع للشـــــــ ـــيـــبِ المُفـــوَّفِ فـــي عِـــذاري(٥)

واكـــفّ عـــن سُـــبُلِ الضـــــلا ل، وأكتســـــي ثـــــوب الوقـــــار

١- الصوري، الديوان، ص٣٥٣

٢- الثعالبي، اليتيمة، ٥/٨٣

٣- القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآيات رقم ٧٩، ٨٠، ٨١

٤- أبو فراس، الديوان، ٢/٢٠٥

٥- المفوف: ذو بياض وخطوط بيض، اللسان٩/٢٧٣، والعِذار: الشعر النابت في خط اللحية، اللسان ٤/٥٥٠

إنـــي أعـــوذُ بحُســـن عفـــــــــ ـــــو الله مـــن سُـــوءِ اختيـــــاري

أما كشاجم فيدعو لترك اللهو، والحذر من غواية النساء، فان الشباب ســـريع الزوال، وما تظنه حلاوة فيه سوف تعقبه المرارة والحسرة والندم، في وقت بدأ فيـــه الشيب يغزو رأسك، فلا عذر لك في السير وراء اللذات والمتع الزائلة [١] :

حُلـــلُ الشـــبيبة مُســـــتعارة فـــدعِ الصِّبـــا واهجـــــر ديـــاره

لا يشـــغلنْك عـــن العُلـــــى خَـــودٌ تُمنِّيـــــك الزيـــــاره[٢]

تحلـــو أوائـــــلُ حُبّـــــها وتشـــوبُ آخِـــــره مـــــراره

ويرى كشاجم لذة الشباب زائلة، لأن الشيب لا يُسْلِمُ صاحبه إلا إلى القبر[٣]:

والشـــيبُ لا تُسْـــلِمُ أثوابُـــه لا يسَـــها إلا إلـــــى القـــــبر

والشباب لا يعود أبدا مهما حاولت اللحاق به، كما يقول ابن لنكك[٤] :

تولى شبابٌ كنـــتَ فيـــه منعمـــاً تـــروح وتغـــدو دائـــم الفرحـــــاتِ

فلستَ تلاقيه ولو ســـرتَ خلفـــه كما سار ذو القرنين فـــي الظلمـــات

وعن كراهيته للشيب يجيب الشريف المرتضى بإيجابية واضحـــة فـــي فـــهم علاقة الشيب والشباب، والشعور باقتراب الأجل، والاستعداد له؛ قائلاً [٥] :

يقولـــون لـــي لِم أنت للشيـــب كاره فقلت طريـــق المـــوت عند مشيبـــي

فليـــس بكائـــي للشبـــاب وإنـــمـــا بكائـــي على عمر مضـــى ونحيبـــي

١- كشاجم، الديوان،ص١٩٩

٢- الخَودُ: الفتاة الحسنة الخلق الشابة، وقيل الجارية الناعمة، والجمع: خودات وخُود، اللسان ٣٩٢/٣

٣- كشاجم ، الديوان، ص٢٤٦

٤- الثعالبي، اليتيمة، ٤١/٢

٥- الشريف المرتضى، الديوان، ١٢٠/١

سابعاً: التصوف

لقد بيّنَ بعض المتصوفة حقيقة التصوف بأنه خضوع لله، وتصفية للنفس، وليس مراء للناس في الملبس والمأكل، فعابوا وذموا المتظاهرين بالتصوف على غير حقيقة الزهد المعروفة في ترك الدنيا لأجل الله، وامتدحوا أهل الزهد من المتصوفة لفضل أخلاقهم، واتباعهم للسُّنّة.

فهذا أبو محمد طاهر بن الحسين البصري يرى التصوف خشية وخشوعاً لله، وليس لباساً مرقعاً أسودَ كالغربان، التي ترتبط بالخراب والدمار والتشاؤم[1] :

ليس التصوفُ أن يلاقيك الفتى ... وعليه من نسج النحوس براقِعُ

بطرائقٍ سودٍ وبيضٍ لُفّقتْ ... وكأنه فيها غرابٌ أبْقَعُ

إن التصّوفَ ملبسٌ متعارفٌ ... يخشى الفتى فيه الإلهُ ويخشعُ

وقال العنبري:" التصوف اجتناب المحارم واجتناء المكارم"، وأنشد [2] :

ليس التصوف بالفوط ... من قال ذاك فقد غلطْ

إن التصوّف يا فتى ... صفوُ الفؤادِ من السّقطْ

وكان جعفر الخُلديُّ، قد سُئل عن الزهد فقال: "من أراد أن يزهد فليزهد أولا في الرياسة، ثم ليزهد في قدْر نصيب نفسهِ ومُرَاداتِها "[3]، فهي مجاهدة عنده كما كان يراها أستاذه الجنيد، حتى تصفو النفس وتتخلى عن هواها ورغباتها.

١- الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣٢/٥
٢- المصدر السابق، ٧٧/٥
٣- طبقات الصوفية، ٤٤٨

وذلك ما يشير إليه ابن سمعون، فهو يرى أن " الخير كله في هـــذا الزمـــان ترك ما الناس عليه ، ومص النوى، وسف الرمل " [1].

أما الذين تستروا بالصوفية، فان زهدهم لا يساوي مزبلة، كما يقـــول أبـــو القاسم عمر بن عبدالله الهرندي [2] :

تبـــــا لقـــــوم جعلـــــــوا دنيـــــا لدنيـــــــا مأكلـــــــة

تســـــــــتروا بأنـــــــــهم صوفيـــــــــة محنبلـــــــــة

ومـــــا يســـــــاوي نســـــكهم قمامـــــــة مـــــن مزبلـــــــة

فإن الناس يميزون الصوفي الزاهد ويحبونه، ويمدحونه ويحزنون لموتـــــه، كما فعل الصوري في رثائه للروذباري أحمد بن عطا، حيث قال [3] :

سقى الله قبر الروذبـــاري هـــاطلا ففيـــه لأجنـــاس العلـــــوم قبـــور

فتى زهدت فيـــه الرغـــائب كلـــها غني عن الأعـــــراض وهـــو فقـــير

لئن مات ما ماتت محاســـنه التـــي لها بين أصحـــاب الحديـــث نشـــور

وكذلك فعل الشريف المرتضى عند وفاة صديقه الصوفي ابن شجاع، فقال[4]:

ولا زال قـــبـــرك مـــن نـــــوره بجنح الظـــلام يضـــيء القـــبـــورا

ولا زلـــت ممتلـــئ الـــراحتـــيـــن نعيـــمـــا ولاقـــيـــت ربـــا غـــفـــورا

١- ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ت٥٩٧هـ)، صفة الصفوة، صنفها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ٣٠٦/٢

٢- الثعالبي، اليتيمة، ٤٨٠/٣

٣- الصوري، الديوان، ص٢٢٥

٤- الشريف المرتضى، الديوان، ٤٦/٢

أما محبة الصوفي الزاهد للخالق عز وجل فهي من ألوان العبادة المشـــروعة في الدين الحنيف، كما هو حال ابن سمعون مع نفسه، فإنه يحـــب الله خوفـــاً منـــه، وإقراراً بقدرته، وعظيم نعمته، التي لو قدم لها الوفاء كله، فلا يقاس بها [١] :

حاشـــــاكَ مـــــن أن ترابـــــــي محمـــــــدُ يُحبـــــك خوفـــــــاً

لـــــم يبـــــق منـــــي وفـــــــاءٌ إلا ومـــــــا منـــــك أوفـــــــى

أفنيتنـــــي عـــــــن جميعـــــي فصـــــرتُ أهـــــــواك طرفـــــاً

وقد ذُكرت المحبة عند عبد الله بن محمد الراسبي، فقال :" المحَبَّة إذا ظهرت افتضح فيها المحبُّ ، وإذا كُتمت قتلت المحبَّ كمداً "، وانشد [٢] :

ولقـــد أفارقُـــه بإظـــهار الـــــهوى ليســـــــتر سِـــــرّه إعلانـــــــه

ولرُبّمـــا كتـــم الـــهوى إظـــــهارُهُ ولربمـــا فضح الـــهوى كتمانـــــه

عي المحب لـــدى الحبيب بلاغـــة ولربّمـــا قَتَـــــلَ البليـــــغَ لســـــانُه

وكانوا يستخدمون الرمز في حديثهم عن المحبّة الإلهية، فتظهر فـــي" قـــالب مادي وتبدو كأنها موجهة إلى إنسان لا لإله "[٣]، فالحصري يسمعه أحدهم يقـــول :" ضاقت عليّ أوقاتي وأنفاسي، فلستُ أستروحُ إلا أن تذكر أنفاس جَرتْ منـــي بـــأنس البَسْط، بصفاء الوُدِّ، مصونة عن شوب الأكدار"، ثم أنشد هذا البيت [٤] :

إن دهـــراً يلُـــفُّ شـــملي بسَـــلْمى لزمـــــان يـــــــهمُّ بالإحســـــــان

١- ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢ / ٣٠٦
٢- السلمي، طبقات الصوفية، ص٥١٤
٣- عبد اللطيف الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، ص٢٢٨
٤- السلمي، طبقات الصوفية، ص٤٩٢

وكان ذو النون المصري أنكر المحبة المادية على شاب بكى لفراق حبيبه[1]:

إن المحب هو الصبو رُ على البلاء لمن أحبه

حُبُّ الإله هو السرو رُ مع الشفاء لكل كربة

أما العنبري فيجعل المحبّة، هي المحرك لقلبه ولسانه لذكر خالقه [2] :

يا مَن إلى وجهه حجّي ومعتمري إن حجَّ قومٌ إلى تُربٍ وأحجار

أنت الصلاة التي أرجو النّجاة بها وأنت صومي الذي يزكو وإفطاري

إني وإن بَعُدَتْ عني دياركم فأنتم في سواد القلب سُمّاري

فإن تكلمتُ لم ألفظ بغيركُمُ وإن سكتُ فأنتم عقدُ إضماري

واستخدموا الرمز في وصف الفراق، فأبو علي الثقفي ينشد في الفراق [3] :

إلى كم يكون الصدُّ في كلِّ ساعةٍ وكم لا تَمليـن القطيعة والهجرا

رُوَيْدَكِ ! إن الدّهر فيه كفايةٌ لتفريق ذات البين فارتقبي الدهرا

وليس فراق الدنيا بشيء، مقارنة بفراق العمل الصالح، فيقول بعض أصحاب جعفر الخلدي: " مررت معه بمقبرة الشُّونيزية[4]، وامرأة تبكي بُكاءً بحُرقةٍ، وتندبُ على قبر، فقال لها جعفر: مالك ؟ فقالت: ثكلٌ بولدي! فأنشد جعفر يقول[5] :

١- أبو نعيم الأصفهاني، حِلية الأولياء، ٣٤٥/٩

٢- السُّلمي، طبقات الصوفية، ٣٤٣

٣- المصدرالسابق، ٣٦٤

٤- الشُّونيزيّة: بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت مكسورة وزاي وآخره ياء النسبة، مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، دفن فيها جماعة من الصالحين، منهم الجنيد و جعفرالخلدي، انظر ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٥- السلمي، طبقات الصوفية، ص٤٣٧

يقولون : ثكلى ! ومـــن لـــم يـــذق فـــــراق الأحبـــــة لـــــم يثكـــــل

لقـــد جرعتنـــي ليـــالي الفـــــراق شـــرابا أمـــــر مـــــن الحنظـــــل

أما البكاء فهو شفيع لصاحبه، إذا رافقه خشوع وخشية وخوف مـــن الســـميع البصير سبحانه، وقد وقف العنبري عند هذا المعنى نثرا وشعرا، فمن منثوره: " نعـم السلام الدعاء، ونعم العطية الوفاء، ونعم الشفيع البكاء "، وكان يقول منشدا [1] :

وليس الذي يجري من العين ماؤهـا ولكنـــــه روح يـــــذوب ويقطـــــر

أما شكر الخالق عز وجل عندهم؛ فإن الإنسان يجد نفسه مقصرا مـــهما قـــدم من شكر وثناء، فعندما يتمنى ابن سمعون أن لكل جارحة من جوارحه لغة خاصـــــة بها، لتشكر وتحمد ربها على نعمه الجزيلة الكثيرة التي لا تحصى؛ فإنـــــه يجـــد أن القدرة على توجيهها لله وحده؛ تصبح نعمة أخرى بحاجة للشكر أيضا [2] :

لو كل جارحـــــة منـــي لـــها لغـــة تثني عليك بما أوليـــت مـــن حســـن

لكان ما زان شكري إذ أشرت بـــــه إليك أزيد فـــــي الإحســـان والمنـــن

فهذه بعض أشعار الصوفية الذين اعتدلوا في زهدهم، ولكنها لم تخـــــل مـــن الرمز، الذي تولع به كثير منهم فأثقلوا شعرهم بالملامح المادية، بل أدخلوا التـــهويم، والغموض، " وانحرف عدد كبير منهم عن الهدف الأول وهو الزهـــد فـــي الحيـــاة، والانقطاع لله "[3] .

١- الثعالبي، اليتيمة، ٧٧/٥

٢- ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢ / ٣٠٦

٣- عبد اللطيف الراوي، المجتمع العراقي، ص٢٤٦

ثامناً: الجهاد والحرب

لم يغفل الشعراء الجهاد، فإن الزهد في الدنيا لا يتعارض مع حرب الأعداء، والدفاع عن دين الله، فالموت في سبيل الله شهادة، وأجر الشهيد عظيم في الجنّة، ووجهوا شكرهم لمن يدافع عن الإسلام، وينتصر للحق، وجعلوا ملائكة النّصر تحارب معه، حتى يحطم قواعد الشرك، ويرفع راية لا إله إلا الله خفاقة عالية.

فها هو أبو فراس يُلام على تعريض نفسه للموت في معاركه الكثيرة مع الأعداء ، فماذا يجيب ؟ إنه يخبرنا قائلاً [1] :

ألام على التعرض للمنايا ... ولي سمعٌ أصمُّ عن الملام

بنو الدنيا إذا ماتوا سواءٌ ... ولو عَمَرَ المُعمّرُ ألفَ عام

بل يصبح الموت في فمه عذباً، لأنه إن تقاعس ولم يجاهد في سبيل الله فسوف تكون نتيجة التقاعس هي الذل في الدنيا والآخرة، فلماذا لا يموت عزيزاً[2] :

قد عَذُبَ الموتُ بأفواهنا ... والموت خيرٌ من مقام الذليل

إنا إلى الله لما نابنا ... وفي سبيل الله خير السبيل

فحال المؤمن الصادق أنه لا يرضى بالذل والهوان [3] :

ونحن أناسٌ لا توسط عندنا ... لنا الصّدرُ دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يُغله المهْرُ

١- أبو فراس، الديوان، ٣/٣٧٤
٢- المصدر السابق، ٣/٣٣٤
٣- المصدر السابق، ٢/٢١٠

ويغضب أبو فراس في مناظرة جرت بينه وبين الدمستق، عندما قال له الدمستق : إنما أنتم كُتّابٌ، ولا تعرفون الحرب، فقال له أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ ثم قال [1] :

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا ونحن أسود الحرب، لا نعرف الحربا[2]

فويلك من للحرب إن لم نكن لها من ذا الذي يُضحي ويُمسي لها تِربا؟

لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أُسداً وكنت بها كلبا

وهذه حقيقة ظهرت في معارك المسلمين مع أعدائهم، فكثيراً ما كان الأعداء يهربون قبل المواجهة خوفاً من قائد مسلم، ينتصر لنداء الهدى، فهذا سيف الدولة الحمداني يخرج غازياً، وكان الروم بنوا مدينة قرب قاليقلا أسموها هفجيج، فلما علموا بمسيره إليهم أخربوها، وهربوا، فيقول النامي [3] :

ونادى الهدى مستصرخاً فأجبته بقاليقلا إذ أنت بالخيل سُهَّما[4]

ولم تتئد هفجيج أيدي بُناتها أبدتهمُ تحت السنابك رغما

ويعتبر الصوري طرد الروم عن طرابلس نصراً عظيماً، يشبه فتوح القادة العظام السابقين، واستنقاذاً للإسلام على يد أبي الفتح عبد الله بن الشيخ ، فيقول [5] :

١- أبو فراس، الديوان، ٣٦/١

٢- اللغاديد: اللحمات بين الحنك وصفحة العنق، اللسان ٥٧٦/١٢

٣- النامي(أبو العباس أحمد بن محمد النامي المصيصي الدارمي، ت٣٩٩هـ)، الديوان، جمع وتحقيق صبيح رديف، ط١، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٧٠

٤- قاليقلا: بأرمينية العظمى، من نواحي مناز جرد، وكانت ملكة لهم تسمى قالي قاله، ومعناه إحسان قالي، فصوّرت نفسها على باب من أبوابها، فعرّبت العرب قالي قاله، فقالت: قاليقلا، ياقوت ٢٩٩/٤، ومناز جرد: في أرمينية، وأهله أرمن وروم، ياقوت ٢٠٢/٥، ولم تذكر هفجيج

٥- الصوري، الديوان، ٤٣٠

لمعت سيوفُ بنـــي حُميـد بعدمـا صَدِئت وطـــال بـهنّ عَـهدُ الـرُّوم

وتذكـروا أيامـهم فـأتوا بـــها مَثَـــلاً يُمثّـــل مُحدثـــاً بقديـــم

فاستنقذوا الإسلام بعـد حكومتـي والمســـلمينَ عليـــه بالتســـليم

وكانت الثقة بالنصر ترافقهم؛ لأنهم كانوا يجاهدون في سـبيل الله، ويبذلـون الغالي والرخيص لتحطيم قواعد الشرك المحيطة بالعالم الإسلامي، فتـنزل ملائكـة النصر لتشارك في المعركة، وتختلط مع خيلهم، فيقول النامي مخاطباً سيف الدولة[1]:

يا مظمئ الخيل أو تروى ذوابلـــه والخيل تشرب مـــن أشـداقها اللجـم

إذا ملائكة النصر اختلطـــت بـها تشـابه العـالم النـوري والنّســـم[2]

وعندما يرى النتيجة بعينه في نهاية المعركة يقول في نهاية القصيدة [3] :

يحدّ سيفك سيف الدولة انحطمـــت قواعـدُ الشـرك والأرواح تنحطـــم

أما إذا قارن بين الحق والباطل، فإنه يضرب مثلاً بمعركة الحق والباطل التي دارت بين فرعون وموسى، فكان النصر للحق لا للكثرة والعتاد[4] :

ألم تر فرعونـاً وموســى تحاربـا فغودرت العقبى لذي الحق لا الحشـد

ويفرح لانتصار القائد في شهر رمضان، جامعاً فرضي الجـهاد والصيـام، تأسياً برسول الله وصحابته، عندما كان شهراً للجهاد والقتال والعمل؛ فيقول [5] :

١- النامي، الديوان، ص٧٤

٢- النّسَم: نَفسُ الروح، بمعنى الخلق، اللسان ٥٧٦/١٢

٣- النامي، الديوان، ص٧٦

٤- المصدر السابق، ص٥٠

٥- المصدر السابق، ص٦٢

سر علـــى السـعد تسـتظل مـن الأيـام ظلـي سـلامة وحبـور

بين فرضين مـن جـهاد وشـهر أنت في الناس مثلـه فـي الشـهور

سمع النصر فيـه أمـرك لمـا خاطبتـه الأقـدار بالتـأمير

ويربط الصنوبري الحج بالجهاد عندما يرثي الحجـاج الذيـن قتلـوا فـي الطواف بمكة ، على يد القرامطة يوم التروية في المسجد الحـرام، فـهم يكسـبون أجرين اثنين في نية واحدة [1] :

سروا وسرت أيدي المنايـا إليـهم ففازوا لدن فازوا بأجر علـى أجـر

رأوا حجهم حجا وغزوا فلم تطـب نفوسهم عن كسب ذخرين في ذخـر

ثم يعتبرهم شهداء وإن لم يقاتلوا :

وما غسلوا بالمـاء بـل بدمائـهم وما حنطوا إلا من الترب لا العطـر

ويصف قبرهم مجتمعين :

ألوف من الشبان والشيب ضمـهم قليب قريب الجـانبين مـن القعـر

وما أن هووا في هوة بل تسـابقوا إلى ربوة خضراء بين ربى خضـر

ثم يدعو على الأعداء، ويستمطر النصر من الله :

فيا رب لا تمهل عـدوك وارمـه بقاصمة الأعنـاق قاصمـة الظـهر

إلـهي أعـد أيـام عـاد عليـهم ويوما كيومي أهل مديـن والحجـر

وأيـد أمـير المؤمنيـن وسـيفه بنصر كما عودت يا خـالق النصـر

١- الصنوبري، الديوان، ص ٩٢

وينقل لنا صاحب الحلية قصة فتى صوفي يسمى سعيد الشهيد، حيث شـــارك في إحدى المعارك، فحمل على الأعداء، وكان ينشد [1] :

تنـــح يـــا حـــور الجنـــــان عـــنـــا مـــا لـــك قـــاتـــلنـــا ولا قـــتـــلـــنـــا

لكـــن إلـــى سيـــدكـــن اشتـــقـــنـــا قـــد علـــم الـــســـر ومـــا أعـــلـــنـــا

فقتل من الأعداء عددا، ورجع إلى مصافه، فلما تكالبوا عليه؛ حمل عليـــــهم، وأنشأ يقول :

قد كنـــت أرجـــو ورجائي لم يخـــب أن لا يضيـــع اليوم كدي والتـــعـــب

يا مـــن ملا تلـــك القصـــور باللعب لولاك ما طابت ولا طاب الطـــرب

ثم قاتل حتى استشهد.

وفي هذا يتضح أنهم آمنوا بأن النصر من الله وحده، ولن ينزله الله إلا علـــى المؤمنين الصادقين، الذين يعملون ويجاهدون، أما الفئة المتقاعسة المتواكلة؛ فلن تنال النصر، والأمثلة كثيرة في تاريخ الأمة .

١- أبو نعيم، حلية الأولياء، ١/١٦٥

الفصل الثالث

شعر الزهد وصلته بموضوعات الشعر الأخرى

أولا: الزهد والفخر

أ- الفخر بأخلاقهم الحميدة

ب- الفخر بانتسابهم للرسول صلى الله عليه وسلم

ج- الفخر بالإسلام والدفاع عنه

ثانيا: الزهد والمديح

أ- حسن أخلاق الممدوح وصلاحه

ب- ابتعاد الممدوح عن الدنيا وزخرفها

ثالثا: الزهد والرثاء

رابعا: الزهد والحكمة

خامسا: الزهد والشعر الفلسفي

سادسا: الزهد والمجون

شعر الزهد وصلته بموضوعات الشعر الأخرى

تقديم :

إن الشاعر عندما يقف مادحاً أو مفتخراً أو متغزلاً، فإنه يعبر عن نفسه، وتوجهاته، لأنها تمثل محركاً داخلياً يدفعه للقول في هذا الموضوع أو ذاك، وعندما نتمعن في فنون الشعر التي خاض فيها الشاعر الواحد نجد خيطاً دقيقاً يربط هذه الموضوعات المختلفة، في قصيدة واحدة أو قصائد مختلفة .

وأعتقد أنه لولا ظروف الدراسات الأدبية وما تحتاجه من تفصيل، لكان تقسيم الشعر تقطيعاً لأوصال الشاعر نفسه .

ومن هنا فقد كان للزهد تأثيره الواضح في شعر الشعراء الذين زهدوا في الدنيا، أو الشعراء الذين كتبوا في الزهد فناً دون زهادة حقيقية، بل كان لموجة الزهد العامة في المجتمع تأثيرها الواضح على الشعراء المُجّان، فظهر الارتباط والتداخل بين الزهد وموضوعات الشعر الأخرى كالفخر، والمديح، والرثاء، وشعر الحكمة، والفلسفة، والمجون، وغيرها من الفنون .

أولاً: <u>الزهد والفخر</u>

بقي فن الفخر بارزاً في القرن الرابع الهجري، وتخصص فيه عدد من الشعراء، وهو الفن "الذي يقوم فيه الشاعر عادة بالإشادة بفضائله، وفضائل قومه، والتغني بمكارمه، ومكارم القبيلة التي ينتمي إليها وذكر مواقعها وأيامها" [1] .

١- نبيل أبو حلتم، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٩٨٥م، ص١٠٥

وقد بالغ الشعراء في الفخر بأنفسهم كما فعل ابن نباتة السعدي، فوصل حد الكفر والإلحاد عندما جعل نفسه المسؤول عن الموت والنعيم فقال [1]:

تضاءل الدهر حتى ضاع في هممي واستفحل المجدُ حتى صار من شيمي

فالعيش من نعمي والموت من نقمي وحكمة الفـــلك الدوار من حكـــمي

ومقابل ذلك فقد كان إيمان بعض الشعراء يدفعهم للصدق في فخرهم، ومنهم الشريف الرضي، فقد " افتخر دون ادعاء ولا مبالغة ولا كذب أو اختلاق أو تزيد" [2] لأنه يؤمن أن الموت نهاية كل حيّ، فكيف يُقبل علـــى الدنيـــا ويلتـــذ بـــها، فيقـــول مفتخراً[3]:

إنا نعيـــــــــب ولا نُعـــــاب ونصيـــــب منـــك ولا نصـــــــاب

مـــن لـــــدّ ورد الـــمـــــــوت لا يصـــفـــــو لـــه أبـــداً شـــــــــراب

ويمكننا الوقوف عند موضوعات الفخر التي ظهرت ملامح الزهد فيها لـــــدى بعض الشعراء فجاء فخرهم على ثلاثة أشكال، فقد افتخـــــروا بأخلاقـــهم الحميـــدة، وافتخروا بانتسابهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وافتخروا بنصرتـــهم لديـــن الله والجهاد في سبيله، وذلك من خلال الملامح التالية :

أ-الفخر بأخلاقهم الحميدة :

فهذا الشريف الرضي في أشهر قصائد الفخر لديه، يعتز فيها بأنه حليم،

---

[1] ١- ابن نباتة السعدي، الديوان، ٢/٥٧٥

٢- إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ص٣٤١

٣- الشريف الرضي، الديوان، ١ /١١٧

يعرض عن الجاهلين، ويزيدهم ألماً وغيظاً أنه إنسان لا يغضب أبـــداً، ثـــم يفخـــر باتزانه ووقاره ولذلك لا يقرب الخمر، ولا يسمع الغناء والموسيقى، بل إنه لا يعرف من الفحشاء إلا اسمها، فيقول [1] :

وللحـــلم أوقـــات وللجهـــل مثـــلها ولكـــن أوقاتي إلى الحلم أقـــرب

يصول عليّ الجاهلـــون، وأعتـــلي ويُعجـــِمُ فيّ القائـــلون وأعـــربُ

يرون احتمـــالي غُصّة، ويزيدهـــم لواعج ضغن أنني لستُ أغضب[2]

ولا أعرف الفحشـــاء إلا بوصفـــها ولا أنطق العوراء والقلبُ مغضبُ

ويفخر أبو فراس الحمداني بأنه لا يقبل الضيم ولا يعتدي على الضعفاء، أو من هم دونه؛ فهو عفيف يردع نفسه عن أموال النّاس، خوفاً أن ترتفع أيدي الأيتـــام بالشكوى إلى الله، ويراعي حقوق الناس جميعاً حتى لو كانوا خصوماً له فيقدم لـــهم حقوقهم طائعاً مختاراً، فيقول[3] :

لســـتُ بالمستضيـــم من هو دوني اعتـــداءً ولســـت بالمستـــضـــام

أبـــذل الحـــقّ للخـــصـــوم إذا مـــا عجـــزتْ عنه قـــــدرة الحـــكـــام

لا تخَطَّـــى إلى المـــظـــالم كَـــفّي حـــذراً من أصـــابع الأيـــتـــــام

أما الخليفة الراضي فهو يفخر بعفته وطهارة جيبه من الفاحشـــة والعيـــوب، ويُعذر نفسه في خروجه للموصل بأنه لا يعلم الغيب، فهو بشر أمره بيـــد الله عـــز

---

[1] ١- الشريف الرضي، الديوان، ١ /١٠٨

٢- اللاعج: الهوى المحرق،اللسان،٢/٣٥٧، والضغن: الحقد، والعداوة، اللسان، ١٣/٢٥٥

٣- أبو فراس، الديوان، ٣/٣٧٠

وجلّ، الذي يهب النصر لمن يشاء ومتى يشاء، ويكشف السوء بقدرته وهذا تسليم لله الذي بيده تصريف الأمور، فيقول [1] :

وهوّن بعض ما ألقاه أنّي نقيٌّ الجيب من دنس العيوب

إذا لم أوت من رأي مصيب فما علمي بإضمار الغيوب

وكم ريبٍ لصرف الدهر هابٍ جلاهُ النّصر من رب مهوب

ويفخر كشاجم بصبره وحيائه قائلاً [2] :

أقني الحياء فأستغني به وإذا أغل قومٌ فَحُسْنُ الصّبر لي غُلّة

أما الفخر الحقيقي عنده فيراه بإغاظة الأعداء وحفظ الجار، والدفاع عن الأعراض، وإكرام الضيف، فيقول[3] :

الفخر أن يشجي الفتى أعداءه ويُعزّ جاره

ويذبُ عن أعراضه ويشبُّ للطُرّاق ناره

أما الصنوبري الذي يعتبر حسد الحاسدين له نعمة من الله ، فإنه يفتخر بترك الحسد، لإيمانه بأن الرزق من الواحد الأحد يقسمه سبحانه كيف يشاء [4] :

ويحسدني في الشعر قومٌ ولم أكن لأحسد مخلوقاً وذو العرش رازقُه

وعندما يفخر الشريف الرضي بوالده، يجد عفة والده سبباً للفخر به، ويربط الشيب بها قائلاً[5] :

---

[3] ١- الصولي، أخبار الراضي، ص١٦٠

٢- كشاجم، الديوان، ص٣٩٧

٣- المصدر السابق، ص٢٠١

٤- الصنوبري، الديوان، ١ /١٣٤

٥- الشريف الرضي، الديوان، ١/١١٠

إذا امــرؤ لم يكسه الشيــب عفــة فما الشيــب إلا سبــة للأشــائب

ب- الفخر بانتسابهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإنه نسب ينبغي لصاحبه أن لا يكون ذليلا، كما يقول الشريف الرضي[1]:

أنا ابــن نبــي الله ، وابــن وصيه فخــار عــلا عن نده وضريبــه

فــوالله لا ألقــى الزمــان بــذلــة ولوحط في فودي أمضى غروبه[2]

ويقول في موقع آخر مشيرا إلى آل البيت الكرام [3] :

وقالوا عجيــب عجب مثلي بنفــسه وأين على الأيــام مثل أبــي أب

لعمــرك ما أعجبــت إلا بمدحهــم ويحســب أني بالقصائد معجــب

ويجب التنبيه هنا إلى ما وقف عنده الشاعر، وحذر منه؛ بــأن الإنســان لا ينتفع بحسبه ونسبه إن لم يكن عمله صحيحا مخلصا صادقا يبتغــي بــه وجــه الله، وعلى نهج رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو مدار الحديث الشريف الــذي ترويــه عائشة-رضي الله عنها-فتقول: عندما نزلت " وأنذر عشيرتك الأقربين "[4]، قام عليه السلام على الصفا؛ فقال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بنــي عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم"[5]، وقــول الإمــام علي-رضي الله عنه- :"من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[6] .

١- الشريف الرضي، الديوان،١١٢/١

٢- الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، والغرب:حد السيف، انظر القناعة، الفصل الثاني، ص ٧٨

٣- المصدر السابق، ٣٤٤/١

٤- القرآن الكريم، سورة الشعراء، آية رقم ٢١٤

٥- الترمذي، سنن الترمذي، ١٣٩/٤

٦- الشريف الرضي، نهج البلاغة، ٤ /٦

وقد أكد الشريف الرضي هذا المعنى كثيراً، فيقول[1] :

ما ينفــع المــرء أحســابٌ بلا جِدَةٍ أليس ذا منتــهى حظّي وذاك أبي

وكذلك الخليفة الراضي يطرق هذا المعنى، ويؤكده عندمـــا يفخــر بنســبه للرسول صلّى الله عليه وسلّم [2] :

لوأن ذا حســب نــال السمــاء بــه نلنا السمــاء بلا كَدٍّ ولا تــعــب

منا الرســول نبــي الله ليــس لــه شبه يقــاس به في العجم والعرب

فإن صــدقتم فأعلى الخلق نحن وإن ملتم عن الصدق أعنقتم إلى الكذب

ويتحدث الشريف المرتضى عن ذلك أيضاً، فالعمل عنده هو أساس النجـــاة، يقول[3] :

لا تــفــخــــرن إلا بــنــفــســـك يـــــوم فــخــــر إن فــخــرتـــا

ودع الأصـــــول فــإنــمـــــا هي فضلــة لــك إن نــســبــتـــا

مـــاذا يـــضــرك أو يـــعــــرك إن خــبــثــن لــهـــم وطــبــتـــا

كـــلا ولــيــس بــنـــافـــــع إن هــن طــبــن إذا خبــثــتـــا

وهو يفخر برسول الله وصحبه الكرام في دفاعــهم عــن ديــن الله العظيــم، وحمايتهم له، قائلاً(٤) :

لله درّ فـــــوارس فــي خــيــبــر حملوا عن الإســلام يومــاً منــكرا

١- الشريف الرضي، الديوان، ١٨٥/١

٢- الصولي، أخبار الراضي، ص١٥٤، وانظر المحمدون من الشعراء، ترجمة الراضي، ص٢٥٨

٣- الشريف المرتضى، الديوان، ١٣٣/١

٤- المصدر السابق، ٣٥/٢

عصفـوا بسلطـان اليهـود وأولجوا تلك الجوانـح لوعـة وتحـسـرا

أما الصنوبري فيقف عند النبي عليه السلام وآل البيـت الكـرام، و يرتفـع ويسمو بهم مؤكدا بأنهم فخر لكل العرب، فهم جواهر حقيقية، وهم طاهرون ودعـاة للطهر والطهارة [1] :

بالنبـي الصفـي الطـاهر العـر ض البـاغي طهـارة الأعراض

و بآل النبـي والجـوهـر المـحـ ض فقل في الجواهـر الأمحاض

فهم الفخر لابـن ذي يزن إن كُـنـ ـتَ تبغي فخراً ولابن مضاض

ويفتخر بهم مرة أخرى، و يذكر سادات الصحابـة كـالصديق والفـاروق رضي الله عنهما[2] :

وإذا القبـائـل عددت سـاداتـهـا لتـقيـم ميلا أو تـسـد فتـوقـا

عَـدّوا النبـي الهاشمي ورهـطـه ووزيـره الصِّديـق والفـاروقـا

حتى ينتهي إلى القول إنهم سبب هنائنا وسعادتنا، وذلك بنشرهم لـهذا الديـن العظيم، وتضحيتهم من أجله:

لولاهم مـا استـشعـرت أجفاننـا طيب الرقـاد ولا أسغـنا الريقـا

وهو يؤكد أنه يفخر بهم لأنه يرجو الشفاعة من رسول الله يوم الدين [3] :

أرجو شفـاعتهـم فتـلك شفـاعـة يلتـذ بـرد رجائـها راجيـهـا

١- الصنوبري، الديوان، ص٢١٦
٢- المصدر السابق، ص٣٤٠
٣- المصدر السابق، ٤٦١

وهي الشفاعة التي تحدث عنها عليه السلام في أحاديثه الصحيحة، فعن أنس بن مالك–رضي الله عنه– قال: قال عليه السلام" أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا"(١)، وعن أبي هريرة–رضي الله عنه– قال: قال عليه السلام " لكل نبي دعوة يدعوها، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"(٢) .

ج– الفخر بالإسلام والدفاع عنه :

وأول من يسجل ذلك بقلمه وسيفه هو الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني، فيشير إلى جهاد أبناء عمه ودورهم في حماية دين الله والدفاع عنه ، مستخدما اسميهما في الإ شارة إلى ذلك؛ وهما سيف الدولة وناصر الدولة الحمدانيين، وكيف قاما بحفظ الخلافة عندما كادت تتهاوى، والتي هي رمز إسلامي عظيم، بقاؤه دليل على تماسك الأمة الإسلامية وإمكانية عودتها إلى عزها ومنعتها من جديد فيقول(٣)

ففينا لدين الله عز ومنعة وفينا لدين الله سيف وناصر

هما وأمير المؤمنين مُشَرَد أجاراه لمّا لم يجد من يجاور

أما قومه فهم لا يقربون اللهو والخمر والغناء، لأنهم شغلوا بشأن الجهاد والدفاع عن الأمة، فهذا هو المجد، وهذا هو الفخرالذي لا مزيد عليه، فيقول(٤) :

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومسمَعَة، وطنبور، وعود

فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد، أو لبأس، أو لجود

١– مسلم، صحيح مسلم، م٢، ٣ /٥٨

٢– المصدر السابق، م٢، ٣ /٥٨

٣– أبو فراس الحمداني، ١٣٧/١

٤– المصدر السابق، ٩٤/١

وهذا ما أجمعت عليه كتب التاريخ والأدب، فكان بنو حمدان أهـل مـروءة ونجدة، ويعتبر سيف الدولة الحمداني" من أمهر وأبرع القواد الحربيين فـي القـرن الرابع الهجري فضلا عن تميزه عنهم جميعاً بالخلق الكريم والشجاعة النادرة التـي مكنته من الانتصار على أقوى إمبرطورية عاشت في عصره "[١] .

وأجمل ما افتخر به أبو فراس عندما ربط الجهاد مع الموت وحتميته، فـلا بد أن تموت، إذن فاختر لنفسك الذكر الطيب الجميل، ولذلك يؤكد أنه سوف يسـتمر في جهاده إذا عاد من الأسر ويقاتل الأعداء حتى الموت[٢] :

هو المـوت فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسـان ما حيي الذكر

سيـذكرني قـومي إذا جَـدّ جَـدُّهم وفي الليلة الظلمـاء يفتـقد البدر

ويفخر الشريف الرضي بأن دينه الإسلام ورايته التوحيد، ويركـز علـى عدالة الإسلام التي تميز بها في المساواة بين الناس والتعامل مع الأمـم الاخـرى، فيقول [٣] :

أصبـحـت لا أرجـو ولا أبتـغي فضـلاً، ولي فضـل هو الفضل

جَـدِّي نـبـي، وإمـامـي أبـي ورايـتـي التـوحيـد والعـدل

أما الخليفة الراضي فهو يفخر بإقامة دعائم الإسلام، والحكم بالعدل بين الناس فيقول[٤]:

١- مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمداني او مملكة السيف والقلم،عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص١١٧

٢- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢/٢١٢

٣- الشريف الرضي، الديوان، ٢/٢٧٠

٤- الصولي، ص١٨٢

من ذا يقـيـم دعـائـم الإســـلام ويعـم بالإفضـال والإنـعـام

فيـنا النبـوة، والخلافـة حكمـنـا ماضٍ كما شئـنـا على الأيـام

لكننا نجد الشطر الأخير يخالف أمرا مفهوما واضحا في الإســلام وهـو ردّ المشيئة إلى الله، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، ولكنها عزة الخلافة تـأبى إلا أن تظهر على لسانه، إلا إذا كان الحديث موجها للأعداء من الروم والفرس وغـيرهم، حيث يتابع قائلا :

لا ينقـض الأعـداء مبرم أمرنا وبنـا تمـام النقـض والإبـرام

أمضى من الأجل المعـجّل أمرنا يـأتيـكَ قبـل الفـكر والأوهـام

فيصبح كلامه مقبولا حتى عندما يعتبر أمره أسرع من الموت، فإنـه فـي نكاية أعداء دين الله سائغ مستحب .

ثانياً- شعر الزهد وشعر المديح

كثر المديح وشعراؤه كثرة مفرطة لأ سـباب عديـدة منـها : تعـدد دور الإمارة، وتشجيع الأمراء والخلفاء، وتنافس الشعراء، الذين تأثروا بكـثرة المعـارك الحربية، وشارك بعضهم فيها مشاركة فعلية، وخير من يمثـل ذلـك أبـو فـراس الحمداني، وأبو الطيب المتنبي فبرز الأول في الجانب العسكري، وكان الثاني بـلا منازع البطل الحقيقي للجانب السياسي والإعلامي[1] .

وقد كان بلاط سيف الدولة حافلاً بالشعراء، بل إنه " لم يجتمع قط بباب أحد

١- نبيل أبو حلتم، اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، ص١٣٣ بتصرف

من الملوك –بعد الخلفاء– ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر" [1]، "وكان يُمدح قبل أن يلي حلب، وكثيراً ما أجاز الشعراء، وأجزل لهم العطاء وهو بعد قائد صغير" [2] .

وتمثلت جوانب الزهد وملامحه في هذه المدائح بعدة أمور منها: أخلاق الممدوح وأنه إنسان صالح يراقب الله عز وجل، فيصوم ويصلي ويحج ويعدل بين الناس، أو في تركيزهم على نظرته للدنيا وعدم اهتمامه بها أو عدم ركونه إليها، وكذلك في قيامه بحماية الدين والدفاع عنه .

أ- **حسن أخلاق الممدوح وصلاحه :**

هنأ الصنوبري ممدوحه بشهر رمضان، فامتدح صيامه وقيامه، وجمعه بين الحج والصيام، واعتبرها دليلاً على صلاحه وتقواه والتزامه الشرع الحنيف[3] :

بالسعد صُمت وبالسعادة تفطر ... وعلى التقى تطوي الصيام وتنشرُ

عُمِّرت مقبول الصيام مجنّب الـ ... آثام ما دام الصيام يعَّمرُ

وفيت هذا الشهر حق صيامه ... وقيامه في الأمن مما تحذرُ

وشفعته بالحج ما حجّ الورى ... أبداً يُلبِّي محرمٌ ويكبرُ

ونلاحظ دعاء الشاعر للممدوح أن يكون صيامه مقبولاً وأن يكون محفوظاً من المعاصي والذنوب، آمناً من كل خوف، بعيداً عن عذاب النار وجحيمها .

١- الثعالبي، يتيمة الدهر، ١/٣٧

٢- مصطفى الشكعة، مملكة السيف والقلم، ص١١٧

٣- الصنوبري، الديوان، ص٣١

وقد طرق الصنوبري هذا المعنى مرة أخرى ودعا لممدوحه، وجعله فريدا في التقوى والصلاح بين الناس كما تفرد شهر رمضان بين الشهور، بل خصصه بين ليالي شهر رمضان فهو كليلة القدر تميزا ونورا عن لياليه الأخرى، فيقول[1] :

نلت في ذا الصيام ما ترتجيه ووقاك الإله ما تتقيه

أنت في الناس مثل هذا الشهر في الأشهر، بل مثل ليلة القدر فيه

ويمدح سيف الدولة ويجعله كالغيث كرما وسخاء، وأن هذا الكرم شكر من سيف الدولة لله على نعمه الكثيرة عليه، ثم يدعو له بالعناية الإلهية والحفظ لأنه حافظ لرعيته وكريم عليهم [2] :

رعاك إلهي أي راعي رعية له شيمة تكفيهم شيمة القطر

علوت أساليب المديح فلم تنل بحال بنظم في المديح ولا نثر

فأعطيت رب الحمد بالحمد حكمه لعلمك أن الحمد من أوفر الشكر

وعندما يخاطب الصولي الإمام الراضي يمدحه بالعدل ويشبهه بمثال العدل المعروف، وهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيقول [3] :

إلى ابن الذي أحيا البرية عدله مشبه بالفاروق فيهم أبي حفص

ويمدح الصوري أحد القضاة فيشير إلى سوء الزمان، لكنه لا يجد خيرا في هذا الزمن الفاسد إلا صلاح القاضي الممدوح وتقواه ، فيقول [4] :

١- الصنوبري، الديوان، ص٤٦٤
٢- المصدر السابق، ص٤٨
٣- الصولي، أخبار الراضي، ص٢٩
٤- الصوري، الديوان، ص١١٤

ورأيــت أولاد الزمــان بــبــابــه فرقاً أتوا يــشكوا عُقــوق الوالــدِ

لم يبــق مــا يتمسّكُ الراجــي بــه إلا صلاحــك في زمــان فاســد

إلا أننا لا نستطيع أن ننسى حب الخلفاء والأمراء للمديــح، فــلا يمنعــون الشعراء من القول إذا أحسوا بمبالغتهم الواضحة في الوصف، أو تجــاوزهم الحــدّ شرعاً وعقلاً في المديح، ولكنّ المديح بالتقوى والصلاح جاء أقل مبالغة، لأنه جـلنب مرتبط بالله عز وجل، والشاعر إنسان كغيره من البشر فلعله عندما يقف عند أمــر يتصل مباشرة بالخالق سبحانه، فإنه يتوقف ويتردد قبل قوله .

فنجد الشاعر أبا حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف (بأبي الرقعمــق)، رغم حماقته ورقاعته، عندما أراد الحديث عن أخلاق ممدوحه لم يبالغ في وصفــها، فقال عنه [1] :

مهــذب الرأي محمــود خلائــقــه رحــبُ المكارم سمحٌ غير منّــان

وجملــة الأمــر فيــه أنــه رجــلٌ يــراقــبُ الله في ســرٍ وإعــلان

إن كنت قلت سوى ما فيه أعرفــه إذاً كفــرت بمعبودي ودَيّــانــي

ب- ابتعاد الممدوح عن الدنيا وزخرفها :

فرّق الشعراء بين الممدوحين في نظرتهم للدنيا، فجعلوا ابتعاد الممدوح عــن زخارف الدنيا وزينتها سبباً لمدحه والإشادة به، فإذا جمع إلى ذلك صيامــاً وقيامــاً، ومحاربة للبدع الباطلة، فهو على الحق الواضــح المبيــن لا ينخــدع، وإذا جاءتــه

١- الثعالبي، يتيمة الدهر، ١ / ٤٠٨

المغريات فلديه من التقوى ما يجعله يصمد في وجهها ويرفضها بشدة، وهذا ما تحدث عنه الصنوبري في مديحه لمحمد بن الحسين الهاشمي، حيث يقول [1] :

أما ترى سنن الأيام قد سعدت بصائم قائم يشقى به البدع

تبدو له خدع الدنيا فيزجرها فليس تخدعه عن دينه الخدع

أما ممدوح الصوري فإنه يرى الدنيا شيئاً حقيراً لا قيمة له، وهذا يدفعه لإنفاق ما في يده جميعاً، ولذلك يدعوه الصوري لأن يقصر قليلاً، فهو يظنه- لكثرة كرمه وإنفاقه- الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي سمع بأن الدنيا زائلة فانية، ولم يسمع أحد غيره بذلك، فيقول[2] :

يا واهب الدنيا يراها رؤية الشيء الحقير

أقصر ألم يسمع سِوا كَ بأنها دار الغرور

وفي مديحه لأحد القضاة ، وهو أبو الحسين علي بن عبدالواحد بن حيدرة، يراه كريماً الى حدٍ مفرط فلا يمسك شيئاً ويقابله في الجانب المعاكس إنسان لئيم يتمسك بالدنيا وكأنه يعيش أبداً ، مع أن المال والحياة كلاهما في نقصان مستمر فكيف يجتمعان ؟ ، فيقول[3] :

طلق اليمين إذا اللئيم تمسكت يمناه بالدنيا تمسك خالدِ

والمال ينفدُ والحياة كلاهما فعلام يجمع نافدٌ في نافدِ

١- الصنوبري، الديوان، ص٢٦٨

٢- المصدر السابق، ص١٨٠

٣- المصدر السابق، ١١٤

ونحن هنا أيضا لا نستطيع أن نغفل حالة الشاعر، وفقرَه، وحاجتـــه للمـــال، وبسطه لمسألته بكل الطرق الممكنة، ومنها امتداح الأمير ووصفه بالإعراض عـــن الدنيا، فإنها قد لا تكون الصورة الحقيقية للممدوح هنا، وخاصة عنـــد الصـــوري ، فلعله يذكّره بزوال الدنيا ، وفنائها ويغريه بالإنفاق أو العطـــاء، أو يذكّـــره بنفســـه ليحصل منه على ما يريد من المال .

ومهما يكن من أمر فإنها لمحة من لمحات هذا العصر لا نستطيع تجاوزهـــا أو عدم الإستفادة منها للتعرف على علاقة الزهد بالمديح في هذا القرن .

ولعل الملاحظة المهمة التي ينبغي الإشارة إليها ما نجده في مقدمات قصـــائد المدح من إطالة في الحديث عن الدنيا وزوالها، وحـــال أهلـــها، وتقلبـــهم كتقلبـــها، وخاصة عند الشريف الرضي، فهو مثلاً يمدح والده، ويهنئه بـــالفطر، ولكنـــه يبـــدأ بالبكاء والحزن، ووصف الدنيا وأحوال الناس فيها فيقول [1] :

دنيـــا تضـــر ولا تسرُّ وذا الورى كلٌّ يجاذبـــهـــا وكـــلٌّ عـــاتـــبُ

تلقي لنا طرفـــاً فإن هي أعرضـــت نزعت، ولو أن الجبـــال جـــواذبُ

هيهات يا دنيـــا وبرقـــك صـــادقٌ أرجو، فكيـــف إذا وبرقك كـــاذب

وهي ظاهرة واضحة في مدائح الشريف الرضي، وأخيه الشريف المرتضـــى وغيرهما من شعراء هذا القرن، فإنها تحسن كالمعتاد في الرثاء، ولكنـــه شـــعورهم بالغم من الدنيا، وثقلها عليهم، فلا يستطيعون منه فرارا حتى في قصائد المديح .

---

[8] ١- الشريف الرضي، الديوان، ١ /٨٥

ثالثاً : الزهد والرثاء

يعتبر المديح إشادة بمحاسن الممدوحين من الأحياء، يلقي الشاعر قصيدته بين أيديهم، بينما الرثاء إشادة بمحاسن الممدوحين من الأموات الذين لا يسمعون، وهو فرق دقيق بين المديح والرثاء، قد ينسحب أحياناً على نتيجته فيظهر في الرثاء صدق العاطفة، وجمال التصوير، على أن يكون رثاء الميت دون وقوف أمام أحد أقاربه، فإنه يقترب كثيراً من المديح المباشر، لأن الشاعر يبتغي نوال هذا القريب الذي يقف أمامه أميراً أو خليفة، فنجده يشير إليه ويمدحه في نهايتها .

أما الرثاء دون انتظار الجائزة فقد أبدع فيه الشعراء حقاً، وخير مثال عليه، رثاء أبي الحسين الأنباري لابن بقية الذي قتل وبقي مصلوباً مدة طويلة، ثم أنزل من جذعه ودفن، فقال فيه ممتدحا كرمه وحسن أخلاقه [1] :

علو في الحياة وفي الممات ... لحقّ أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصّلات

كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلّهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم اقتضاءً ... كمدّهما إليهم في الهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم عُلاك من بَعد الممات

أصاروا الجوّ قبرك واستنابوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

فبلغ من تأثيرها أن عضد الدولة ندم على قتله عندما سمعها .

١- انظر الكامل ٧ /٣٧٧ ، وانظر اليتيمة ٢ /٤٣٩

وشاعت في الرثاء مظاهر الاهتمام بالموت أكثر من شخص المرثي، وغلبت على رثائهم النزعة الزهدية والصبغة الفلسفية الحكمية [1] ، فهذا أبو الفياض سعيد بن أحمد الطبري يرثي الصاحب بن عباد فتدور المعاني حول الموت وحتميته، وحال الدنيا وتقلبها فيقول[2] :

خليلي كيف يقبلك المقيل ودهرك لا يُقيل ولا يَقيل

ينادي كل يومٍ في بنيه ألا هبّوا فقد جدّ الرحيل

كأن مثال من يفنى ويبقى رعيل سوفَ يتلوه رعيل

لنا منه وإن عفنا وخفنا رسول لا يُصابُ لديه سول

وقد وضح السبيل فما لخلق إلى تبديله أبداً سبيل

لعمرك إنه أمدٌ قصيرٌ ولكن دونه أمد طويلُ

وقد شارك المتنبي شعراء عصره بهذه المعاني فقال يعزي سيف الدولة عن عبده يماك التركي وقد مات بحلب[3] :

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كلّ طبيبِ

سُيقنا إلى الدنيا فلو عاشَ أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب

فلا يستقيم أمر الدنيا إذن إلا بالموت، وانتقالها من قوم إلى قوم، ثم يؤكد أنه

١- نبيل أبو حلتم، اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، ١٤٦

٢- الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣ / ٣٣٠

٣- المتنبي، الديوان، ١ / ١٧

لولا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان، ولا للكريم علـــى البخيـــل، فيقـــول متابعا :

ولا فضـــل فيهـــا للشجاعة والنّدى وصبـــر الفتـــى لولا لقاء شعوب

وقد رثى الشريف الرضي عدداً من الخلفاء، وعدداً كبيراً من أهله وأقاربه، وأحسن التصرف فيها كما يقول الثعالبي:" ولست أدري في شعراء العصـــر أحســـن تصرفاً في المراثي منه" [1]، فعندما رثى والدته، وقف طويلاً عند الموت، ثم وصـــف الدنيا وتقلبها، واعتبر العمر روحة لمسافر ثم ينقضي سريعاً، وخاطبها ممتدحاً عفتها وزهدها في هذه الدنيا، ووصفها بالتقوى والعبادة، والحرص على الصوم في اليـــوم الشديد القيظ، وقيام الليالي الطويلة، لأنها تريد الجنة مقابل هذا العيش الخشن، فلـــو كانت النساء جميعاً مثلها لاستغنى الأبناء عن الآباء؛ فيقول[2] :

أنضيـــت عيشـــك عِفةً وزهـــــادةً وطُرحـــت مثقـــلةً مـــن الأعبـــاء

بصيام يوم القيـــظ تلهـــب شمسُـــهُ وقيـــــام طـــول الليـــلة الليـــلاء

لـــو كـــان مثـــلك كـــلُّ أمٍ بـــــرّة غَنِـــيَ البنـــون بهـــا عن الآبـــاء

وجمع الشعراء بين المديح والرثاء في حديثـــهم عـــن آل البيـــت الكـــرام، فالصنوبري يصف مقتل الحسين رضي الله عنه، ويهاجم القتلة الذين لم يخـــافوا الله عز وجل، ولم يرقبوا كتابه الكريم، الذي أوصى بآل البيت خيراً؛ فيقول[3] :

١- الثعالبي، اليتيمة، ١٦٩/٣

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٢٧/١

٣- الصنوبري، الديوان، ص٨٨

صـلـى الإلـه عـلـى مـن أتـى بـشـيـراً نـذيـرا

ومـن مـضـى خـاتـمَ الرسـ ـلِ والـسـراجَ الـمـنـيـرا

يـومَ الحـسـيـن علـى الـديـ ـن كـنـت يـومـاً عسـيـرا

مـلأت والـلـه كـربـاً يـا كـربـلاء الصُّـدورا

ثم يخاطب القتلة، مؤكداً أنهم خالفوا القرآن الكريم :

يـا عـصبـة لـم تـخـف مـن إلـهـهـا أن تـجـورا

يـا عـصبـة لـم تـراقـب قـرآنـه الـمـسـطـورا

أما كشاجم فيجعل آل البيت أعلى مرتبة من النجوم فـي عليائـها، وذلـك لأنهم رفضوا الدنيا، وتخلوا عنها حباً في الآخرة ونعيمها [1] :

آل الـرسـول فـضـلـتـم فـضـل النـجـوم الـزاهـرة

ورفـضـتـم الـدنـيـا لـدن فـزتـم بـحـظ الآخـرة

أما الشريف الرضي فيرثي الحسين بن علي، ويمدح آل البيـت ويصفـهم بأنهم صفوة الله من خلقه، أطاعوا أوامره، وكان أزهدهم وأحلمـهم أشـدهم علـى الأعداء، فقد أحبوا الجهاد حتى حسدهم الناس والجن جميعاً[2] :

هي صفـوة الله التـي أوحى لهـا وقضى أوامـره إلى أمجـادهـا

أخذت باطـراف الفخـار فعـاذرٌ أن يصبـح الثـقلان من حسادها

١- كشاجم، الديوان، ص٢١٣

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٣٦٣/١

الزُّهـــد والأحـــلام فـــي فتّاكهـــا والفتـــك، لولا الله ، في زُهادهـــا

وهو في قصيدة أخرى يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويخبره بحـــال أبنائه وأحفاده، فبعضهم قتيل وبعضهم أسير، وهو منظر يثير الحزن والألم، وهـــذا طغيان وبغي لا يليق بمقام آل البيت الكرام [1] :

يـــا رســـول الله لـــو عاينـــتهـــم وهـــم مـــا بيـــن قتـــلى وســـبـــا

لرأت عيـــنـــاك منهـــم منـــظـــراً للحشـــى شجـــواً وللعيـــن قـــذى

ليـــس هـــذا لـــــرســـول الله يـــا أمـــة الطغيـــان والبغـــي، جـــزا

فنجد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وســـلم، والصـــلاة عليـــه أثنـــاء القصيدة، والدعوة المستمرة للاقتداء بهديه، واحترام سنته باحترام آل بيتـــه الكـــرام جميعا، والمقصود بآل بيته ليس علي وفاطمة والحسن والحسين- رضي الله عنـــهم- فقط، كما يخصصهم الشيعة دون غيرهم من آل البيت، فـــهذا تحريـــف لآيـــات الله، وانتصار للهوى، فعترة الرسول صلى الله عليه وسلم، هم أهل بيته جميعـــا، وهـــذا صريح الآية الكريمة: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـــل البيـــت ويطـــهركم تطهيرا "[2]، ومن أهل البيت في هذه الآية الكريمة عائشة ونساؤه جميعا، وهـــذا مـــا يتمسك به أهل السنة ولا يردونه[3].

١- الشريف الرضي، الديوان، ١/٤٤

٢- القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية رقم ٣٣

٣- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت، م٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٣٦٠ بتصرف

رابعاً : الزهد والحكمة

قيل: الحكيم ذو الحكمة، والحكمة معرفة أفضل الأشياء بـــأفضل العلـــوم، والحكم: العلم والفقه، قال تعالى:﴿وآتيناه الحكم صبياً ﴾[1]، أي علماً وفقهاً، والحكمة: العدلُ، ورجل حكيم: عدل حكيم، ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجـــارب، وأحكم الأمر: أتقنه، والحكيم: المتقن للأمور[2] .

ويدور المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة حول النظرات الصائبة في الكـــون والحياة والناس، والدين والأخلاق، وذلك بعد تأمل وإدامة نظر في الأمور، فتشـــكل لدى الإنسان فلسفة خاصة به في الحياة [3] .

وللحكمة منابع وأصول منها الإلهام الفطري، والتجارب الإنسانية والثقافـــة العلمية، والكتب السماوية، "وعلى رأسها القرآن الكريم الذي نسخ مـــا قبلـــه، فـــهو مستودع التجارب الإنسانية، والمفتاح الذي سهّل الدخول الى حقول المعرفة"، بـــالحث على العلم، وتفضيل العلماء، وتقديم تجارب الأمـــم الســـابقة وأخلاقـــها، وحكمـــها وأمثالها، التي تضبط سلوك الإنسان المسلم فلا ينحرف، بل يسمو إلى أقرب درجات الكمال، وهذه أعظم الحكم التي منَّ الله بها على الإنسان الملتزم بتعاليمه، والحريـص على أن يكون قدوة في مجتمعه[4] .

---

[11] ١- القران الكريم، سورة مريم، آية رقم ١٢
٢- ١ابن منظور، لسان العرب، م١٢، ص١٤٠، باب حكم
٣- حسن قرعاوي، الحكمة في شعر المتنبي، ط١، دار عمّار، عمان، الأردن، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٩ بتصرف
٤- المصدر السابق، ص١١-١٥ بتصرف

وقد جُمع للرسول صلى الله عليه وسلم" جوامع خير الدنيا والآخرة، وكلامه عليه السلام معدود من هذا القبيل، وسالك هذا السبيل، لأنه صلى الله عليه وسلم أيِّد بالحكمة، وأوتي جوامع الكلم، فجلّ عن أن يروي كلاماً، أو يُعدَّ لمقام مقالاً "[1] .

وتميّز العرب بالحكمة، وطارت في صحرائهم، وارتقت مع رقيّهم وتحضرهم، ونقلها عنهم غيرهم لارتباط الحكمة بالعقل، وحَمْلِها لخبرة طويلة، وتجربة كبيرة في ميدان الحياة [2] .

أما في القرن الرابع الهجري فقد ازدهر شعر الحكمة إلى جانب شعر الزهد لاتصاله به اتصالاً تاماً، "واتسع النظم فيه تبعاً لاتساع حركة الزهد، وتناول الشعراء الأخلاق الحميدة والذميمة بالبسط والتحليل، ووقفوا طويلا عند واجبات الأخوة والصداقة، وتعرضوا للقرين الصالح والقرين السوء، وساقوا في ذلك حكماً كثيرة، تبرز المحاسن والعيوب في صور مثيرة، تحض على الأخلاق الفاضلة، وتنفر من الأخلاق الذميمة" [3] .

فمن حيث النظرة للدنيا، وحتمية الموت، فقد كثرت حكم الشعراء في هذا الجانب، وأيقنوا أن الموت لا دواء له، كما يقول ابن نباتة في رثاء ابن عم له[4] :

نُعلّلُ بالدواء إذا مرضنا ... وهل يشفي من الموت الدواء؟

ونختار الطبيب وهل طبيبٌ ... يؤخر ما يقدمه القضاءُ؟

---

[12] ١- الكلاعي(أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ص١٨٠

٢- حنا الفاخوري، الحكم والأمثال، ط٤، دار المعارف، القاهرة، مقدمة المؤلف، ص٥

٣- رجاء السيد الجوهري، شعر الرجز في القرن الرابع الهجري، ص١٩١

٤- ابن نباتة السعدي، الديوان، ٦١٠/١

وقد جرب الشريف الرضي الدنيا، فلم يجد فيها شيئاً يدوم، لا الصبـــاح ولا المساء، ولا النعيم ولا الشقاء، ولا ينفع أو ينجي من الموت الهرب، فيقول بصـــوت هادئ حزين [1] :

بلونـــا مـــا تجـــيء بـــه الليـــالي فلا صبـــح يـــدوم ولا مـــســـاء

وأنضيـــنـــا المـــدى طربـــاً وهماً فما بقي النعـــيـــمُ ولا الشـــقـــاء

إذا كـــان الأســـى داءً مقـــيـــمـــاً ففي حسن العـــزاء لنـــا شـــفـــاء

ومـــا ينـــجـــي مـــن الأيـــام فوتٌ ولا كـــدٌ يطـــولُ ولا عـــنـــــاءُ

ولأنه فهم الأمر على حقيقته ينصحنا بأن نأخذ من يومنا للغد، فلن ينفعك بعـد الموت بكاء الباكين أونواح النادبين، فيقول [2] :

خـــذْ الوقـــت واعلـــم بأن اللبيـــب يأخـــذ مـــن يـــومـــه للـــغـــد

فما ينفع المـــرءُ ، بعـــد المـــنـــون قـــولُ الـــنّـــوادب: لا تـــبـــعـــد

وقد علمته التجارب أن التعجل يؤدي للاضطراب والارتباك والوقوع فـــي الخطأ تلو الخطأ، وتكون النتيجة سيئة على صاحبها؛ فإنه إذا عاد صفر اليدين؛ فذلك هو الفشل الذريع الذي لا يمكن إصلاحه[3]:

كـــم قـــابـــس عـــاد بغيـــر نـــار لا بـــد للمســـرع مـــن عـــثـــار

---

[13] ١- الشريف الرضي، الديوان، ١ /٣٦
٢- المصدر السابق، ١ /٣٩٤
٣- المصدر السابق، ١ /٥٤٣

وأبو فراس صاحب تجربة حقيقية مع الحياة والموت، لذلك يفصل لنا حال الدنيا، وكيف يأتي الموتُ الإنسان فجأة، في قمة فرحته بها؛ فيقول [1] :

الدهر يومان: ذا ثبتٌ وذا زللٌ والعيش طعمان ذا صابٌ وذا عسل

كذا الزمان ، فما في نعمة بطرٌ للعارفين ، ولا في نقمةٍ فشلُ

سعادة المرء في السراء إن رجحت والعدل أن يتساوى الهمُّ والجذلُ

فما الأسى لهموم لا بقاء لها وما السرور لنعمى سوف تنتقلُ

لكن في الناس مغموراً بنعمته ما جاءه اليأس حتى جاءه الأجلُ

وعندما يحل الشيب، فإنه لا ينفع فيه الخضاب، لأن تبديل اللون لا يغير من الحقيقة شيئاً، فيقول كشاجم خطابا لمن يخضب شيبه [2] :

يا خاضب الشيب والأيام تظهره هذا شبابٌ لعمر الله مصنوعُ

أذكرتني قول ذي لبٍّ وتجربةٍ في مثله لك تأديب وتقريع

إن الحديد إذا ما زيد في خلقٍ تبين الناس أن الثوب مرقوع

ولن يفهم هذه الحقائق إلا أصحاب العقول المبصرة، ولذلك دعا الشريف الرضي إلى أن يكون العقل قائداً لصاحبه نحو الفهم الصحيح وإلا فإن أضيع شيء في الرجال عقل لا يعرف حقيقة الموت والحياة ، فيقول أولاً إن المقام قليل[3] :

نقولُ : مقيلٌ في الكرى لجنوبنا وهل غير أحشاء القبور مقيل

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٢/٢٩٩

٢- كشاجم، الديوان، ص٣٣٦

٣- الشريف الرضي، الديوان، ٢ /١٩٨

دع الفكـــر في حب البقـــاء وطوله فهمك –لا العمر القصير–يطـــول

ولا ترج أن تعطى من العيش كثرة فكل مقـــام فـــي الزمـــان قليـــل

ومن نظر الدنيـــا بعيـــن حقيـــقـــة درى أن ظلا لـــم يزل سيـــزول

ثم يستغرب طول الأمل لدى الناس :

لماذا تربـــي المرضعـــات طماعة لماذا تخلـــى بالنســـاء بـــعـــول

أليس إلى الآجال نهـــوي، وخلفنـــا من الموت حاد لا يغب عجـــول؟

وأخيرا ينصح: كن صابرا تكن عاقلا، وافهم حقيقة الدنيا تكن أعقل الناس:

إذا لم يكـــن عقل الفتى عون صبره فليـــس إلى حسن العزاء سبيـــــل

وإن جهل الأقـــدار والدهـــر عاقل فأضيع شيء في الرجال عقـــول

ويوافقه أبو فراس في دور العقل المبصر، ويضرب لذلك الأمثال فيقول[1] :

لعمرك ما الأبصـــار تنفـــع أهلهـــا إذا لم يكـــن للمبصرين بصائـــر

وهل ينفـــع الخطي غيـــر مثقـــف وتظهر إلا بالصقـــال الجواهـــر

وقد وقفوا طويلا عند الصداقة والصديق، وأكثروا النصائح والحكم وضربـــوا الأمثال، فالشريف الرضي يعتقد أن صداقة الحليم شفاء للأمراض، وصداقة الســفهاء مرض قاتل[2] :

ود الحليـــم شفـــاء دائـــك كـــلـــه وصداقـــة السفهـــاء داء معضـــل

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ١/١١٠

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٢/١٦٠

ويكشف لنا أخلاق السفهاء في مكان آخر، فهم يكرهون لك الخير، ويصيبهم الغيظ والهم إذا أصابتك النعمة، ويفرحون إذا وقعت في نكبة أو ابتلاء من ابتلاءات الدنيا المختلفة[1] :

إن عاينوا نعمة ماتوا بها كمداً وإن رأوا غمة طاروا بها فرحاً

أما أشد ما قد يصيبك، وأوجع ما يؤلم الإنسان أن يكون هذا الحسد والحقد والغيظ من أقرب النّاس إليك[2] :

وإذا رمتك من الرجال قوارصٌ فسهامُ ذي القربى القريبة أجرحُ

ولأن الدنيا تتقلب بين ليلة وضحاها، ينادي القاضي ابن معروف بدعوة ليست جديدة علينا، فيحذرنا من التهاون في شأن الصداقة، فلعل فيها خطراً عند تقلبها أشد من العداوة[3] :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة

لكنهم لم يتركوا التحذير من الأعداء، فإنك إن حاولت نفع العدو، فهو يحرص على ضرّك، وذكّروا بالصبر وعاقبته، فإنه يحفظ القلب من أن يمتلئ حقداً وغيظاً، ويصبح الخير والعفو والفضل ميزانه بدلاً من الشر والأذى، كما يوصي بذلك الصنوبري قائلاً [4] :

---

[15] ١- الشريف الرضي، الديوان، ١ /٢٤٥
٢- المصدر السابق، ٢ /١٥٨
٣- الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣ /١٢٧
٤- الصنوبري، الديوان، ص٨٧

خـــذ مـــن عـــدوك حـــذرك ولا تُـــمـــلّـــكْـــهُ أمـــــرك

مِـــنْ حيـــث حاولـــت نـــفـــع الـــ عـــدوِّ حـــــاول ضـــــرَّك

فاستشـــعـــر الصـــبـــر تـــحـــمـــد عـــنـــد الـــعـــواقـــب صـــبـــرك

لا تخـــــزن الشـــــر واجـــعـــــل خـــزانـــة الخـــيـــــر صـــدرك

وهكذا تمتلئ النفس غنىً، وغنى النفس خير وأفضل عاقبة عند العقلاء مـــن كثرة المال، فيقول أبو فراس[1] :

غِـــنـــــى النفـــس لمـــن يـــعـــقـــ ـــل خيـــــر من غنـــى المـــــال

وفضـــــل النّـــــاس فـــي الأنفـــ ـــس، ليـــس الفضـــلُ في الحـــال

حيث أن المال يكون سبباً في لؤم صاحبه وبخله، بينما يكون الجائع العـــاري كريماً على قلة ما في يده، وهي حال نشاهدها كثيراً، كما يقول الصنوبري[2] :

كم رأى النـــاس من لئيـــم بطيـــن وعلى بـــابـــه كريـــم خميـــصُ[3]

وهذا المال زائل بعد حين، وإن كان سبباً في عزك ورفاهيتك فـــي الدنيـــا، فإنه سيكون عليك وبالاً في الآخرة، إن لم تنتفع به في وجوه الخير كما يقول البديعيّ أبو العباس أحمد بن جعفر، ويضرب لذلك الأمثال [4] :

ومن خـــدم السلطـــان أكرم نفســـه لكنـــه عمّـــا قليـــل أهانـــهـــــا

١- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣٣٩/٣

٢- الصنوبري، الديوان، ص٢١٣

٣- الخميص: ضامر البطن من الجوع، وخميص عن أموال الناس: عفيف عنها، اللسان، ٣٠/٧

٤- الثعالبي، يتيمة الدهر، ٥ /٤٢

ومن عبد النيـــران لـــم ينتفـــع بها ولم يلق إلا حرّهـــا ودخـــانـــهـــا

ويقدم لنا المتنبي حكمة رائعة، ليذكر الإنسان بأنه راحل قريباً [1] :

لا يعجبـــن مضيـــماً حسن بزتـــه وهل تروق دفينـــاً جودة الكـــفـــن

ثم يقول بأن الجاهل الغافل هو الذي يطمئن للدنيا[2] :

تصفـــو الحيـــاة لجاهـــل أو غافل عمّا مضى منهـــا وما يتـــوقـــــع

ولمن يُغـــالط في الحقائـــق نفســـه ويسومها طلب المحال فتطـــمـــع

لكننا نحرص جميعاً على الدنيا رغم معرفتنا بغدرها، بل نعشقها عشقا[3] :

أبداً تستـــــرد مـــا تهـــب الـــدنـــ ـــيـــا فيا ليت جودها كان بـــخلا

وهي معشـــوقة على الغدر لا تحـــ ـــفظ عهـــداً ولا تتمّـــم وصـــلا

وللمتنبي أقوال كثيرة، نجد فيها عند قراءتها "علاجاً شافياً لنفوسنا، وبلسماً لجراحاتنا، وغالباً ما يجد فيها الإنسان المقهور أو المغلوب علـــى أمـــره، صـــدى الحكمة وصوتها المرتفع يتردد في أعماقه" [4] ، ولذلك وصفه كثيرون "بأنه مؤمـــن بالله كل الإيمان" [5] ، واستدلوا على ذلك بشعره الذي خلا من المجون، والخنا، بـــل يمتلئ بالأخلاق النبيلة، والأدب الجمّ، والصور الكريمة، فإذا قرأت الحكمة فيـــها لا تدري "أهو شعر محكم، أم حكمة زانها ثوبٌ من الشعر" [6] .

١- المتنبي، الديوان، ٣ /١٣
٢- المصدر السابق، ٣ /٢٥٠
٣- المصدر السابق، ٣/٢٥٠
٤- حسن قرعاوي، الحكمة في شعر المتنبي، ص٥٦
٥- المصدر السابق، ص٥٤
٦- إبراهيم أبو الخشب، ص٢٩٧

خامساً : الزهد والشعر الفلسفي

تغلغل الشعر الفلسفي في بواطن الأمور، وغاص في عمق المسائل، وحاول الشعراء أن ينفذوا من خلاله إلى صمامات النّفس ودواخل القلب، فقد كان الشعر الفلسفي تأملاً يثير شكاً وارتياباً، أو يوقظ وعياً وانتباهاً [١] ، وتراوحت نظرة الشعراء لواقعهم بين التشاؤم والتفاؤل، والرجاء واليأس، على اختلافٍ بين كلٍ منهم، حسب طبيعته ونفسيته وبيئته .

وقد دخلت بواكير الشعر الفلسفي إلى الأدب العربي عن طريق ندوة سيف الدولة الحمداني، التي ازدانت لبعض الوقت بالمعلم الثاني أبي نصر الفارابي، فيلسوف المسلمين، حيث ظهرت مسحة من اللون الفلسفي عند بعض شعراء الندوة، وكان المتنبي أسرعهم التقاطاً لهذه المعاني وأقدرهم على صياغتها في شعره[٢]، فهو يجنح للمعاني الفلسفية العميقة، فيقول في أمر الموت [٣] :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموتِ في أمر عظيم

ولأن المتنبي خاض تجارب كثيرة، ووقف أمام نماذج متعددة من البشر، فقد" سلّط سيفه في وجه الزمان والمجتمع والنّاس، وفلسف الحياة وطبيعتها "[٤]، متأثراً بأبي العتاهية كثيراً، كما تأثر بالشعر الفلسفي الجاري مجرى المثل[٥] .

١- إبراهيم أبو الخشب، ص١٩١بتصرف
٢- مصطفى الشكعة، ص٢١٦ - ٢١٧ بتصرف
٣- المتنبي، الديوان، ٤ / ٢٤٥
٤- حسن قرعاوي، ص٦١
٥- المصدر السابق، ص١٤٢

ثم أصبح المتنبي مدرسة بعد ذلك، وحسبه" أن المعري كان حسنة من حسناته، وأن فلسفته التي تناقلها الناس ورواها التاريخ، ورددتها الأيام، نقلها عن المتنبي، وأخذها من شعره، وإن كان زاد فيها شيئاً من الصقل، وبعضاً من الشرح والتحليل، ومعنى من الدقة والعمق، ونوعاً من الروعة والحسن(١) .

فقد درس المعري شعر المتنبي وهو غض، فتأثر به،" ثم اتصل حبه لهذا الشعر بحبه للشاعر، فكان يتعصب له ويتحامل على خصومه " (٢)، وعندما لاذ المعري بالزهد " لم تعد أقواله لهجة حكيم ولا خطاب مربٍّ أو مرشد، وإنما هي نفثات روح معذبة، وهواجس نفس حزينة، مما يؤكد الأساس الذي يقوم عليه بناؤه الفكري، شأنه في ذلك شأن المتنبي"(٣) .

فكان المتنبي بذلك حلقة الوصل بين أمته في صياغة فكرها، وفلسفة حياتها، خاصة عندما نجده لا يميل إلى التشاؤم الذي صبغ به المعري شعره، دون بارقة من أمل أو ومضة من رجاء، بل كان يغوص برفق، وينظر بمنظار بين التشاؤم والتفاؤل، والرجاء واليأس (٤) .

وقد وقف الثعالبي عند هذه المعاني في باب أسماه " الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة "(٥)، ويذكر منها حديث المتنبي عن الموت وأنه مُرُّ المذاق

١- إبراهيم أبو الخشب، ص٢٧٥

٢- كمال اليازجي، أبو العلاء ولزومياته، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٣

٣- عبد اللطيف شرارة، أبو العلاء المعري دراسة ومختارات، ط١، الشركة العالمية للكتاب، الدار الإفريقية العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٦٤

٤- إبراهيم أبو الخشب، ص١٩٣

٥- الثعالبي، يتيمة الدهر، ١ /٢١٤

على نفوسنا، مشيرا إلى السبب وهو حب الحياة الدنيا، فيقول[1] :

إلف هذا الهـواء أوقـع في الأنـ ـفس أن الحـمـام مـر المـذاق

أما اختلاف الناس وعدم اتفاقهم، فإنهم قد اختلفوا حتى فـي المـوت، هـل تشترك الروح مع الجسد في الهلاك، أم لا تشاركه في ذلك، فيؤكد أن التفكـير فـي هذا الشأن- بل في شأن الدنيا كلها- متعب ولا طائل من ورائه، فيقول[2] :

تخالف النـاس حتى لا اتفـاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجـب

فقيل : تخلص نفس المـرء سالمة وقيل : تشرك جسم المرء في العطب

ومـن تفكـ ـر في الدنيـا ومهجته أقامه الفكـر بين العجـز والتـعب

وعندما وصف الحمى التي غشته بمصر، يستشعر الموت فيردد [3] :

وإن أسلـم فمـا أبقـى ولـكـن سلمـت مـن الحمـام إلى الحمـام

تمـتـع مـن سـهـاد أو رقـاد ولا تأمـل كرى تحـت الـرجـام

فإن لثـالـث الحـاليـن معنـى سوى معنـى انتبـاهـك والمـنـام

يقول: " إن سلمت من الحمى لم أبق خالدا، ولكن أسلم من الموت بـها إلـى الموت بغيرها، فما دمت حيا فتمتع بالسهر أو النوم، ولا ترج نوما فـي القـبر، لأن الموت هو ثالث الحالين، وهو حال غير حالي السهر والنوم، فلا يمكن التمتـع فيـه بشيء"[4] .

١-المتنبي، الديوان، ١٠٨/٣

٢-المصدر السابق،٢٢٤/١

٣-المصدر السابق، ٤ /٢٧٩

٤-المصدر السابق، ج٤ هامش ص٢٧٩

وكذلك فعل الشريف الرضي في مرثياته فقد حولها إلـــى فلســفة حزينــة، وخاصة مراثيه في آل البيت، فيقول في رثاء الحسين بن علي[1] :

راحــل أنــت ، والليــالي نــزول ومضــر بــك البقــاء الطــويــل

لا شجــاع يبقــى فيعتنـــق الـــ بــيــض، ولا آمــل، ولا مأمــول

غايــة الناس في الزمــان فنـــاء وكذا غايــة الغصــون الذبـــول

إنما المـــرء للمنــيـــة مخبــو ء ، وللطــعــن تستــجم الخيــول

ويستمر بهذه النغمة الحزينة، ويفلسف الحياة والمــوت، ويــرى المتضــادين شيئا واحدا؛ لأن الأمر الذي سبب لك فرحك، قد أحزن غيرك، فيتابع قائلا :

ربما وافــق الفتــى مــن زمــان فـــرح، غيــره بــه مــتــبــول

هي دنيــا إن واصــلت ذا جفت ها ذا مـــلالا ، كأنــها عــطــبــول

كل باك يبــكى عليــه، وإن طـــا ل بقـــاء ، والثــاكــل المــثكول

والأمانــي حســرة وعـــنـــاء للــذي ظــن أنهـــا تــعــليـــل

ويفلسف الدنيا أيضا في رثاء أبي الفتح، ابن الطائع لله،[2] :

إنا بنــو الدنــيــا تسيــر ركابنــا وتخــالــط الإدلاج والإســـراء[3]

وكأننــا في العيــش نطلب غايــة وجميــعنــا يدع السنــيـــن وراء

أين المقــاول والغطــارفه الأولــى هجــروا الديــار وعطلــوا الأفناء

١- الشريف الرضي، الديوان، ١٨٧/٢

٢- المصدر السابق، ٢١/١

٣- أدلجوا: ساروا من آخر الليل، والدلجة: سير السحر، اللسان، ٢٧٢/٢، والخلط: المزج، اللسان،٢٩١/٧

فاخلط بصوتك كل صوت واستمـــع هل في المنـــازل من يجيب دعـــاء

واشمم تـــراب الأرض تعلـــم أنها جربـــاء تحـــدث كـــل يـــــوم داء

وعلى هذا النهج سار أبو الحسن التهامي، في مرثيته المشهورة لولـــده وقـــد مات صغيرا؛ على الوتيرة نفسها من الفلسفة الواعية لطبيعة الموت والحياة، حيـــث يقول في مطلعها[1] :

حكم المنيـــــة فـــي البـــريـــة جاري مـــا هـــذه الدنيـــا بـــدار قـــــرار

ثم يصف حال الإنسان مع الدنيا، قائلا:

طبعـــت على كدر وأنت تريـــدهـــا صفـــوا مـــن الأقـــذار والأكـــــدار

ومكلف الأيـــام ضـــد طبـــاعـــها متطلـــب في المـــاء جـــذوة نـــــار

وإذا رجـــوت المستحيـــل فإنـــمـــا تبنـــي الرجـــاء على شفيـــر هـــار

ويعيد تصريف الأمور لمن يملك الأقدار بيده سبحانه، ثم يدعو إلـــى اغتنـــام الفرصة قبل فوات الأوان، وعودة النفوس إلى صاحبها:

فالعيـــش نـــوم والمنيـــة يقظـــــة والمـــرء بينـــهمـــا خيـــال ســـاري

والنفس إن رضيـــت بذلك أو أبت منـــقـــادة بـــأزمـــــة الأقـــــدار

فاقضـــوا مآربـــكـــم عجـــالا إنما أعمـــاركم سفـــر مـــن الأســـفـــار

وتراكضـــوا خيل الشباب وبادروا أن تســـــترد فإنـــهـــن عـــــوار

١- أبو الحسن التهامي، الديوان، ص٤٧

أما كشاجم فهو من شعراء الندوة الحمدانية، وله لمحات فلسفية واضحة، فهو عندما يشكو إلى الله دمعه، يفلسف هذا الدمع الحائر بين الخوف والحذر، تعبيرا عن نفسه ومشاعره الحائرة؛ فيقول [1] :

أشكو إلى الله دمعا حائرا أبدا لا يستقر ولا يجري فينحدر

الخوف ينهاه والأشجان تأمره فقد تكافأ فيه الخوف والحذر

سادسا: <u>شعر المجون</u>

لا يستطيع أحد أن ينكر ما نقرؤه عن القرن الرابع في الكتب الأدبية والتاريخية والفلسفية؛ من أنه يمثل أزهى عصور الإسلام القديمة حضارة ورقيا وترفا، لكننا في المقابل لا ننكر أنه كان أكثرها انحطاطا اجتماعيا وتدهورا خلقيا، وبلغ حدا كبيرا من الشذوذ الخلقي، والافتتان بالغلمان من فرس ونصارى وأتراك، مما نقلت لنا منه كتب الأدب – وخاصة اليتيمة – الكثير المؤسف [2] .

وساعدت عوامل كثيرة على استفحال هذا المجون،" ولعل من أهمها ما جاء به الأعاجم من أساليب الترف، إضافة إلى ما انتشر من الآراء الفاسدة لبعض مذاهب الغلاة من الشيعة، ومحاولة الفرس المتعصبين على العرب القضاء على مقومات المجتمع الإسلامي، وشيوع القلق والاضطراب في العصر البويهي، نتيجة لانتقال الدولة من قوة إلى ضعف، وتحكم الأعاجم فيها " [3] .

١- كشاجم، الديوان، ص٢٢١

٢- نبيل أبو حلتم، ص١٦٠ بتصرف

٣- رجاء السيد الجوهري، فن الرجز في العصر العباسي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ت، ص١٨١

وقد بلغت موجة المجون ذروتها عند شاعرين مشهورين هما ابـــن حجـــاج وابن سكرة، إذ كانا مصرين على إدخال العبث والمجون والاســـتهتار فـــي نســـيج قصائدهما الشعرية، التي ابتدعا لها طريقة في الأداء والتعبير لم يعرف لها الشـــعر العربي مثيلا في تاريخه الطويل [1] ، فقدما بذلك صورة حقيقية لمجتمعهما، بل كـــان ابن حجاج مسؤولا أمام التاريخ عن تردي لغة شعر الهجاء إلى منزلة يقشـــعر لـــها البدن، فهو يمثل نزعة المجون الفاحش خير تمثيل في هذا العصر [2] .

وقد اعتذر الثعالبي عن نقله لهذا المجون والسخف، لأنه يجده على علاتـــه، يتفكه بثماره الفضلاء، ويستملح بنات طبعه الكبراء، ويستخف أرواح طبعه الأدبـــاء، ويحتمل فرط رفثه المحتشمون، وقد سمعه الملوك والأمراء والـــوزراء والرؤســـاء، فكان مقبولا عندهم، موفورا عطاء أصحابه من الإكرام والإنعام [3] .

ومع ذلك فقد وقف شعراء المجون عند معـــاني الزهـــد المختلفـــة، فذكـــروا الموت، واعتبروا الشيب دليلا عليه، وحمدوا الله واستغفروه، وأشاروا إلـــى النـــار وخوفهم منها، وإلى الجنة ورجائهم فيها، وشكوا من الدنيا وهجوهـــا هجـــاء شـــديدا مقذعا، وطلبوا من الله أن يلهمهم الصبر عليها.

فهذا ابن سكرة الهاشمي، يشكو الزمان وأهله، ويقول لمن يدعوه إلى انتظار الفرج: إن العمر قصير، وإن أحدا من البشر لا يضمن عمر غيره[4] :

١-أحلام الزعيم، قراءات في الأدب العباسي- الحركة الشعرية، مطبعة الاتحاد، دمشق، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص١٣٥

٢-نبيل أبو حلتم، ص١٨١ بتصرف

٣-الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣/ ٣٥ بتصرف

٤-المصدر السابق، ٣/٢٩

وجاهل قـــال لـــي: لا بد من فـــرج فقلت للغيـــظ: لم لا بد من فـــرج ؟

فقال : من بعد حين ، قلت : يا عجبا من يضمن العمر لي يا بارد الحجج

وعندما يفكر في الفقر والحاجة، وجوع البســطاء مقــابل غنـــى الأغنيـــاء وتخمتهم، يستذكر الموت، ويراه عادلا في قسمته لأنه يساوي بين الفقـــير والغنـــي، وبين الحاكم والمحكوم، لذلك لا حاجة للحزن والأسى عند الفقراء، فإنهم يســتطيعون دفع جوعهم برغيف يابس، فيقول [1] :

الجوع يطـــرد بالرغيـــف اليـــابس فعلام تكثـــر حســـرتي ووساوسي

والموت أنصـــف حيـــن عدل قسمة بين الخليفـــة والفقـــيـــر البـــائـــس

أما انقضاء فترة الشباب وبهجتها، فهو إشارة واضحة ودليل على اقـــتراب ساعة الموت، فيصورها في بيتين رائعين قائلا [2] :

لقد بـــان الشبـــاب وكـــان غضـــا لـــه ثـــمـــر وأوراق تـــظـــلـــك

وكان البـــعـــض منك فمـــات فاعلم متـــى مـــا مات بعضك مات كلك

ثم يقف مع نفسه وقفة صدق فيخاطبها بلسان زاهد، فنلاحظ الدعوة للتوبة، وترك المعاصي، والحديث عن القبر، وسؤال الملائكة، وماذا يجيبهم، ثـــم الخـــوف الشديد من يوم الحساب الذي لا بد منه، وكيف يواجهه دون زاد يحميه ويقيـــه مـــن عذاب النار، فيقول [3] :

١- الثعالبي، اليتيمة، ٣/٣٣

٢- المصدر السابق،٣/٣٣

٣- المصدر السابق، ٣/٣٤

محمد، ما أعـددت للقبـر والبـلى وللملكيـن الواقفيـن على القبـر ؟

وأنـت مصـر لا تراجـع تـوبـة ولا ترعـــوي عما يذم من الأمر

تبيـت على خمـر تعاقـر دنـهـا وتصبح مخمورا مريضا من الخمر

سيأتيـك يـوم لا تحـاول دفـعـه فقدم لـه زادا إلى البعـث والحشر

أما ابن حجاج فتعرض له علة صعبة، وتشتد عليه الحمى فيرى الموت ألف مرة، ثم يصلح حاله بعد اليأس، فقال يذكرها، مشيرا إلى نجاته بعدما أصبـح بينـه وبين الموت أدق من الشعرة [1] :

حمـى لتـنـورهـا وقـود يزيـد فـي الـيوم ألف سـجـرة

عـلـة سـوء كانـت ترينـي نفسـي فـوق الفـراش حـسـرة

طالعـني المـوت مـن زوايـا بـرسـامهـا ألـف ألـف مـرة

ويشير في غيرها إلى خوفه من النار[2] :

إننـي خشـيـة من النـار أخشى كل شـيء يمـس بـالنـيـران

لكنه مستمر في مجونه، لأنه يعتقد أن مكانه في الجحيم، فهو لم يقـدم شـيئا ينفعه، إلا شيئا واحدا يتمنى أن يشفع له يوم القيامة، وينقله من النار إلى الجنة، وهـو حبه لآل البيت الكرام، فيقول في بعض خمرياته، طالبا أن يسقوه الخمر، مع قولـه بأن القرآن حرمها، وأنها طاعة للشيطان :

اسقـيـاني فـقـد رأيـت بعيني فـي قرار الجحيـم أين مكـانـي

١- الثعالبي، البيتيمة، ٣ /٩٣

٢- المصدر السابق، ٣ / ٣٧

أنا حـــودابـــة وذهـــنـــي حـــديـــد تحت خصي فـــرعون أو هامـــان

كل شـــيء قدمـــتـــه لـــي فـــيـــه رأس مـــال يـــأوي إلى الخســـران

غير حبـــي أهل الحواميـــم والحشر وطـــــه وســـورة الـــرحـــمـــــن

خمســـة حبهم إذا اشـــتـــد خوفـــي ثقـــتـــي عنـــد خالـــقـــي وأمـــاني

قـــد تيقنـــت أنـــهـــم ينـــقـــلونـــي مـــن يدي مـــالك إلـــى رضـــوان

فهذا يدل على معرفته لبعده عن الحق ومجانبته للصواب، لكنه يقـــول بأنـــه يرجو شفاعة آل البيت، وهذا جهل من الشاعر بحكمة العبادة، فلعلـــها حالـــة مـــن الضياع والتفجر وعدم الاتزان[1]، لدى بعض شعراء المجـــون، يؤكـــد ذلـــك ابـــن الرقعمق- الذي كان بالشام كابن حجاج بالعراق- فهو يقسم بالله على حيرتـــه، فـــلا يدري ما يصنع[2] :

فـــقـــد والـــشـــفـــع والـــوتـــــر ومـــــن أقـــســـــم بـــالـــفـــجـــر

تـــحـــيـــــــرت فـــمـــــا أدري الـــــذي أصـــنـــــــع فـــي أمـــــــــري

فهو يدعو للحمق، والمجون، ولكنه في لحظة من اللحظات يستغفر الله ممـــا قاله من العبث، ويخاطب نفسه عندما جزعت وخافت، فيقول [3] :

أستـــغـــفـــر الله ممـــا قلته عبثـــا لغير شئ وما في الصحف مسطور

١- أحلام الزعيم، قراءات في الحركة الشعرية، ص١٣٦

٢- الثعالبي، اليتيمة، ٣٨٧/١

٣- المصدر السابق، ٣٩٣/١

وقد أكثروا من هجاء الدنيا وشكوى الزمان، فابن لنكك يرى الدنيا مكـدرة، لا رجاء فيها، وهي إن صفت لأهلها؛ فإنها لا تعدو أن تكون أوهامـــا وحلمـــا يـــزول سريعا، فيقول [1] :

فراق أخـــلائـــي الذيـــن عهدتهـــم يوكـــل قلبـــي بالهمـــــوم اللوازم

وما أرجـــي مـــن حيـــاة تكـــدرت ولو قد صفت كانت كأضغاث حالم

ويدعوعليها بالزوال، فإنها عند صاحب العقل الحكيم لا تساوي وزن قـــيراط واحد [2] :

لا مكـــث الله دنيـــانـــا فقيـــمتهـــا ليســـت تفي عند ذي عقـــل بقيراط

ولذلك كله يرجو الله عز وجل أن يلهمه الصبر، مؤمنا أنه لا علاج لـــه إلا بالصبر، فيطلب الصبر الجميل الكريم، صبر أيوب عليه السلام، فنجده يقول [3] :

نحـــن مـــن الدهـــر في أعاجيـــب فنســـأل الـــلـــه صبـــر أيـــــوب

فكانت هذه المشاركات لشعراء المجون في الحديث عن بعض موضوعـــات الزهد، كالموت، والقبر، والدنيا الفانية، ثم في دعوتهم لأنفسهم والناس للصبر فيـــها، مما يدل على تداخل شعر الزهد مع موضوعات الشعر الأخرى، واهتمام الشـــعراء به، ودورانه على ألسنتهم على اختلاف مشاربهم، فمنهم من قاله خوفا وزهدا، ومنهم من قاله تشبها بهم، أولغاية فنية في بيان قدرته على نظم هذا اللون من الشعر .

١- الثعالبي، اليتيمة، ٢ /٤١٨

٢- المصدر السابق، ٢ /٤١٠

٣- المصدر السابق، ٢/٤١٠

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

أولا: شعر الزهد شعر مقطوعات

ثانيا: بين القديم والحديث

أ- التخلي عن المقدمة التقليدية، أو البكاء على الأطلال

ب- في المعاني والأفكار

ثالثا: التأثر بالقرآن الكريم، والحديث الشريف

أ- الاقتباس من القرآن الكريم

ب- التأثر بالحديث الشريف

رابعا: الألفاظ والأساليب والصورة الشعرية

أ- بساطة اللغة والألفاظ

ب- استخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والنداء

ج- استخدام ألوان البديع

د- الصورة الشعرية ١- صورة الموت

٢- صورة الدنيا

٣- صورة القبر

الخصائص الفنية

تركز الدراسة الفنية على أربعة موضوعات تمثل الجوانب الفنيـــة لشـــعر الزهد في القرن الرابع الهجري، وهي البناء الفني لـــهذا الشـــعر باعتبـــاره شـــعر مقطوعات، ثم ارتباطه بالقديم من حيث الشكل والمضمون، ومدى التـــأثر بـــالقرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم دراسة اللغة والأساليب والصورة الفنية.

أولاً : شعر الزهد شعر مقطوعات

لقد انتشرت ظاهرة المقطوعة لدى شعراء القرن الرابـــع الـــهجري، حيـــث "غلبت المقطعات القصار على نظام القصيدة الطويلة، وكان غرام الشعراء بها أكـــثر من غرامهم بالقصائد الطوال"[1] ، ويعود ذلك لكثرة الشعراء في هذا القرن وغـــزارة إنتاجهم وتنافسهم في الإجادة،، وكثرة الأحداث وتقلبات الحياة السياسية والاجتماعية، والمعارك والحروب المستمرة، وكان نصيب شعر الزهد منها كغيره من مواضيـــع الشعر الأخرى، حتى يتوافق مع شعر العصر بعامة، ولأن القطع أطـــير فـــي هـــذه المواقف الوعظية المؤثرة.

وقد اهتم النقاد بالقطع وقدّموا بعض الشعراء لإحسانهم التصرف في القطـــع، مع قدرته على التطويل، بينما حكموا على بعض المتقدمين أنه كان علـــى جلالتـــه مقصّراً في القطع عن رتبته في القصائد، كما هو الحال عند أبي تمّام[2] .

١-نبيل أبو حلتم، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع، ص٢٠٩

٢-ابن رشيق القيرواني،(أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، ت٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م، ١ /٣٥٠

وفي القرن الرابع يقول الثعالبي عن ابن لنكك البصري إنه:" فرد البصـــــرة، وصدر أدبائها، وبدر ظرفائها في زمانه"، ثم يقول:" وأكثر شـــعره ملـــح وظـــرف، خفيفة الأرواح، تأخذ من القلوب بمجامعها، وتقع من النفوس أحسن مواقعها، وجلـــها في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء أهل عصره، وما أشَبِّهُ شعرَه في الملاحـــة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة، إلا بشعر كنيه أبي الحسن بن فارس، ثم يقول:" وكـــان ابن لنكك إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب، وأبدع فيما صنع، فأمـــا إذا قصّد القصيد فقلما يفلح وينجح"[١] .

ويظهر لنا من منقولات الثعالبي عن ابن لنكك أنه كان يؤمن بيوم الحســـاب، ويعلم أن قائده وقائد الشعراء إلى النار هو امرؤ القيس، ولكنه يأمل بعفو الله ويرجـو رحمته ومغفرته فيقول[٢] :

إذا خفـــق اللـــواء علـــيَّ يومـــاً وقد حمل امـــــرؤ القيـــس اللـــواء

رجـــوت الله لا أرجـــو ســـــواه لعـــلّ الله يرحـــم مـــــن أســـــاء

ويروي الثعالبي عن ابن سكرة الهاشمي أنه "حلف بطلاق امرأته –وهي ابنـــة عمه – أنه لا يخلي بياض يوم من سواد شعره في هجاء جاريته خمرة، ولما شعرت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صـــلاة الصبـــح تجيئـــه بـــالدواة والقرطاس، وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم، فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتـاً في ذكرها وهجائها"[٣] .

١- الثعالبي، اليتيمة، ٢ /٤٠٧

٢- المصدر السابق، ٢ /٤١٩

٣- المصدر السابق، ٣ /٣

وفي هذه الرواية إشارتان لا بد من الوقوف عليهما، أما الأولى فهي قيامه بقرض الشعر فيها كل يوم- ولو بيتاً واحداً - فنجد تركيزاً واضحاً على المقطوعة لحاجته الماسة إليها هنا، ولذلك ندرت القصائد في شعره بعامة، كما عرضته لنا اليتيمة، أما الإشارة الثانية فهي أداء ابن سكرة للصلاة، والحرص على صلاة الفجر بالذات، ومن هنا فإننا لا نستغرب وجود الزهد في شعره ومخاطبته لنفسه في هذه المقطوعة[1] :

محمدُ ، ما أعددت للقبر والبلى ... وللملكين الواقفين على القبر؟

وأنت مصرٌّ لا تراجع توبة ... ولا ترعوي عمّا يذمُ من الأمر

تبيت على خمر تعاقرُ دنّها ... وتصبح مخموراً مريضاً من الخمر

سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعه ... فقدِّم له زاداً إلى البعث والحشر

وهو يمتدح القطع القصيرة في بعض شعره[2] :

يا شاعراً نمتار من ... أفكاره الفقر الدّقاقا

شعرٌ لو انّ الشهد ... قيس به وجدناه زعاقا

أما المتنبي فإن الناظر في ديوانه لا يستغرب كثرة المقطوعات، التي لا تتجاوز سبعة أبيات، وبعضها يصل إلى عشرة أبيات، وهي في الأعم الأغلب منها قيلت ارتجالاً، يؤكد فيها المتنبي قدرته الشعرية على القول بداهة في أي موقف

١- الثعالبي، اليتيمة، ٣٤/٣

٢- المصدر السابق، ٣٢/٣

يراه، أو يُمتحن به من الأمراء والحكام، فقد حسده الحسّاد والشعراء المنافسون على قدرته تلك، ومن ذلك حسد جليس بدر بن عمار له؛ " لِمَا كان يشاهده من سرعة خاطره، لأنه لم يكن شيء يجري في المجلس إلا ارتجل فيه شعراً، فقال لبدر : أظنه يُعمل هذا قبل حضوره ويُعِدُّهُ، فقال بدر: مثل هذا لا يجوز، وأنا أمتحنه بشيء أحضره للوقت"[1] ونجح المتنبي في الامتحان وبهر الحضور بما جلب وأبدع .

ففي وداع صديق له يرتجل مقطوعة ويعتبر الفراق فيها حتماً لازماً، لأن الإنسان مفارق والخلود في الدنيا محال[2] :

أما الفراق فإنه ما أعهدُ ... هو توأمي لو أنّ بيناً يُولدُ

ولقد علمنا أننا سنطيعه ... لما علمنا أننا لا نخلدُ

وعندما يرسل أبو العشائر بازياً على حَجَلة فيأخذها، يرتجل المتنبي مقطوعة جميلة يصف فيها انقضاض البازيّ عليها سريعاً وقتله لها، ثم يعقب عليها قائلاً[3]

فقلتُ لكلِّ حيٍّ يومُ موتٍ ... وإن حَرَصَ النُّفوسُ على الفلاح

وأجمل ما قيل في وصف الزمان، والشكوى من كدره، وما يشوبه من نقص وإساءة، ما وصفه شارح الديوان بأنه وحي من السماء، فقال عنها:" لقد وفق المتنبي في هذه القطعة كلّ التوفيق، ولعل شيطانه ممن كانوا يسترقون السمع، فتلقى هذه الأبيات من ذات الرجع، فلله دره "[4]، وهي قوله[5] :

١- المتنبي، الديوان، ٢ / ٢٤٢
٢- المصدر السابق، ٢ /١٠٢
٣- المصدر السابق، ١/٣٨٣
٤- المصدر السابق، ج٤، هامش ص٣٧٢
٥- المصدر السابق، ٤ / ٣٧٢

صحب النّاسُ قبلنـــا ذا الزمانـــا وعنـــاهم مـــن شـــأنه مـــا عنانـــا

وتولـــوا بغُصـــة كُلُّـــهم مِنـــه وإن سّـــر بعضَـــهُم أحيانـــا

كلمـــا أنبـــت الزمـــان قنـــاةً ركّـــب المـــرءُ فـــي القنـــاة ســـنانا

ومُرادُ النفوس أصغـــر مـــن أن نتعـــادى فيـــه وأن نتفـــانى

غيرَ أن الفتـــى يُلاقـــي المنايـــا كالحـــاتٍ ولا يُلاقـــي الـــهوانا

ولـــو أن الحيـــاة تبقـــى لحـــيّ لعددنـــا أضلّنـــا الشـــجعانا

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بُـــدٌّ فمـــن العجـــز أن تمـــوت جبانـــا

كلُّ ما لم يكـــن مـــن الصعـــب في الأنفس سهلٌ فيها إذا هـــو كانـــا

فنلحظ فيها حديثاً عن الدنيا ومنغصاتها، وإن أحسنت قليلاً فلا بد من التكدير، ولذلك " فإن ما تريده النفوس من جاه الدنيا وحطامها أقل وأحقـــر مـــن أن يعـــادي بعضنا بعضاً لأجله"[1]، وبما أن الموت حتم لا ينجو منه أحد فلماذا الجبـــن ؟ فـــهي دعوة واضحة للتعلق بمعالي الأمور وترك سفاسفها، والتحذير من الجبـــن واللـــؤم والتخاذل، وتأكيد حتمية الموت، والتنفير من الدنيا، وعدم التقاتل لأجلها فـــهي كـــدر وتنغيص دائم وإن أحسنت قليلاً .

أما الشريف الرضي فله مقطوعات كاملة في الزهد، في وصـــف الدنيـــا، أو القبر، أو الدعوة للصبر ، ومن ذلك مثلاً قطعة في الزهد بعنوان حسبنا الله[2] :

١- المتنبي، الديوان، ٢ /٢٩٤

٢- الشريف الرضي، الديوان، ٢ /٢٢٠

إن أشر الخطـــب فـــلا روعـــة أو عظـــم الأمـــر فصـــبر جميـــل

ليُـــهون المـــرءُ بأيامـــــه إن مقـــام المـــرء فيـــــها قليـــل

هـــل نـــافعُ نفســـــك أذللتـــــها كرامـــةُ البيـــت وعـــــزُّ القبيـــل

إنـــا إلـــــى الله وإنـــا لـــــه وحســـــبنا الله ونعـــــم الوكيـــــل

فالدنيا زائلة؛ وهذا يخفف عنه ويجعله يصبر عليها، ثم يخاطب نفسه مؤكـــدا لها بأنه لن ينفعه نسبه إن لم يكن مجتهداً في عمله، وأخيراً يتوكل على الله ويـــترحم على نفسه موقناً بالرجوع إليه سبحانه وتعالى .

وشاعرنا لا يشتكي للناس لأنه يعرفهم حق المعرفة، وإنما الضّـــرر امتحـــان وابتلاء من الرحمن سبحانه، وهو جواد كريم في الابتلاء والنعمة، ولذلك لا يشـــكو الرحيم الكريم للناس الذين لا يرحمون، فيقول[1] :

لا أشتكي ضري من الـــــــــــ نـــــاس وهـــــم مـــــن أعلـــــــم

إن إلـــهاً مـــــس بالـــــــــــ ضُـــــــرٍّ جـــــوادٌ منعـــــــــم

أشـــــكو الـــــذي يرحمنـــــــي إلـــــــى الـــــــذي لا يرحـــــــمُ

أما ابن المطرز عبد الرحمن بن محمد، فله في خلق الوفاء، والتحذيـــر مـــن الغدر مقطوعة يتعجب فيها من الغدر والنفاق، ويعتبر ذلك قرينـــاً للزمـــان وتلونـــه وتبدله السريع فيقول[2] :

عجبتُ لمن يصغي الوداد لغـــادرٍ يميـــل مـــع الأيـــام حيـــث تميـــل

١- الشريف الرضي، الديوان، ٢ /٣٢٥

٢- الثعالبي، اليتيمة، ٥ /٧٥

ودودٍ إذا حيـــاك أمـــا لســـــانهُ فـــوافٍ وأمـــــا قلبـــهُ فملـــول

فلو صحت الأيام صـــحّ وفاؤنـــا ودام ولكـــن الزمـــان عليـــلُ

ويتحدث أبو الحسن النعيمي عن القناعة، ويعتبر الموت أسهل وأفضل للمـرء من السؤال والاستجداء، فإن الحياء شعبة من شعب الإيمان، فيقول[1] :

إذا أظمـــأتكَ أكُـــفُّ اللئـــام كفتـــك القناعـــة شـــبعاً وريـــاً

فكن رجلاً رجلـــه فـــي الـــثرى وهامـــة همتـــه فـــي الثريـــا

فـــإن إراقـــة مـــاء الحيـــا ة دون إراقـــة مـــاء المحيـــا

وما أجمل هذين البيتين لأبي فراس الحمداني، يقول فيهما[2] :

خفِّض عليك ولا تبت قلق الحشـــا ممـــا يكـــون وعلّـــه وعســـاه

فالدهر أقصر مـــدة ممـــا تـــرى وعســـاك أن تُكفـــى الـــذي تخشـــاه

ونختم بهذه المقطوعة التي حفظناها صغاراً ولم نكن نعرف صاحبها، فتبيـــن لي أنها لشاعر من شعراء هذا العصر، وهو الببغاء يحذر من الدنيا، فيقول[3] :

هي الدنيـــا تقـــول بمـــلءِ فيـــها حذار حذار مـــن بطشـــي وفتكـــي

ولا يغرركـــم حســـن ابتســـامي فقولـــي مضحـــك والفعـــل مبكـــي

وهكذا فقد تحدثت المقطوعات المختلفة عن الدنيا، والموت، ومكارم الأخلاق، والقناعة، وغيرها من مواضيع الزهد، مع انتشارها بين سائر شعراء العصر.

١- الثعالبي، اليتيمة، ٥ /٧٨

٢- أبو فراس الحمداني، الديوان، ٤٢٦/٣

٣- الببغاء، الديوان، ص١٢٩

ثانياً : بين القديم والحديث

تأثر شعر الزهد كغيره من موضوعات الشعر بعوامل الحضارة والتطـــور، التي أوصلت شعر القرن الرابع إلى قمة ازدهاره بين عصور العربيـــة المختلفـة، ولكن الشعراء لم يبتعدوا عن تراثهم، فهناك اعتماد واضح على التقـــاليد الشـعرية المعروفة في بناء القصيدة، مع استخدام للمعجم الشعري العربي، واغتراف من أفكار القدماء ومعانيهم، وهذا ما سنحاول التعرف عليـــه مـــن خـــلال دراســة مقدمـات مقطوعاتهم، والأفكار والمعاني التي وظفوها في شعرهم في هذا القرن :

أ-التخلي عن المقدمة التقليدية أو البكاء على الأطلال :

شغل الشعراء الذين تحدثوا حول الزهد بفكرة واحدة وهي التنفير من الدنيـــا، فدخلوا في مواضيعهم مباشرة، لأن الخطب أهم وأشد من الوقوف علـــى الأطـــلال، فهذا كشاجم عندما يتحدث عن آل النبي صلى الله عليه وسلم، يجد نفسه مشغولاً بأمر هام لا ينفع معه التفكير في رحيل الأحباب أو إقامتهم، فيقول[1] :

له شُغُل عـــن ســؤال الطلـــل أقـــام الخليـــط بـــه أم رحـــل

وفي الموضوع نفسه عندما يمدح آل البيت، يؤكد أن البكاء لا ينفع، ولا يجني فائدة لأصحابه، وإن كان الميت عزيزاً [2] :

بُكـــاءٌ وقـــل غِنـــاءُ البكـــاء علـــى رُزء ذريّـــة الأنبيـــاء

لئن ذلّ فيـــه عزيـــز الدمـــوع لقـــد عـــزّ فيـــه ذليـــل العـــزاء

١- كشاجم، الديوان، ص١٨

٢- المصدر السابق، ص٤١٩

وعندما أراد الصنوبري أن يتحدث في إحدى قصائده عن المـــوت، وأحـــوال الدنيا وتقلبها، فأنه يبدأها بما يناسبها من حديث حول تجربة الإنسان بنفسه للأحـداث، ومعايشته اليومية للمصائب، فلماذا لا يستدل منها على هذه الدنيا الغرور، فجـــاءت مقدمة جميلة متناسبة تماماً مع الموضوع الذي يتحدث عنه، فيقول[1] :

بما جرّبت من نُكـــب الدُّهـــور ومـــا لا بســـت مـــن نُـــوبِ الأمـــور

صُدِقت وما غُررت بأمر دنيـــا فـــلا تُغـــرَرْ فمـــا هـــي بـــــالغرور

ألم تر كيف تنـــذرُ كـــلّ يـــومٍ وتغدر فـــي الـــرّواح وفـــي البكـــور

وتأتي الخاتمة متناسقة تماماً أيضاً حيث يؤكد أنهما دارين فقط :

ولا دارٌ سوى داريـــن فـــاختر خلـــوداً فـــي النعيـــم أو الســـعير

وعندما يصف القبر وهو يرثي ابنته الوحيدة، فإنه لا يقف على القبر ويبكـــي، لكنه يخاطب القبر، ويسأل صاحبته عما تشعر به، ويجيب على لسانها عن أحـــوال أهل القبور، فيقول مخاطباً القبر واصفاً إياه[2] :

يـــا فراشـــاً مـــن المـــدَر ووســـادةً مـــن الحجـــر

ثم يخاطب النّاس جميعاً بعدها بقليل :

يـــا بنـــي المـــوت إن للـــ ـــحـــيّ فـــي المـــوت معتـــبر

واستخدم ذلك في الرثاء فجاءت مقدمته زهدية حول الصبر، فيقول[3] :

١-الصنوبري، الديوان، ص٨٥
٢-المصدر السابق، ص٩٦
٣-المصدر السابق، ص١٠٠

الصبر من عدد الرزايـــا فـــاصبر إن المطيـــــل تلـــــهفا كـــــــالمقصر

لـــن يفثـــأ الأيـــام عـــن فتكاتـــها جـــزع الجـــزوع وعـــبرة المســـتعبر

وفي قصيدة أخرى، يبدأ بالاستغفار قائلا[1] :

أستغفر الله كم ذا الجهل والسـوف أستغفر الله كـــم ذا الخـــرق والعنـــف

يدعو إلى الجهل داعينـــا فنتبعـــه يمضي على الجهل ماضينا ولا يقـــف

وهي مقدمة تناسب الزهد والوعظ، وترتبط بما يأتي من ردع للنفس وزجـــر لها، ثم في النهاية يقول لها: إن السير لا ينفع دون زاد يستعان به، وهذا تعليم لـــها، لأنه وصفها بالجهل، والإسراف في الغفلة في مقدمته تلك، حيث يقول في نهايتها:

لا ســـير إلا بـــزاد يســـتعان به فاستـــأنـــف الزاد إن الزاد مؤتـــنـــف

وكذلك فعل الشريف الرضي في قصائده ومقطوعاته الزهدية، ففـــي إحـــدى قصائده يبدأ بخطاب الغافلين عن الموت، ويدعوهم للمبادرة العاجلة قبل فوات الأوان فيقول[2] :

يا آمـــن الأقـــدار بـــادر صرفـــها واعلـــم بـــأن الطـــالبين حثـــاث

خذ من تراثك ما اســـتطعت فإنمـــا شـــركاؤك الأيـــام والـــوراث

ويختم القصيدة الزهدية بما ختم الصنوبري به، من دعوة للـــتزود بـــالتقوى، وأن نهاية الناس جميعا واحدة، فيقول :

أتراهم لـــم يعلمـــوا أن التقـــى أزوادنـــا، وديارنـــا الأجـــداث

١-الصنوبري، الديوان، ص٣٣٢

٢-الشريف الرضي، الديوان، ٢٢٨

وعندما يعزي الخليفة عن ولده، يؤكد أن البكاء لا يُرجع الموتى، فيقول[1] :

أيُرجـــع ميتـــاً رنّـــة وعويـــل ويشـــفى بأســـراب الدمـــوع غليـــلُ

ثم يتحدث عن القبور، وحياة أهلها بعد الموت، ويقف على الصبر طويلاً ثـــم يختمها خاتمة مناسبة بتقبيح الدنيا لأنها غادرة متلونة، ويفعل ذلك أيضا عندما يعـزي صديقاً له عن بنت توفيت له عقب أخرى، فيبدأ قائلاً[2] :

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجـل وننقضـــي وكـــأن العُمـــر لـــم يطُـــل

والعيشُ يؤذننـــا بـــالموت أولـــه ونحن نرغـــب فـــي الأيـــام والـــدّول

يأتي الحِمام فينسى المرءُ منيتـــه وأعضلُ الداء ما يُلـــهي عـــن الأمـــل

ويختمها بوصف الدنيا أيضا وصفاً جميلاً، يبين فيه أن الأمل اللذيـــذ يقودنـــا ويروينا كما يرتوي شارب العسل، لكنه لا يعلم بأن شرابه قاتل ممزوج بالسُّم[3] :

ونستلذُ الأماني ، وهي مُرويـــة كشارب السُّم ممزوجـــاً مـــع العســـل

نؤملُ الخُلـــدَ والأيـــامُ ماضيـــةٌ وبعضُ آمالنـــا ضـــربٌ مـــن الخَطَـــل

ب-في المعاني والأفكار :

حاول الشاعر أن يضفي ثقافته الخاصة وتجربته الشخصية في موضوعـــات شعر الزهد ومعانيه، لأن درجة الوعي الإنساني قد ترقت كثيراً في هذا العصـــر ولا يستطيع الشاعر أن يكون خارج إطار زمنه الذي يعيش، إلا أنه ليس الابتكار الـــذي

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢ /١٩١
٢-المصدر السابق، ٢ /٢١٧
٣-المصدر السابق، ٢/٥٧٩

يمكن اعتباره تجديداً شاملاً وكاملاً، بل هو قالب حضاري لطيف يضم مفردات اللغة العربية ومعجمها، وصورها القديمة، دون إخلال أو تشويه للمعنى .

فقد استحضر الشريف الرضي المعاني التقليدية القديمة عندما وقف على قبر صديقه إبراهيم بن هلال الصابي، فتساءل عن علم صاحب القبر بوقوفهم عليه أم جهله، وبكائهم لكرمه لا لِعظامه البالية، فيقول[1] :

أيعلم قبرٌ بالجنينة أننا ... أقمنا به ننعى النّدى والعواليا

حططنا فحيينا مساعيه إنها ... عِظامُ المساعي لا العِظام البواليا

ووقف على قبر الطائع لله، فسأل القبر عمن ضمهم في جنباته، فلم يجد إلا الصدى، وهو تقليد قديم، لكنه يجيب بنفسه عن سؤاله قائلاً إن هؤلاء الذين مضوا ودفنوا تحت الصعيد إلى يوم المعاد قد أكلتهم الأرض، وهذا تذكير بالأصل الذي خلق البشر منه، فإنهم عائدون إليها وتضمهم إلى يوم الدين[2] :

ولقد مررت ببرزخ فسألته ... أين الأولى ضمتهم أرجاؤه

ناديته فخفي عليّ جوابه ... بالقول إلا ما زقت أصداؤه

أكلتهم الأرض التي ولدتهم ... أكل الضروس حلت له أكلاؤه

ويظهر لنا اختياره للتقاليد القديمة ووقوفه عليها في حديثه عن السقيا وهي عادة تتمثل في الدعاء لقبر الميت بالغيث، لكنه يستعملها بمفهوم جديد جميل[3] :

١- الشريف الرضي، الديوان، ٢ /٥٧٩

٢- المصدر السابق، ١ /٣٣

٣- المصدر السابق، ١ /٣٧٦

وما تجدي الدموع علـــى فقيـد ولـــو غســلت مــن العيــن الســـوادا

ومـــا الســـقيا لتبلغـــه ولكـــن وجــدت لــها علـــى قلبـــي بـــــرادا

وكذلك في قول النوادب للميت: لا تبعد، فإنه يعلم أنها لا تجدي نفعا[1] :

خذ الوقت واعلم بـــأن اللبيـب يـــأخذ مـــن يومـــــه للغـــــد

فما ينفع المـــرء بعـد المنـون قـــول النـــــوادب : لا تبعـــــد

وعندما يعلم كشاجم أن حب النبي صلى الله عليه وسلم فيه الشفاعة، وأن من أحب النبي وآله حشر معهم يقف عند هذا المعنى المطروق، فيقول[2] :

أعـــاذلتي إن بـــرد التقـــى كســانيه حبـــي لأهـــل الكســـاء

ســفينة نــوح فمـــن يعتلـــق بحبـــهم يعتلـــق بالنجـــاء

هلال إلى الرشد عالي الضيـــاء وسيف على الكفـــر مـــاضي المضـــاء

ويجعل الذنوب خيولا تسير بالناس مسرعة نحو الضلال والشرك، يحدوهـــا إبليس ويسوقها ويزجرها، لكنه متيقن أن حبه لآل البيت سوف يسقط عنه ذنوبه :

مطايا الخطايا خدي في الضـــلال فمـــا هـــم إبليـــس غـــير الحـــداء

قضيـــت بحبكـــم مـــا علـــي إذا مـــا دعيـــت لفصـــل القضـــاء

وأيقنـــت أن ذنوبـــي بـــه تســـاقط عنـــي ســـقوط الـــهباء

١-الشريف الرضي، الديوان، ٣٩٤/١

٢-كشاجم، الديوان، ص١٨

وإذا تغنى الشعراء بالسِّماك، فإن أبا فراس يؤكد لنا أن المرشد هو الله، فإن تركك لنفسك فسوف تضل ضلالاً بعيداً، ولو اعتمدت على أحسن دليل في الدنيا[1] :

وإن هولم يرشدك في كل مسلك ضللت، ولو أن السماك دليل

ثم لا يجد أملاً إلا بعفو الله، ولا يجد عملاً نافعاً إلا ما قدمه من صالح مضى وانتهى، أما عند الموت فلا ينفع الندم، فيختصر الأمر في بيت واحد فقط[2] :

فلا أملٌ غير عفو الإله ولا عملٌ غير ما قد مضى

ثالثاً: <u>التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف</u>

حفلت أشعار الزهد بالمعاني القرآنية لفظاً ومعنى، واقتبس الشعراء من الحديث النبوي الشريف وأقوال السلف الصالح والزاهدين، مما يؤكد أن النبع الذي استقى منه الزهاد هو النبع الصافي الأصيل من الكتاب والسنة .

أ-التأثر بالقرآن الكريم :

وقف الشعراء عند المعاني القرآنية التي تحدثت عن الموت، والتنفير من الدنيا، فهذا أبو فراس الحمداني يحتقر الدنيا في بيت واحد؛ فيقول[3] :

بنو الدنيا إذا ماتوا سواءً ولو عَمَرَ المُعَمّرُ ألف عام

مشيراً لقوله تعالى:﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾[4] .

١-أبو فراس الحمداني، الديوان، ٣١٩/٢
٢-المصدر السابق، ٦/١
٣-المصدر السابق، ٣٧٥/٣
٤-القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٩٦

أما الخليفة القادر فيؤكد أن الموت حق، فيقول[1] :

الموت شيء أنـــت تعلـم أنـــه حـــق وأنـــــت بذكـــــره متـــــهاون

وهذا المعنى يتكرر في كتاب الله كثيراً فيقول سبحانه وتعالى:﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[2] ، ثم يشير الخليفة بعدها إلى أن الموت لا يستأذن، فإن لكل إنسان أجـــلاً محدداً لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، فيقول :

إن المنية لا تؤامر مـــن أتـــت فـــي نفســـــه يومـــاً ولا تســـتأذن

مستعيناً بقوله تعالى :﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلـــها، والله خبـــير بـــما تعملون﴾[3]، وقوله تعالى :﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾[4] .

وعندما نسمع الرضي يتحدث عن الموت قائلاً[5] :

وما يعلم الإنسان في أي جـــانب من الأرض يأوي منه في التُّربِ جـلنبُ

نستذكر كلامه تعالى في بيان علمه وقدرته سبحانه:" وما تدري نفـــس مـــاذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير"[6] .

والموت حق لا يهرب منه أحد من الخلق، من إنسان، أو حيوان[7] :

ولا في مهاوي الأرض إن رُمت مهبطاً ولا في مراقي الجو إن رُمت مُرتقـى

ولا الحوت إن شـــق البحـــار بفـــائت ولا الطّير إن مَـــدَّ الجنـــاح وحلقـــا

١- ابن الأثير، الكامل، ٨ /١٩٩

٢- سورة البقرة، آية ١٨٥، والأنبياء، آية ٣٥ ، والعنكبوت، آية ٥٧

٣- سورة المنافقون، آية ١١

٤- سورة البقرة، آية ١٤٥

٥- الشريف الرضي، الديوان، ١ /١٤٣

٦- سورة لقمان، آية ٣٤

٧- الشريف الرضي، الديوان، ٢ /٧١

وهذا موجود في كتاب الله في أماكن متعددة، ومنها قوله تعالى:﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾[1]، وقوله تعالى:﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[2]، أما الإشارة إلى الإعجاز البشري في الارتقاء إلى أعالي السماء أو الهبوط إلى جوف الأرض، فإن الله عز وجل قد حدث نبيه عندما كذبوه أن لا يحزن لكفرهم فهذا بمشيئة الله، وقال له :" وإن كان كبُر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين"[3] .

أما وصف الدنيا بأنها دار الغرور في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[4]، فقد تكرر لدى الشعراء، ومنهم الصوري، حيث يقول[5] :

وهي دار الغرور قصر باللو م فيها تطاول العشاق

ويشير الرضي إلى نهاية الإنسان التي يصير إليها عند الموت، فهو يعود تراباً كما خلقه الله أول مرة، فلماذا يتكبر على الله عز وجلّ[6] :

أرى المرء يفعل فعل الحديد وهو غداً حمأ لازبُ

فهذا الحمأ هو الطين، وهو لازب: أي متماسك ملتصق بعضُه ببعض التصاقاً

١-سورة النساء، آية ٧٨
٢-سورة الجمعة، آية ٨
٣-سورة الأنعام، آية ٣٥
٤-سورة آل عمران، آية ١٨٥، والحديد، آية ٢٠
٥-الصوري، الديوان، ص٣٠٩
٦-الشريف الرضي، الديوان،١/١٣٩

شديدا، وقد وردت في كتاب الله في معرض الإنكار على كفار قريش أن يظنوا أنفسهم أشد خلقا من خلق السماوات والأرض والأجرام الأولى، فيقول تعالى:

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا، إنا خلقناهم من طين لازب ﴾[1] .

ويتحدث كشاجم عن ظلال النعيم في الجنة، وعن ظلل الجحيم في النار، ويؤكد أن الله عز وجل يعلم أصحاب هذه وأصحاب تلك[2] :

فيعلم من في ظلال النعيم ومن في الجحيم عليه ظلل

فهو ينظر قوله تعالى في وصف أهل الجنة:﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾[3]، وقوله تعالى في وصف أهل النار:﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، ذلك يخوف الله به عباده، يا عباد فاتقون ﴾[4] .

أما يوم البعث، وبعدما ينسف الله الجبال فيذرها قاعا صفصفا، ويعرض الخلق عليه فإنهم لا يناجون إلا بالهمس خوفا ورعبا، يقول الصولي في ذلك[5] :

تخشع أصواتهم خيفة فلا تناجي بسوى الهمس

وهذا الخشوع، والصوت الخفي الخافت تذكره الآية الكريمة في وصف أهوال ذلك اليوم، قال تعالى:﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾[6].

وعندها فحساب بلا عمل، كما يقول أبو فراس[7] :

١-القرآن الكريم، سورة الصافات، آية رقم١١
٢-كشاجم، الديوان، ص٤٢٤
٣-القرآن الكريم، سورة يس، آية ٥٦، وقوله تعالى:" إن المتقين في ظلال وعيون"، المرسلات، آية ٤١
٤-سورة الزمر، آية ١٦
٥-الصولي، ص٧٤
٦-القرآن الكريم، سورة طه، آية ١٠٨
٧-أبو فراس، الديوان، ٦/١

فـــلا أمـــل غـــير عفـــــو الإلـــــه ولا عمل غـــــير مـــا قـــد مضـــى

فـــإن كـــان خـــيرا فخـــيرا تـــــرى وإن كـــان شـــرا فشـــرا تـــــــرى

وهو بذلك لا يبتعد عن قوله تعالى:﴿ يومئذ يصـــــدر النـــاس أشـــتاتا لـــيروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[1].

ونقف عند بيت للرضي يمثل كل شطر منه آية قرآنية حيث يقول[2] :

إنـــا إلـــــى الله وانـــــا لـــــه وحســـــبنا الله ونعـــــــم الوكيـــــــل

فهما قولان يقولهما المؤمن الصابر عند المصيبة، أو عنـــد التخويـــف مـــن الناس، أما الأول فيقول تعالى:﴿ وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[3]، وأما الثانية فيقول تعالى:﴿ الذين قال لهم الناس إن النـــاس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[4]، فإنه بذلـــك يتمنى النتيجة التي نص عليها التعقيب الرباني بعد كل من الآيتين بأن من كانت هـذه صفتهم فعليهم صلوات الله ورحمته، وهم المهتدون حقا .

<u>ب- التأثر بالحديث الشريف :</u>

يواجهنا الصوري بحديث نبوي يناسب القصيدة التي يمدح فيها آل البيت[5] :

وأشهر ما يروونه عنـــه قولـــه تركـــت كتـــاب الله فيكـــم وعـــــترتي

١-القرآن الكريم، سورة الزلزلة، الآيات ٦، ٧، ٨
٢-الشريف الرضي، الديوان، ٢/٢٢٠
٣-سورة البقرة، آية رقم١٥٦
٤-سورة آل عمران، آية رقم١٧٣
٥-الصوري، الديوان، ص٧٥

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:" قال رسول الله صلى الله :" إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"[1] .

أما الدنيا فعندما وقف الرضي بالحيرة وتذكر أهلها؛ رثاهم فقال فيهم[2] :

لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخه ثم سارا

ففي حديث ابن عمر قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور"[3] .

وعن عبدالله بن مسعود قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء! فقال :"مالي وللدنيا ؟ ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[4] .

أما حول طول الأمل فعن أنس أن النبي عليه السلام خط خطوطا فقال:" هذا الأمل، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب"[5]، فيقول الرضي[6] :

ونستلذ الأماني وهي مروية كشارب السم ممزوجا مع العسل

نؤمل الخلد والأيام ماضية وبعض آمالنا ضرب من الخطل

١-الترمذي، ٤١٤/٥
٢-الشريف الرضي، الديوان، ١ /٥١٠
٣- الترمذي، ١٤٩/٤
٤-المصدر السابق، ١٧٦/٤
٥-ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١١/١٣
٦-الشريف الرضي، الديوان، ٢١٩/٢

ويرى الرضي القلب مضغة، ولكنها ذات تأثير كبير على الإنسان، فيقول[1] :

ألا إن قلب الفتى مضغة تضر ولكنها تنفع

وقد تحدث الرسول عليه السلام فيما يرويه النعمان بن بشيرعن ذلك حديثه المشهور في باب الورع وترك الشهوات، عندما فصل الحلال والحرام، ثم قال في نهايته" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي القلب"[2] .

وتحدث الإمام علي عن الدنيا فشغل حديثه فكر الناس جميعا، فقال الرضي[3]:

خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعي إني أراك كثيرة الأزواج

وعندما سمع أن عليا طلقها ثلاثا يتابعه في ذلك أيضا فيقول[4] :

مالي إلى الدنيا الغرورة حاجة فليخز ساحر كيدها النفاث

طلقتها ألفا لأحسم داءها وطلاق من عزم الطلاق ثلاث

فهي تصديق لعبارة الإمام علي المشهورة، عندما كان يقوم في المحراب ليلا، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: " يا دنيا، يا دنيا، إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت، لا حان حينك، هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد"[5].

١-الشريف الرضي، الديوان، ٦٧٣/١
٢-الترمذي، ٢٤/١١
٣-الشريف الرضي، ٢٣٩/١
٤-المصدر السابق، ٢٢٨/١
٥-تهج البلاغة، ١٧/٤

رابعا: الألفاظ والأساليب والصورة الشعرية

تميزت المقطوعات الزهدية المنفصلة لهذا الغرض وحده، أو من خلال الأبيات المبعثرة بين القصائد الطويلة في الموضوعات المختلفة؛ بعدد من المظاهر المشتركة، والتي يمكن دراستها من خلال بساطة اللغة والألفاظ ووضوحها، واستخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، وفي ألوان البديع من جناس وطباق وحسن تقسيم، أو في الصورة الشعرية بألوانها المتعددة .

أ-بساطة اللغة والألفاظ :

وهي ظاهرة تلازم شعر الزهد منذ نشأته، ذلك أن هذا اللون من الشعر تتطلب طبيعته هذه السهولة والبساطة ، فهو ليس لفئة خاصة من الناس كالأمراء والأدباء والشعراء، وإنما هو شعر يريد الوصول إلى الناس جميعا، وحتى يفهمه الناس على اختلاف بيئاتهم وأفكارهم وطبقاتهم؛ كان لا بد من استخدام الألفاظ السهلة المأنوسة، والتراكيب الواضحة.

فنجد المتنبي أشعر شعراء العربية عندما دخل باب الزهد ليتحدث فيه على عادة الشعراء في اثبات قدرتهم الفنية للقول في المواضيع كافة، جاءت ألفاظه مأنوسة سهلة واضحة، لا تحتاج -على الأغلب- لسان العرب أو تاج العروس لاستيضاح معانيها.

فللمتنبي أبيات في الوعظ والموت، وهي جزء من قصيدة مدح مطلعها[1] :

١- المتنبي، الديوان، ٣/٧٣

أرق على أرق ومثلـــي يـــأرق وجـــوى يزيـــد وعـــــبرة تـــــترقرق

ثم انتقل إلى الوعظ وذكر الموت، مع أن" هذا يستحسن في المراثـــي لا فـــي المديح"[٢]، إلا أننا نفهمها منه محاولة للقول في الزهد وإثبات مقدرته، حيث يقول[٣] :

أبني أبينـــــا نحـــن أهـــل منـــازل أبـــدا غـــراب البيـــن فيـــها ينعـــق

نبكي على الدنيا وما مـــن معشـــر جمعتـــهم الدنيـــا فلـــم يتفرقـــــوا

أيـــن الأكاســـرة الجبـــابرة الألـــى كنزوا الكنوز فما بقيـــــن ولا بقـــوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشـــــه حتى ثـــــوى فحـــواه لحـــد ضيـــق

خرس إذا نودوا كأن لـــــم يعلمـــوا أن الكـــلام لـــهم حـــلال مطلـــــق

والمـــوت آت والنفـــوس نفـــــائس والمســـتغر بمـــا لديـــه الأحمـــــق

والمـــرء يـــأمل والحيـــاة شـــــهية والشـــيب أوقـــر والشـــبيبة أنـــزق

ولقد بكيت على الشـــــباب ولمتـــي مســـودة ولمـــاء وجـــهي رونـــــق

حـــذرا عليـــه قبـــل يـــوم فراقـــه حتى لكدت بمـــــاء جفنـــي أشـــرق

فهي تجري على نحو واضح من البساطة والسهولة دون تكلـــف أو تصنـــع، ويطوف بنا مع الدنيا، والموت، وذهاب السابقين، ونهايتهم جميعا إلـــى القـــبر، ثـــم يقارن بين الشيب والشباب، فنلاحظ جمال الألفاظ التي اختارها، مع حسن السبك فـــي تركيب عباراتها دون غموض أو تعقيد .

١- المتنبي، الديوان، ٣/ ٧٥ هامش الصفحة
٢- المصدر السابق، ٣/٧٥

ولنا أن نقف له على أبيات متفرقة قالها في مواقف مختلفة فنجد معاني الزهد رقيقة لطيفة، فهو في المديح مثلا يشير إلى الدنيا، فيقول[1] :

لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

وفي قصيدة مدح أخرى يقول عن المال والفقر[2] :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليس لنا أن نفسرها ونوضحها بعبارات أخرى وإلا ذهب رونقها وجمالها، "يقول العكبري: وهذا البيت من أحسن الكلام وبديعه، وهو من كلام الحكمة"[3] ، ويشير إلى أقوال بعض الحكماء في معناه ومنها قول لقمان الحكيم:" من دافع الفقر بالذل قبل الفقر فقد تعجل الفقر"[4] .

وإذ ينتهي المتنبي من رثاء ابن إسحق التنوخي في قصيدته التي مطلعها[5] :

إني لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وإن حرصت غرور

يستزيده بنو عم الميت فيرتجل قصيدة جديدة على بحرها وقافيتها، وفيها أبيات جميلة منها قوله[6] :

يبكى عليه وما استقر قراره في اللحد حتى صافحته الحور

صبرا بني إسحق عنه تكرما إن العظيم على العظيم صبور

١-المتنبي، الديوان، ٣٠٤/١
٢-المصدر السابق، ٢٥٥/٢
٣-المصدر السابق، ٢٥٥/٢ الهامش
٤-المصدر السابق، ٢٥٦/٢ الهامش
٥-المصدر السابق، ٢٣١/٢
٦-المصدر السابق، ٢٣٥/٢

فـأعيذ إخوتـه بـرب محمـد أن يحزنـوا ومحمـد مسـرور

أو يرغبوا بقصورهم عن حفـرة حيـاه فيـها منكـر ونكـير

أما الشريف الرضي فيترك الدنيا ويبغي النجاة غدا، فيقول في الزهد[1] :

تـرك الدنيـا لطالبـها ورضـي بـالدون مقتصـدا

نـافرا منـها فليـس يـرى بالأمـاني آنسـا أبـدا

بعـد أن نـال العـلاء ومـا زال ينمـي جـده صعـدا

نفـض الأطمـاع عـن يـده واسـتخار الواحـد الأحـدا

ورأى أن لا نجـاة لـه فمضـى يبغـي النجـاة غـدا

فهذا الفتى الذي يتحدث الشاعر على لسانه، يود أن يخبرنا بما يجـول فـي خاطره، وعن آرائه في الدنيا وأطماعها وآمالها الخادعة، وكيف نفضها جميعا مـن يده متوجها للواحد الأحد سبحانه وتعالى، يلتمس منه العون والعفو والمغفرة، وعندها ترك الدنيا وعمل جاهدا لينجو في الآخرة .

وتلطف الألفاظ والعبارات كثيرا عندما يتوجه الشاعر لله ، فـهو يشـكر الله على ما تيسر له من أداء الحج فيقول[2] :

يا ذا المعارج كم سألتك نعمـة فمنحتنيـها بـالذنوب الأوفـر

أي العوارف منك أشكر فضلـه عجـز المقـل وزاد طـول المكـثر

١-الشريف الرضي، ١ /٣٨٦

٢-المصدر السابق، ١/٤٧٩

ويناجي أبو المجد محمد بن عبدالله ربه، في مقطوعة يقول فيها[1] :

كـــرم المـــهيمن منتـــهى أملـــي لا نيتـــي أرجـــو ولا عملـــي

يـــا مفضـــلا جلـــت فواضلـــه عـــن بغيتـــي حتـــى انتـــهى أجلـــي

كم قد أفضـــت علـــي مـــن نعـــم كم قـــد ســـترت علـــي مـــن زلـــل

إن لم يكن لـــي مـــا ألـــوذ بـــه يـــوم الحســـاب فـــإن عفـــوك لـــي

ويوجه كشاجم الناس جميعا أن يعتصموا بحبل الله سبحانه وتعالى، ويرشـدهم إلى أن يسألوه وحده ويطلبوه، فإنهم سيجدون عنده ما يرجونه، أما الذي يسأل النـاس فإنهم سيغضبون منه، وعلى العكس من ذلك فإن الخالق سبحانه يغضب من خلقه إن لم يسألوه، وذلك في بيتين ألفاظهما سهلة واضحة[2] :

لا تسأل الناس شيئا واغد معتصمـا بـــالله تلـــق الـــذي أملـــت مـــن أمـــل

فالنـــاس تغضبـــهم إمـــا ســـألتهم والله تغضبـــه إن أنـــت لـــم تســـل

وهذا المعنى موجود في القرآن الكريم، فيقول تعالى:﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾[3] .

ولعلنا نلاحظ البعد عن الغريب، أو الكلمات المعقدة، مما يؤكد حرصهم علـى استخدام الألفاظ القريبة من العقل والقلب، وصياغتها في تراكيب بسيطة، خفيفة على الأسماع، قريبة من أفهام الناس، مؤثرة في قلوبهم ونفوسهم حتى يستجيبوا لها.

١-العماد الأصفهاني، ٦/١

٢-كشاجم، الديوان، ص٤١٠

٣-القرآن الكريم، سورة البقرة، آية رقم ١٨٦

ويحرصون كذلك على أن يتناقلها الخطباء والوعاظ، ويتغنى بـــها الصغـــار والكبار، وتضرب مثلا في المواقف المناسبة لها، ويمكن إمعان النظر مرة أخـــرى في بيتين للببغاء سبق الإشارة إليهما، فهما يضربان مثلا دائما في حال الدنيا، حيـــث يقول[1] :

هـــي الدنيـــا تقـــول بمـــلء فيـــها حذار حـــذار مـــن بطشـــي وفتكـــي

ولا يغرركـــم حســـن ابتســـــامي فقولـــي مضحـــك والفعـــل مبكـــي

وهذا يعيدنا إلى قول الله عز وجل:" اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يـــهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضـــوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"[2] .

ب-استخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار :

وهي أيضا من الظواهر التي تلازم شعر الزهد، ذلك أن الشاعر يقترب مـــن الناس، ويخاطب قلوبهم، ويبحث عن أساليب التأثير المباشر في نفوسهم وعقولـــهم، فيستخدم أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار بكـــثرة، ونجدهـــا منفـــردة أو مجتمعة في المقطوعة الواحدة أو البيت الواحد أحيانا دون استثناء .

فهذا أبو فراس الحمداني يستخدم السؤال والتكرار في بيتين معا، فيقول[3] :

١-الببغاء، الديوان، ص١٢٩

٢-القرآن الكريم، سورة الحديد، آية رقم ٢٠

٣-أبو فراس، الديوان، ٣٢/١

وهل يدفع الانسان ما هـــو واقـــع وهل يعلم الانسان مـــا هـــو كاســـب

وهل لقضاء الله في الناس غـــالب وهل من قضاء الله في الناس هـــارب

ويكرر النداء لابنته في المقطوعة التي يرثي نفسه فيها فيقول لها[1] :

أبنيتـــــــي لا تحزنـــــــــي كـــــل الأنـــــام إلـــــى ذهـــــاب

أبنيتـــــي صـــــبرا جميـــــــــ ـــــلا للجليـــل مـــــن المصـــــاب

ويتعجب من حب الناس للدنيا والخلود فيها، مع أن الخلود مستحيل[2] :

هيهات ! ما في الناس من خـــالد لا بـــد مـــن فقـــد ومـــــن فـــاقد

وفي خطابه لنفسه وقلبه ، يقول[3] :

أيـــا قلبـــي، أمـــــا تخشـــع ؟ ويـــا علمـــي أمـــا تنفـــع ؟

أمـــا شـــــيعت أمثـــالي إلـــى ضيـــق مـــن المضجـــع ؟

أمـــا أعلـــم أن لا بـــــ ـــد لـــي مـــن ذلـــك المصـــرع !

أيـــا غوثـــاه، باللـــــ ـــه هـــذا الأمـــر مـــا أفظـــع !

فيكرر السؤال، ويخاطب القلب كي يخشع، والنفس لكي تستفيد مـــن علمـــها وتجاربها في الدنيا وما تصنعه بأهلها، ثم يتعجب من حاله لماذا لا ينتفع بمن ســـبقه من أهله إلى القبر، فهو يعلم أنه سيسير إلى ذلك المضجع الضيق مثلهم، ثم يســتغيث بالله من هول التفكير بهذا الأمر وشدته.

١-أبو فراس، الديوان ٤٧/١

٢-المصدر السابق، ٧١/١

٣-المصدر السابق، ٢٥٥/٢

واستخدم التكرار في ندائه لأمه، وهو يوصيها بالصبر الجميل، فقال[1] :

فيا أمتا لا تعدمـــي الصـــبر إنـــه إلى الخير والنجح القريـــب رســـول

فيا أمتا لا تخطئـــي الأجـــر إنـــه على قدر الصـــبر الجميـــل جزيـــل

فنجد بساطة الألفاظ والتراكيب تكاد تصل إلى الخطاب النثري لسهولتها لأننـــا نعلم طبيعة المشاعر التي تملكت الشاعر في هذه اللحظات التي نادى فيـــها والدتـــه وخاطبها، ثم نستشعر الصدق في الوصية لأنها جاءت في حال الأســـر والضعـــف، ولكونها خطاب لوالدته وليست لأحد غيرها من البشر، وهذا مفهوم من خصوصيـــة العلاقة بين الأم وولدها، وجاءت أساليب النـــداء والتعجـــب لتؤكـــد هـــذا المعنـــى وتوضحه، وهي كثيرة في شعر أبي فراس، وخاصة في أبياته ومقطوعاته الزهدية .

وينادي كشاجم مستغربا ومتعجبا ممن يغطي شيبه، ويقسم أنه تكلـــف زائـــد تكشفه حوادث الأيام سريعا[2] :

يا خاضب الشيب والأيام تظـــهره هـــذا شـــباب لعمـــر الله مصنـــوع

وفي نفس الموضوع يستخدم التكرار ايضا[3] :

وبان مني شباب كان يشـــفع لـــي سقيا له من قرين بـــان ســـقيا لـــه

ويكثر الصنوبري من هذه الأساليب، ويتساءل عمن ذهبوا، ويكرر ذلك فـــي البيت الواحد والقصيدة الواحدة، فهو يقول[4] :

١-أبو فراس، الديوان، ٣١٢/٢

٢-كشاجم، ص٣٣٦

٣-المصدر السابق، ص٣٩٥

٤-الصنوبري، الديوان، ص١٦٥

وإلا فـــأين الأنبيـــاء محمـــــد وعيسى وموسى قبله وأخـــو موســـى

وأين سليمان بن داوود وأيـــن مـــن حوت عرش بلقيـــس يـــداه وبلقيســـا

أصابت سهام الموت هودا وصالحـــا ولوطا ونوحا قد أصـــــابت وإدريســـا

فيكرر الاستفهام عدة مرات، ويؤكد كلمة "أصابت" بقوله: قد أصابت، وهـــو يكثر من هذه الطريقة مخاطبا الانسان، طالبا منه أن ينظر للســـابقين، وأن يحســـن النظر فيكرر كلمة "أبصرت" أربع مرات في ثلاثة أبيات، فيقول[1] :

أما أبصرت قوما قـــط مـــاتوا علـــى مـــر الســـنين أو الشـــــهور ؟

فأبصرت العظـــام بـــلا جلـــود وأبصـــرت الجلـــود بـــــلا شـــعور

بلى أبصرتـــــهم أيضـــا ترابـــا تجـــول بـــه القبـــول مـــع الدبـــور !

ونلاحظ الاستفهام الذي يستمر في البيتين الأول والثاني، ثم الاجابة في الثالث مقرونة بالدهشة والتعجب، لكنها دهشة المؤمن بما يقول وليس المتحير، وهي دهشـــة من حال الناس الذين لا يعتبرون بما يرونه أمامهم من عبر وعظات .

وهذا أسلوب من أساليب الزهد، لذلك نجده أيضا لدى الشريف الرضي، فـــهو يتساءل عن السابقين فيقول[2] :

أين المقاول والغطارفـــــة الألـــى هجروا الديـــار، وعطلـــوا الأفنـــاء

فاخلط بصوتك كل صوت واستمع هل في المنازل من يجيـــب دعـــاء

١-الصنوبري، الديوان، ص٨٥

٢-الشريف الرضي، ٢٢/١

وينادي من أمن الأقدار مستغربا، فيقول[1] :

يا آمن الأقــدار بــادر صرفــها واعلــم بــأن الطــالبين حثــــاث

وفي آخرها يتعجب ممن يمسك بحبال الدنيا البالية ، قائلا:

إني لأعجب من رجال أمســكوا بحبــائل الدنيــا، وهــن رثــــاث

وهذا الأسلوب يستدعي التفكر من القائل والسامع على السواء، وهي دعـــوة للتفكر الإيجابي بالتوجه للعمل الصالح، وليست دعوة سلبية تودي بصاحبها للحـــيرة والهم والقلق، ثم التكاسل والقعود، فهو يقول متسائلا[2] :

أليس إلى الآجــال نــهوي، وخلفنــا من الموت حاد لا يغــب عجــول ؟

وهل نال في العيش الفتى فوق عمــره وهل بل من داء الحمــام غليــل ؟

ثم يختمها مقبحا الدنيا، واصفا إياها بالغدر في كل حين، وهي إشارة تكثر في شعره، ففي قصيدة له عنوانها: أترجو الخلد في دار الفناء، قالها يزهد فـــي العيــش ويذم الزمان وأهله، نجده في بدايتها يخاطب الإنسان، ويطالبه بالتمهل في ميله للدنيـا الغادرة، فيقول[3] :

رويدك لا يغـــرك كيــد دنيــا هــي المرنــان مصميـــة الرمايــا

فــإنك ســالك منــها طريقــا تقطـــع فيـــه أرقـــاب المطايــا

أترجو الخلد فـــي دار التفــاني وأمن الســرب فــي خطــط البلايــا ؟

١-الشريف الرضي، ٢٢٨/١
٢-المصدر السابق، ١٩٢/٢
٣-المصدر السابق، ٥٧٧/٢

وتغلق دون ريب الدهـــر بابـــا كـــأنك آمـــــن قـــرع الرزايـــا ؟

ولا يترك الأمر هكذا، بل يؤكد بعدها أن الموت حتم لازم لكل إنسان علـــى وجه الأرض، ويشبه ذلك بلزوم العهد لبني آدم، فيتابع قوله:

وإن المـــوت لازمـــة قـــراه لـــزوم العـــهد أعنـــاق البرايـــا

وهذا اقتراب حقيقي من الناس جميعا، لأنه ينظر في ذلك قول الله عز وجل : " إنما يتذكر أولوا الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق" [1].

وعهد الله عز وجل عهدان هما عهد الإيمان به المأخوذ على الذرية وهي فـي ظهور بني آدم قديما، وعهد جديد مع الرسل الذين بعثهم الله ليجددوا عـهد الإيمـان ويذكروا به ويفصلوه[2] .

ج-استخدام ألوان البديع :

لم يغفل الشعراء في القرن الرابع ألوان البديع المختلفة، لأنـها تسـاعد فـي إحداث الموسيقى الداخلية المؤثرة، وقد فعل ذلك شعراء الزهد، فاستخدموا الجنـاس والطباق وحسن التقسيم، واعتمدوا العبارات القصيرة المتوازنة، لأنـهم يعلمـون أن شعر الزهد ينبغي أن يكون قريبا من الشعر الغنائي، يسهل تناقله وتداوله، ويتمكـن من حفظه الناس جميعا على اختلاف درجاتهم .

إلا أننا لا نجد إفراطا شديدا في هذا اللون من البلاغة، فقد جاءت دون تكلف، جميلة في مواقعها ومعانيها، حتى لا تفسد الغاية التي أنشئ لأجلها هذا الشعر .

١-القرآن الكريم، سورة الرعد، الآيتان ١٩، ٢٠

٢-سيد قطب، في ظلال القرآن، م٤، ٢٠٥٧/١٣

يقول أبو فراس مطابقا بين صغير وكبير، وأول وأخير[1]

هـل تـرى النعمـة دامـت لصغـير أو كبـير

أو تـرى أمريـن جـاءا أولا مثـل أخـير

ويستخدم الجناس الاشتقاقي في (أريد ، تريد ، الإرادة) ، قائلا[2] :

دع مـا أريـد ومـا تريـد فـإن لله الإرادة

ونجد لديه حسن التقسيم في قوله[3] :

الدهر يومان : ذا ثبت وذا زلـل والعيش طعمان : ذا صاب وذا عسـل

مع وجود طباقي إيجاب الأول بين ثبت وزلل والثاني بين صاب وعسل.

وكذلك المقابلة بين شطرين مع الطباق بين الخير والشر في قوله[4] :

فإن كان خـيرا فخـيرا تنـال وإن كـان شـرا فشـرا تـرى

ومقابلة أخرى يستخدم فيها الترصيع، والطباق بين مؤجل ومعجل، فيقول[5] :

فمؤجل يلقى الردى فـي أهلـه ومعجـل يلقـى الـردى فـي نفسـه

ويستخدم كشاجم حسن التقسيم مع الترصيع في قوله[6] :

أمـر عيـش وحـال خفـض وحـل هـم وبـان غمـض

وفيها جناس ناقص بين حال وحل، وطباق بين حل وبان .

١-أبو فراس، الديوان، ٢/٢٠٤
٢-المصدر السابق، ١/٧٤
٣-المصدر السابق، ٢/٢٩٩
٤-المصدر السابق، ١/٦
٥-المصدر السابق، ٢/٢٣٣
٦-كشاجم، الديوان، ص٣٠٤

ويستخدم الصنوبري ألوان البديع بإفراط، ولعل إعجابه الشديد بالطبيعة، وميله للوصف أمليا عليه ذلك في سائر شعره، فهو يكثر من الجناس الاشتقاقي في شعره غالبا، ومنه قوله[1] :

وكم لك من أخ قد سار أو من أخ سيسير عنك على سرير

فهو يجانس بين ثلاث كلمات هي (سار، ويسير، وسرير)، ولا نجد فيها تكلفا، وإنما هي تساعد في ايجاد الموسيقى الداخلية .

ونجد الشريف الرضي يستخدم هذه الأساليب جميعا، فهو يأتي بالجناس الاشتقاقي بين (باك ويبكى)، وبين (الثاكل والمثكول)، في قوله[2] :

كل باك يبكى عليه، وإن طا ل بقاء والثاكل المثكول

واستخدم الطباق بأنواعه أيضا، ففي دعوته لترك اليأس يطابق بين الخوف والأمان، وبين اليأس والرجاء، وكلاهما طباق إيجاب، حيث يقول[3] :

لا تيأسن فربما عظم البلاء وفرجا

قد ينسخ الخوف الأما ن ويغلب اليأس الرجا

أما طباق السلب فهو يستخدمه بين يرحم ولا يرحم في قوله[4] :

أشكو الذي يرحمني إلى الذي لا يرحم

ونجد حسن التقسيم في قوله محذرا من الدنيا[5] :

١-الصنوبري، الديوان،ص٨٥
٢-الشريف الرضي، ١٨٧/٢
٣-المصدر السابق، ٢٣٩/١
٤-المصدر السابق، ٣٢٥/٢
٥-المصدر السابق، ٢٢٨/١

سكناتها محـــذورة ، وعـــهودها منقوضـــــة، وحبالـــــها أنكـــــــاث

أم ألمصائب لا يـــزال يروعنـــا منـــها ذكـــــور نوائـــــب وإنـــــاث

ونجد فيها كذلك طباقا بين ذكور وإناث، وجناسا ناقصا بين مصائب ونوائب.

فهذا بعض ما يمكن الإشارة إليه من جوانب البديع التـــي أغنـــت الموســـيقى الداخلية لهذا الشعر، تضاف إلى ما سبق من بساطة الألفاظ وبراعة التراكيب، جعلت هذا الشعر سهل الحفظ، سائرا بين الناس حتى عصرنا هذا .

د-الصورة الشعرية :

ظهرت قدرة الشعراء واضحة في أداء الصورة وإبرازها، واستخدموا لذلـــك أدوات التصوير المختلفة، وقاموا بتجســـيم الصـــورة وتجســـيدها معتمديـــن علـــى التشبيهات والاستعارات بأنواعها، فجاءت هذه الصور مليئـــة بالحركـــة والحيويـــة، تحتوي الكثير من الإشارات اللطيفة والدلالات الواسعة الجميلة التي أغنت صورهـــم وجعلتها تنطق بالحياة ودقة الوصف، مع أنها لم تبتعد كثيرا عن الصور المعـــــهودة والمتعارف عليها لدى الشعراء السابقين، إلا أن دقة الوصف اجتمعـــت مـــع رقـــة الألفاظ وسهولتها، واستخدام الأوزان الرشيقة اللطيفة ليقدم لنا هذا العصر مجموعـــة من المقطوعات الغنائية الرشيقة، والأبيات الشعرية المعبرة الموحية والمؤثـــرة فـــي النفس والعقل، فيسهل نقلها وحفظها وتداولها .

ولتوضيح هذه الصور، نستجلي جوانبها من خلال صورة الموت، وصـــــورة الدنيا لتعلقهما وارتباطهما الشديد بموضوع الزهد، ثم صورة القبر، تمثيلا لذلك.

١-صورة الموت :

استخدم الشعراء التشبيهات والاستعارات لتشخيص الموت، وركـــزوا علـــى الاستعارة المكنية كثيرا، ليؤكدوا حتمية الموت، وأنه النهاية لكل حـــي علـــى وجـــه الأرض، فيقول الصنوبري[١] :

من ذا بأنياب الردى لـــم يفـــترس أم من بمخلب صرفـــه لـــم يعصـــر

فهناك استعارتان مكنيتان، تم من خلالهما تجسيم الموت وتشـــبيهه بـــالحيوان المفترس الذي لا ينجو من بين يديه أحد، فجاءت الأولى لتجعل له مخالب قاســـية إذا أمسكت فريستها فإنها لا تفلتها حتى تنتهي منها، وهذا أبلغ في تأكيد حرص المـــوت على أخذ فريسته من البشر .

ويصور الشريف الرضي قدرة الموت على الوصول لجميع النـــاس، ولذلـــك يكرر التشبيه فيجعله مرة رمحا ثم يجعله مرة أخرى سهما، أما الرمح فإنـــه يســـدد نحو الإنسان القريب، وأما السهم فإنه يصوب نحو الإنسان البعيد، فلا يخطئ أحدهما رميته وإنما تكون الإصابة دقيقة، فلا مهرب ولا منجى من الموت عندما تأتي ساعة الإنسان وأجله، فيقول[٢] :

أراه ســـنانا للقريـــــب مســـــددا وسهما إلى النـــــأي البعيـــد مفوقـــا

ولنتخيل هذه السهام، وهذه الرماح المتطايرة في جو السماء فيصل بعضـــــها إلى هدفه، وبعضها يسير ولما يصل بعد، ولكنه لن يخطئ هدفه وإن تأخر قليلا.

١-الصنوبري، ص١٠٠

٢-الشريف الرضي، ص٧١

ويشير الصنوبري أيضا إلى هذا الموت المتحرك على شكل سهام، ويؤكد إصابته للسابقين ويذكر منهم بعض الأنبياء الكرام، فيأتي بالاستعارة المكنية هنا ليجسم لنا الموت قائلا[1] :

أصابت سهام الموت هودا وصالحا ولوطا ونوحا قد أصابت وإدريسا

أما كشاجم فهو لا ينفك يستخدم الاستعارة المكنية مرات عديدة لتوضيح صورة الموت وتأكيد حتميته، فيقول[2] :

ومن يك من أهل هذا الورى فأيدي المنايا له لاقطة

فاستعار الأيدي للموت، وجعلها أيد متحركة تعمل باستمرار، ولكنها لا عمل لها سوى التقاط النفوس، فكلما حان موعد نفس يتم تناولها وأخذها دون إبطاء، ولنا أن نتصور الناس جميعا في صعيد واحد، وهذه الأيدي الغريبة الطويلة تمتد فوق رؤوسهم في أوقات مختلفة، وأماكن متباعدة ومتقاربة، فتلتقطهم واحدا واحدا حسب جدول زمني محدد، ولذلك لن ينجو أحد من هذا الالتقاط .

ثم يجعل للموت عينا لا تنام ولا تغفل عن الأحياء[3] :

وللمنايا عين موكلة بالحي لم تغتمض ولم تنم

فهذه استعارة مكنية يجسم فيها الموت، وله عين يراقب الناس بها، كعين الصقر لا تبتعد عن فريسته حتى تحين الفرصة المناسبة، وهي موعد أجله المحتوم.

١-الصنوبري، الديوان، ص٧١
٢-كشاجم ص٣١٢
٣-كشاجم ص٤٥٣

وفي مكان آخر يستخدم الاستعارة المكنية، قائلا[1] :

وأسـرعت فيـهم المنايـا وسـير خيـل المنايـا ركـض

فيجعل للمنايا خيلا تحمل الناس فتسرع بهم نحو هدف واضح، لا تحيد عنه حتى توصلهم إليه ركضا، ألا وهو النهاية المحتومة لكل حي على وجه الأرض.

ويخاف الصوري الموت، وتأتيه الرسل التي تحذره، وتنبهه؛ وهي رسل الموت التي تمشي، وتذهب للناس فتطرق أبوابهم، فإذا كانوا نائمين فإنها توقظهم، وتحذرهم وتدعوهم للاستعداد لمجيء الموت الذي لن يتأخر عنها كثيرا، فيقول[2] :

وأكـثر مـا تخوفنـي المنايـا وكم قـد جـاءني منـها رسـول

وهذا المعنى لا يفوت الشريف الرضي الذي يقول[3] :

إنمـا المـرء كـالقضيب تـراه يكتسي الأخضر الرطيـب ليعـرى

معكس السهم ذا يـراش ليمضـي في المرامـي وذا يـراش ليـبرى

فحال الإنسان يشبه حال العود الأخضر من الشجر الذي ينمو فيزهرويخضر، ثم يجف وييبس، وهذا كله يماثل صورة السهم الذي يتم إعداده وتجهيزه زمنا لذلك، لكنه يسدد في النهاية فورا نحو مكانه المطلوب، أما الانسان فإنه يجهز ويعد ليبرى، أي الأخذ من جوانبه قليلا قليلا، دلالة للموت البطيء الذي يبدأ بالمشيب والمرض، وكبر السن، وانحناء الظهر، وهي رسل الموت التي ذكرها كشاجم.

١-كشاجم، الديوان، ص٣٠٤

٢-الصوري، الديوان، ص٣٥٣

٣-الشريف الرضي، الديوان، ١/٥٠٠

ولأن الصنوبري يختار الصور القريبة المباشرة، فإنه عندما يسأل صاحبه عمن ماتوا مثله، هل أبصرهم ؟ هل شاهدهم ؟ يقدم له صورتهم، ليؤكد له أنه يراهم باستمرار، فهم تراب يتطاير أمامه صباح مساء؛ فيقول[1] :

بلى أبصرتهم أيضا ترابا تجول به القبول مع الدبور

وهذا تشبيه بليغ، لأنه يرى التراب المتطاير في كل مكان، والذي تتلاعب به الريح فتأتي به أو تذهب به؛ بشرا كانوا على وجه الأرض، ثم ماتوا ودفنوا فتحولوا ترابا أو عادوا إلى أصلهم، وهي صورة جميلة ومخيفة لهذا الكون الذي يتحول بشره إلى تراب متطاير، فلك أن تتخيل ذرات هذا التراب الذي تراه أمام عينيك صباحا ومساء، إنما هو قوم كانوا فزالوا .

وعندما يفكر الشاعر في ابنته التي ماتت، يستخدم التشبيه البليغ أيضا فيجعلها وديعة في يده، فيقول[2] :

وكنت وديعة ثم استردت وليس بمنكر رد الوديعة

فقد حذف الأداة والوجه، وجعلها وديعة من أحكامها أن تكون أمانة ثم تعاد عند الطلب دون تأخير، وقد استخدم التكرار مرتين لكلمة الوديعة، تأكيدا للمعنى، وظهر الجناس الاشتقاقي أيضا في كلمتين هما" رد، واستردت "، ولا نستغرب تكراره لهذا المعنى في مكان آخر، فيقول واعظا نفسه، مستخدما التشبيه البليغ أيضا[3] :

١-الصنوبري ص٨٥
٢-المصدر السابق، ص٢٩٢
٣-المصدر السابق، ص٢٩٢

بنتك يـــا أحمـــد فـــاقل الأســـى وديعـــة فـــي يـــــدك اســـــتودعت

فكيف لا يظـــهر ســـيما الرضـــى عليـــك إذا كـــانت قـــد اســـترجعت

٢-صورة الدنـــيـــا :

تنوعت الأدوات التي استخدمها الشعراء لرسم صورة الدنيا، وأكـــثروا مـــن الحديث عنها، ولذلك ننظر في صورة الدنيا لدى الشريف الرضي تمثيلا لذلك، فـــهو يستخدم التشبيه البليغ في وصفها، فيقول[١] :

وإنمـــا الدنيـــا علـــى طولـــها ثنيـــــة مطلعـــــها المـــــــوت

فهي جملة بليغة بسيطة يحذف فيها الأداة والوجه، ليجعل الدنيا عقبة، والموت في مطلعها، فلا تكاد تدخلها حتى تخرج منها، ويستخدم في نفس المعنى الكناية عـــن صفة القصر للدنيا، فيقول[٢] :

وكأن طول العمر روحة راكـــب قضى اللغـــوب وجـــد فـــي الإســـراء

فطول العمر ليس إلا استراحة المسافر، أراد أن يخفف تعبه وإعيـــاءه، فنـــام ليلا، ثم سرى فجرا، فهي كناية عن صفة القصر للدنيا .

ولما أراد أن يحذر منها، ومن تقلبها كنى عنها بامرأة غانية متقلبة، فيقول[٣] :

لا تـــأمن الدنيـــا عليـــك فإنـــــها ذات البعـــــول تبـــــدل الأبـــــدالا

وفي صورة أخرى يشبهها بامرأة، فيضفي عليها الحياة، ويجسدها قائلا[٤] :

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢١٧/١
٢-المصدر السابق، ٢٧/١
٣-المصدر السابق، ٢ /٢٠٣
٤-المصدر السابق، ٢٣٩/٢

خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعـــي إنـــــي أراك كثـــــيرة الأزواج

فهي استعارة مكنية يصور فيها الدنيا امرأة كثـيرة الأزواج، وتبحـث عـن آخرين أيضا، وهي استثارة أشد وقعا من الوعظ المباشر في البيت الســـابق، لأنـه يجعلها هنا متحركة تأتي إليك، تحاول أن تشغلك وتلهيك، فكيف تجيبها ؟ عليـك أن تحاورها وتدفعها عن نفسك .

ويتعجب من حال المتمسكين بحبها فيقول[1] :

إني لأعجب من رجـال أمسـكوا بحبـائل الدنيـا وهـــن رثـــاث

كنزوا الكنوز وأثقلـوا شـهواتهم فالأرض تشبع والبطـون غـراث[2]

فهو يشبه الدنيا بالعنكبوت، له خيوط يصيد بها فرائسه، ولكنها حبال واهنـة، فالعجب كل العجب ممن يتعلق بها على ضعفها، فيكثر من جمع الأمـوال، ويطلـق للشهوات عنانها ولا يشبع، فإن الأرض على اتساعها تمتلئ بهم، بينما بطن الإنسـان على صغره لا يمتلئ من حب الدنيا وشهواتها .

ولا نستطيع أن نغفل صورة جميلة للدنيا في اليتيمة، يقول فيها أبـو محمـد طاهر البصري[3] :

كأنـها حيـة راقـت منقشـــة ولان ملمســـها والســـم قتـــال

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢٢٩/١

٢-الغرث: أيسر الجوع، وقيل: شدته، وقيل الجوع بعامة، والجمع غراث وغرثى وغراثى، اللسان ١٧٢/٢

٣-الثعالبي، اليتيمة، ٣٠/٥

فهو يجسد المعنوي بمحسوس ملموس، ويجعل الدنيا كالأفعى، لها هيئة ولـون وشكل وملمس، وهذه الأوصاف جميلة لأنها مظاهرها الخارجيـة، فالشـكل جميـل منمق مزركش، والملمس لين لطيف، ولكن المصيبة تكمن في داخلها، ولا يعرفها إلا من ذاقها وهي سمها القاتل، فإن ذاقه ففي ذلك نهايته، لأن الجهلاء لا يعرفـون مـا وراء المظهر من مخبر؛ فعقولهم قاصرة عن النظر في عواقب الأمور .

واستخدم الشريف الرضي التشبيه التمثيلي لتصوير من يثق بالدهر، فيقول[1]:

ومـا واثـق بـالدهر إلا كراقـد على فضل ثوب الظل والظل يسـرع

فإن الإنسان الذي يأمن الدهر ويثق بهذه الدنيا المتقلبة؛ إنما هو يشبه إنسـانا يبحث عن الظل، فيجلس في طرفه، وكلما زحف تابعه، وهكذا حتى يخليه ويذهـب، فاستعار للظل ثوبا حتى يستكمل المعنى ويوضحه، ويكشف فـي الجـانب الآخـر صورة الإنسان يلهث وراء الدنيا راكضا، ولكنه تعب لا فائدة ولا طائل من ورائه .

ويجمع الصنوبري بين الدنيا والآمال فيها، فيقول[2] :

إذا الدهـر للآمـال أبـرز كيـده فقل لبني الآمال هل مـن مبـارز

فهناك حرب ومعركة بل معارك بين الدنيا والآمال، فلن تسـمح لـها الدنيـا بالسير على هواها، ولا تخبرها بنيتها لقطعها والقضاء عليها، ولذلك فليس للآمـال قوة أو قدرة على رد الفعل أو الرفض، وهذا هو حال صاحبها أمام الدنيـا، فـهناك مجاز عقلي تم فيه إسناد الفعل لغير فاعله فإن الدهر لا يكيد أحدا، أما السؤال فـي

١-الشريف الرضي، الديوان، ٢/ ٦٦٧

٢-الصنوبري، الديوان، ص١٢٩

الشطر الثاني بقوله: هل من مبارز ؟ فهي كناية لطيفة عن عجـــز المقــاوم وهــو الإنسان صاحب الآمال والأماني الطويلة العريضة .

٣-صورة القــبــر :

يكني أبو فراس عن موصوف هو القبر، واصفا ضيقه، وواصفا إياه طريقا لا بد منه ، فيقول[١] :

أمـــا حقـــي بـــان أنظـــــ ـــر للدنيـا، ومـــا تصنـــع ؟

أمـــا شـــيعت أمثـــالي إلـــى ضيـــق مـــن المضجـــع ؟

فهو مكان لنومة واحدة، ولكنه مكان مظلم موحش، ضيق مخيف، تكفي جملــة واحدة هي "ضيق من المضجع"، لتتخيل الوحشة والرعب، وعدم القدرة على الحركة والتقلب والتنفس، إذن فلترتدع هذه النفس قبل وصولها إليه .

ويشخص الصنوبري القبر ويناديه كإنسان[٢] :

يـــا فراشـــا مـــن المـــدر ووســـادا مـــن الحجـــر

مظلـــم اللـــون لا تـــرى فيـــه شـــمس ولا قمـــر

ليـس يـــدري المقيـــم فيـــ ـــه بريـــح ولا مطـــر

فيقف على أوصافه، ويفصلها كما نرى، فهو فراش من الطين، ووسائد مـــن الحجارة، مظلم وصغير جدا، لا تدخله حرارة الشمس ولا نـــور القمـــر، لا يـــدري الميت فيه إذا هبت الريح أو سكنت، ولا يستشعر رائحة المطر ولا ينتظره.

١-أبو فراس، الديوان، ٢/٢٥٢

٢-الصنوبري ص٩٦

ولكي يؤكد ذلك يجعل الميت يتكلم، فيخبرنا على لسان ابنتـــه بحـــال أهـــل القبور[1] :

نحـــن فـــي عـــالم طـــوى صرفـــه البـــدو والحضـــر

فـــي ثـــرى لا يحـــس فيـــ ـــه بمـــن زار أو هجـــر

أما إيمانه الحقيقي فيقدم لنا تشبيها تمثيليا يشرح فيه حال مـــن ينـــادي أهـــل القبور، قائلا[2] :

نســـاء فـــي حـــداد صائحـــات كغربـــان تصـــايح فـــي الوكـــور

ينـــادين الأحبـــة فـــي صخـــور وكيف يجيب من تحـــت الصخـــور

فإن النساء النادبات الباكيات على القبور، اللواتي يتصايحن وينادين الموتـــى، لسن إلا كالغربان تتصايح في أعشاشها فلا فائدة ترتجى، ولا جواب يسمع، فيجمـــع بين الأمرين فيجعلهما شيئا أسود اللون، رمزا للشؤم والخراب؛ يجلـــس عـــاجزا ولا يفعل شيئا غير الصراخ الطويل .

١-الصنوبري، الديوان، ص ٩٦

٢-المصدر السابق، ص ٩٧

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وبعد.

فلقد كان لأستاذي المشرف حفظه الله دور رئيسي في اختيار هذا الموضوع، حيث وجهني إليه قائلاً بأنه موضوع يتناسب مع طبيعتي، وتوجهي، فتوكلت على الله ، ووجدت راحة في خوض غمار هذا الموضوع، ثم اكتشفت في داخلي ارتياحاً نفسياً معه أثناء البحث والقراءة، وخرجت بيقين تام أن الزهد موضوع يحتاجه الناس جميعاً؛ لفهمه والتعامل معه بإيجابية، كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، لنخرج من هذه الدنيا الفانية غانمين، إلى دار الخلود التي أعدها الله عز وجل للعاملين الزاهدين.

وقد تبين من خلال هذا البحث أن الزهد قد نشأ نشأة إسلامية خالصة، مستمداً أصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قولاً وعملاً، وهو الزهد الإيجابي الذي لا يعني الانقطاع عن الدنيا وعن الناس، أو الانعزال الذميم، الذي توجهت إليه بعض الفرق بسبب بعض الرواسب الغريبة على دين اللّه، فأدخلوا الانحراف والبدع، وتخلى كثير منهم عن الجهاد في سبيل الله.

لكن الزهد بصورته المشرقة استمر خلال العصور المتوالية رغم الرواسب الغريبة عليه، وبرز بعض الأعلام في الزهد من فقهاء وعلماء وأمراء وشعراء، وظهرت في الزهد اتجاهات متعددة منها: شعر الفقهاء والعباد، وشعر المعتدلين من

الصوفية، وشعر الشعراء غير الزاهدين الذين تأثروا بهذا اللون من الشعر، لكثرة دورانه على ألسنة الناس والفقهاء والوعاظ والشعراء.

وتعددت موضوعات شعر الزهد وتنوعت، حيث كان موضوع الموت أكثرها اهتماماً عند الشعراء، والحديث عن رسله التي تسبقه لتنذر به من كبر ومشيب، وما يتصل به من وصف القبور وأحوال أهلها إلى يوم القيامة وموضوع التنفير من الدنيا والتحذير من فتنتها، والقناعة وذم الحرص على المال، والنصائح الأخلاقية بالحلم والصدق والدعوة للصبر، وكثرة المواعظ التي تطالب الناس أن يعتبروا من السابقين، وأن يجاهدوا أنفسهم،والحديث عن التصوف، والجهاد والحرب، وأن النصر لا يأتي من الله إلا لمن التزم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وتداخل شعر الزهد مع موضوعات الشعر الأخرى، فهو متصل بالفخر أثناء الاعتزاز بالقيم والأخلاق الإسلامية الأصلية، والافتخار بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، والسيرعلى نهجه، ومتصل بالمديح من خلال وصفهم لحسن أخلاق الممدوحين وصلاحهم وحرصهم على العبادة والطاعة، أو لابتعادهم عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، وهو كذلك مرتبط مع موضوعات أخرى كالرثاء، والحكمة، والشعر الفلسفي، ومع شعر المجون عندما وقف بعض شعراء المجون مع نفسه وقفة صدق؛ فخاطبها واعظاً مذكراً .

وبرزت بعض الخصائص الفنية المشتركة لهذا الشعر، فهو في أغلبه شعر مقطوعات تحث على الزهد والتخلي عن الدنيا، والوعظ بها، وهو يقتبس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في معانيه وألفاظه التي جاءت سهلة بسيطة في

تراكيبها، مع استخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، لتكون هذه المقطوعات أكثر تأثيراً وأسرع حفظاً وانتشاراً، حيث يتناقلها الوعاظ والقصاص والناس جميعاً على اختلاف فئاتهم.

واستخدموا أساليب البيان المختلفة في رسم الصورة الشعرية، فجاءت هذه الصورة حية متحركة للموت والدنيا، وغيرها من موضوعات الزهد، صورة تنفر من الدنيا وتدعو للعمل للآخرة .

إلا أنه لا يوجد في هذا القرن شاعر مختص بالزهد سواءً أكان زاهداً حقيقة أو شاعراً يُكثر القول فيه، على غرار ما ظهر في القرون السابقة؛ فيقال مثلاً: أبو العتاهية في القرن الثاني، ومحمود الوراق في القرن الثالث .

ولعل تداخل القرن الرابع مع الخامس في كثير من جوانبه التاريخية والأدبية؛ يؤكد أن هذا الشعر بحاجة إلى دراسة لمكانته وموضوعاته في القرن الخامس وما يليه؛ لربط ماضي هذه الأمة العريقة بمستقبلها، وللتأكيد على إسلامية هذا الزهد، واستمراريته في الأمة على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

أ- المصادر:

١- ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :

-الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٢- الببَّغاء (أبو الفرج عبدالواحد بن نصر المخزومي، ت٣٩٨هـ/١٠٠٧م) :

-الديوان، دراسة وتحقيق سعود محمود عبد الجابر، ط١، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة، الدوحة، قطر،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٣- البديعي (يوسف البديعي الدمشقي، ت١٠٧٣هـ/١٦٦٢م) :

-الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زيادة عبده، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

٤- الترمذي (محمد بن عيسى، ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) :

-الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق صدقي محمد جميل العطار، خرّج أحاديثه وعلّق عليه عبد القادر عرفان العشا حسونه، د. ط، دار الفكر، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٤م

٥- ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ت١٢٨هـ/٧٤٥م) :

-مجموعة الرسائل والمسائل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٦- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد، ت٤٢٩هـ/١٠٣٨م) :

-يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٧- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) :

أ-تلبيس إبليس، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م

ب-صفة الصفوة، صنفها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان، وسعيد اللحام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

ج-المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٨- ابن حجر(أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) :

-فتح الباري بشرح صحيح البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، قرأ أصله تصحيحاً وتدقيقاً عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، المكتبة السلفية، د.ت

٩- أبو الحسن التهامي (أبو الحسن على بن محمد، ت ٤١٦هـ/١٠٢٥م):

-ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق محمد زهيرالشاويش، ط٢، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، دمشق وبيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م

١٠- ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني، ت٢٤١هـ/٨٥٥م) :

-كتاب الزهد، تحقيق محمد جلال شرف، دار الفكر الجامعي، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

١١- الخالديان (أبو بكر محمد، ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م، وأبوعثمان سعيد، ت٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، ابنا هاشم الخالدي) :

-ديوان الخالديين، جمعه وحققه سامي الدهان، د. ط، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

١٢- الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي، ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) :

-تاريخ بغداد أو مدينة السلام حتى ٤٦٣هـ، د.ط، دارالكتب العلمية، بيروت، د.ت

١٣- ابن خلكان(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، د. ط، دار صادر، بيروت، د.ت

١٤- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن، ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) :

-ديوان ابن دريد، دراسة وتحقيق عمر بن سالم، د.ط، الدار التونسية للنشر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

١٥- ابن رجب الحنبلي(أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد، ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) :

-جامع العلوم والحكم، د.ط، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م

١٦- ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق، ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م) :

-العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

١٧- السُّبكي(تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي، ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) :

-طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت

١٨- السّرّاج الطوسي (أبو نصر عبد الله بن علي، ت٣٧٨هـ/٩٨٨م) :

-اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، د.ط، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م

١٩- السّري الرّفاء (أبو الحسن السري بن أحمد، ت٣٦٢هـ/٩٧٢م) :

-الديوان، تحقيق حبيب حسين الحسني، د.ط، دار الرشيد للنشر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٢٠- السّلمي (أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، ت٤١٢هـ/١٠٢١م) :

-طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، ط٢، دار الكتاب النفيس، حلب، سوريا، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢١- الشافعي (أبو عبد الله محمد بن إدريس، ت٢٠٤هـ/٨١٩م) :

-ديوان الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة مصطفى مجاهد بهجت، د.ط، مطابع جامعة الموصل، العراق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢٢- الشريف الرضي (أبو الحسن محمد بن الحسين، ت ٤٠٦هـ/١٠١٥م) :

-الديوان، تحقيق إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، ٤٠٦هـ/١٩٩٤م

-الديوان، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ٤١٥هـ/١٩٩٥م

-نهج البلاغة، مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ت٤٠هـ/٦٦١م، شرح محمد عبده، د.ط، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت

٢٣- الشريف المرتضى (أبو القاسم علي بن الحسين، ت٤٣٦ هـ/١٠٤٤م) :

-الديوان، تحقيق رشيد الصفار، راجعه وترجم أعيانه مصطفى جواد، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م

٢٤- الصنوبري (أبو بكر أحمد بن محمد، ت٤١٩ هـ/١٠٢٨م) :

-الديوان، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م

٢٥- الصوري (عبد المحسن بن محمد بن، ت٤١٩هـ/١٠٢٨م) :

-الديوان، تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شاكر، د.ط، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م

٢٦- الصولي(أبو بكر محمد بن يحيى، ت ٣٣٥هـ/٩٦٤م) :

-أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، أوتاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢هـ إلى سنة ٣٣٢هـ، من كتاب الأوراق، عني بنشره ج . هيورث . دن، ط٣، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٢٧- العماد الأصفاني(أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد،ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)

-خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، د.ط، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م

٢٨- أبو فراس الحمداني (أبو فراس الحارث بن سعيد، ت ٣٥٧هـ/٩٦٨م) :

-ديوان أبي فراس الحمداني، عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه، ووضع فهارسه سامي الدهان، د.ط، نشر المعهد الإفرنسي بدمشق، سوريا، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م

-ديوان أبي فراس، شرح عباس عبد الساتر، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢٩- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) :

-عيون الأخبار، شرح وضبط وتعليق يوسف علي طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٣٠- ابن قدامة (أحمد بن عبد الرحمن، ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) :

-مختصر منهاج القاصدين، تعليق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، د.ط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

٣١- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م) :

-الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق معروف زريق، وعلي عبد الحميد بلطه جي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

٣٢- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ت ٦٤٦هـ/١٢٦٥م) :

-المحمدون من الشعراء، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، ط٢، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٣٣- ابن القيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر، ت٧٥١هـ/١٣٥٠م) :

-تهذيب مدارج السالكين، تهذيب عبد المنعم صالح العلي العزي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

٣٤- كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين، ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) :

-الديوان، تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ، د.ط، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

٣٥- الكلاعي (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) :

-إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، د.ط، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

٣٦- المتنبي (أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) :

-شرح ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م

٣٧- الميداني(أبو الفضل أحمد بن محمد، ت٥١٨هـ/١١٢٤م) :

-مجمع الامثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٣٨- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ت٦٧٦هـ/٨٧٥م) :

-صحيح الإمام مسلم بشرح أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي،

ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م، ضبط وتوثيق صدقي محمد جميل العطار، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ /١٩٩٥م

٣٩- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ت٧١١هـ/١٣١١م) :

-لسان العرب، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ت

٤٠- النامي (أبو العباس أحمد بن محمد، ت٣٩٩هـ/١٠٠٨م) :

-الديوان، جمع وتحقيق صبيح رديف، ط١، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٢٩٠هـ/١٩٧٠م

٤١- ابن نباتة السعدي (أبو نصر عبد العزيز بن عمر، ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م) :

-الديوان، دراسة وتحقيق عبد الأميرمهدي حبيب الطائي، د.ط، د.ت

٤٢- أبو نعيم الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبدالله، ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) :

-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٠٩هـ/١٩٨٨م

٤٣- هناد بن السري (أبو السري هناد بن السري، ت٢٤٣هـ/٨٥٧م) :

-الزهد، تحقيق محمد أبو الليث الخير آبادي، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري على نفقة أمير قطر، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٤٤- ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، ت٦٦٢هـ/١٢٢٩م) :

-معجم البلدان، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

ب- المراجع الحديثة :

٤٥-إبراهيم أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، د. ت

٤٦-أحلام الزعيم، قراءات في العصر العباسي " الحركة الشعرية "، د. ط، مطبعة الاتحاد، دمشق، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

٤٧-أحمد محمد بناني، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، ط١، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، السعودية، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م

٤٨-أحمد نوفل، سورة يوسف "دراسة تحليلية"،سلسلة القصص القرآني، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م

٤٩-حسن قرعاوي، الحكمة في شعر المتنبي، ط١، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م

٥٠- حنّا الفاخوري، الحكم والأمثال، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د. ت

٥١-خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

٥٢- رجاء السيد الجوهري، فن الرجز في العصر العباسي، د. ط، منشأة المعارف، الاسكندرية، د. ت

٥٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط٢، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٥٤-شوقي ضيف:

-تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزيرة، العراق، إيران)، ط١، دار المعارف، مصر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

-العصر العباسي الأول، ط٣، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

-العصر العباسي الثاني، ط٢، دار المعارف، مصر، د. ت

٥٥-عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية من عام (٤٩٢هـ-٦٤٨هـ)، ط١، دار البشير للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

٥٦-عبد الحكيم حسّان، التصوف في الشعر العربي " نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري"، د. ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م

٥٧-عبد الستار السيد متولي، أدب الزهد في العصر العباسي، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

٥٨-عبد الفتاح محمد الحلو، الشريف الرضي "حياته ودراسة شعره "، ط١، هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٥٩-عبداللطيف شرارة، أبو العلاء المعري "دراسة ومختارات "، ط١، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، الدار الإفريقية العربية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

٦٠-عبداللطيف عبدالرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، د. ط، مكتبة النهضة، بغداد، د. ت

٦١-عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، د. ط، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٦٢- كمال اليازجي، أبو العلاء ولزومياته، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٦٣-محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط٤، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م

٦٤- محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، د. ط، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٦٥-محمود الكناني، مزاج التسنيم في قصص الأنبياء والمرسلين وما بعد ذلك الى يومنا هذا، مراجعة عبدالله الفارقي، ط١، مكتبة نهاوند، عمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م

٦٦- مصطفى حلمي :

-الحياة الروحية في الإسلام، ط١، الهيئه المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

-الزهاد الأوائل، د. ط، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ت

٦٧- مصطفى الشكعة :

-سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة القلم، د. ط، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبي، القاهرة، د. ت

-الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٦٨-مصطفى عبدالشافي الشوري، الشعر العباسي " اتجاهاته وتطوره " ، د. ط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م

٦٩-مصطفى غالب، الحلاج الحسين بن منصور، د. ط، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٠٢هـ/١٩٨٢م

٧٠- ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٧١-ناظم رشيد، الأدب العربي في العصر العباسي، د. ط، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٧٢-نبيل أبو حلتم، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، د. ط، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٧٣-يوسف خليف، تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي، د. ط، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م

ملخص بالعربية

"شعر الزهد في القرن الرابع الهجري"

يدرس هذا البحث موضوع شعر الزهد في القرن الرابع الهجري، من خلال المنهج التكاملي، والاستناد إلى المنهج التاريخي بجمع شعر الزهد من دواوين الشعراء في هذا القرن.

ويقع البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة، حيث يبين التمهيد تعريف الزهد لغة بأنه: ضد الرغبة، واصطلاحاً: هو أن يتخلى الإنسان عن الدنيا الزائلة مقابل الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، ويدرس التمهيد تطور الزهد خلال القرون الثلاثة الأولى حتى القرن الرابع، حيث نشأ الزهد نشأة إسلامية خالصة، مستمداً أصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قولاً وعملاً، وهو الزهد الإيجابي الذي لا يعني الانقطاع عن الدنيا وعن الناس، أو الانعزال المكروه الذي توجهت إليه بعض الفرق بسبب بعض الرواسب الغريبة على دين اللّه، فظهرت بعض البدع فيه، وتخلى كثير منهم عن الجهاد في سبيل اللّه.

ويبين الفصل الأول اتجاهات شعر الزهد، حيث يقدم الفصل توطئة لها حول أوضاع العالم الإسلامي من ضعف، وفرقة، واضطراب اجتماعي وسياسي، وما آل إليه من ضياع كبير لشعر الزهد والتصوف، ثم يبين اتجاهات هذا الشعر والتي برزت في ثلاثة وجوه: شعر الفقهاء والعباد، وشعر المعتدلين من الصوفية، وشعر الشعراء غير الزاهدين الذين تأثروا بهذا اللون من الشعر، لكثرة دورانه على ألسنة

الناس والفقهاء والوعاظ والشعراء، مما يؤكد استمرار الزهد بصورته المشرقة خلال العصور المتوالية رغم الرواسب الغريبة عليه، وبرز بعض الأعلام في الزهد من فقهاء وعلماء وأمراء وشعراء.

ويدرس الفصل الثاني موضوعات شعر الزهد وتنوعها، حيث كان موضوع الموت أكثرها اهتماماً عند الشعراء، والحديث عن رسله التي تسبقه لتنذر به من كبر ومشيب، وما يتصل به من وصف القبور وأحوال أهلها إلى يوم القيامة وموضوع التنفير من الدنيا والتحذير من فتنتها، والقناعة وذم الحرص على المال، والنصائح الأخلاقية بالحلم والصدق والدعوة للصبر، وكثرة المواعظ التي تطالب الناس أن يعتبروا من السابقين، وأن يجاهدوا أنفسهم،والحديث عن التصوف، والجهاد والحرب، وأن النصر لا يأتي من الله إلا لمن التزم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ويبحث الفصل الثالث تداخل شعر الزهد مع موضوعات الشعر الأخرى، فهو متصل بالفخر أثناء الاعتزاز بالقيم والأخلاق الإسلامية الأصيلة، والافتخار بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، والسير على نهجه، ومتصل بالمديح من خلال وصفهم لحسن أخلاق الممدوحين وصلاحهم وحرصهم على العبادة والطاعة، أو لابتعادهم عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، وهو كذلك مرتبط مع موضوعات أخرى كالرثاء، والحكمة، والشعر الفلسفي، ومع شعر المجون عندما وقف بعض شعراء المجون مع نفسه وقفة صدق يحذرها الموت ويذكرها بالآخرة.

ويقدم الفصل الرابع دراسة لخصائص هذا الشعر الفنية، وظواهره المختلفة، فيدرس ظاهرة المقطوعات التي تحث على الزهد والتخلي عن الدنيا، والوعظ بها، وتبيين الارتباط الوثيق مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من خلال تأثرهم بالقرآن والسنة في ألفاظهم ومعانيهم، التي جاءت سهلة بسيطة في تراكيبها، مع استخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، لتكون هذه المقطوعات أكثر تأثيراً وأسرع حفظاً وانتشاراً، حيث يتناقلها الوعاظ والقصاص والناس جميعاً على اختلاف فئاتهم.

وقد استخدم الشعراء ألوان البديع دون تكلف أو مبالغة، لمسايرة طبيعة الشعر في عصرهم، واستخدموا أساليب البيان المختلفة في رسم الصورة الشعرية، فجاءت هذه الصورة حية متحركة للموت والدنيا، وغيرها من موضوعات الزهد، صورة تنفر من الدنيا وتدعو للعمل للآخرة، من خلال رسمهم لصورة الموت، وصورة الدنيا، وصورة القبر.

وتقدم الخاتمة خلاصة للبحث وأهم نتائجه وتشير إلى أنه لا يوجد في هذا القرن شاعر مختص بالزهد سواءً أكان زاهداً حقيقة أو شاعراً يكثر القول فيه، على غرار ما ظهر في القرون السابقة؛ بهدف إغناء النواحي الفنية في شعره.

ويوصي البحث بدراسة شعر الزهد ومكانته وموضوعاته في القرن الخامس وما يليه لربط ماضي هذه الأمة العريقة بمستقبلها، وللتأكيد على إسلامية هذا الزهد، واستمراريته في الأمة على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

ثم ألحق البحث بقائمة تحتوي المصادر الأدبية والتاريخية القديمة، والمراجع الحديثة.

وقد أشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور رشدي علي حسن، وبذل من وقته وجهده الكثير، لإخراجه على هذه الصورة، وكان للأستاذ الدكتور سمير الدروبي الفضل الكبير خلال إعداد الرسالة بالنصح والإرشاد، والمتابعة المستمرة، ثم في المناقشة، وكذلك الدكتور جهاد المجالي في قبوله قراءة هذا البحث ومناقشته، مشكورين جميعاً وجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

Summary in English

Poetry of Al-zohd in the fourth century of Al-Hijra

This research studied the poetry of Al-zohd in the 4th century of Al-Hijra through the compellation method , and depending on the historical method by collecting poetry of Al-zohd from poet's collection of poems in this century.

The research consisted of an introduction, introductory, four chapters, and a conclusion.

The introductory showed the linguistic definition of Al-zohd that is against the desire, while the idiom definition is to abandon the evanescent world for the sake of the other life with it's comfort and ease.
the fisrt three centuries till the fourth century in which Al-zohd's Islamic arising was pure, taking it,s regulation from the holly Koran, and the prophetic sunna.

This kind of Al-zohd was the positive one that didn't mean leaving the world and people, or the disliked isolation that some groups practiced which leaded to heresies, Besides a lot of these groups abandon the religious fighting.

The first chapter explained the directions of Al-zohd poetry by presenting the conditions of Islamic world like weakness, confusion, political and social disorder these situations leaded to a big loss of poetry of Al-zohd and Al-sufi poetry .Then the chapter showed the directions of this poetry in three parts:

1. Poetry of juries prudent and worshippers.
2. Poetry of the UN hermit poets who were affected by this kind of poetry because many people like poets , preachers, princes, and juries prudent were interested in it.

This thing asserted the bright continuance of Al-zohd poetry through different centuries.
The second chapter studied the different subjects of poetry of Al-zohd such as death (which was most important one),prophets who warned people of the evanescent universe, graves, and the conditions of dead people to the doomsday. The chapter also showed the subjects of Islamic morals and manners like clemency , truth patience, asking people not to be greedy, learning from the previous nations, fighting for the sake of God , and that victory won't be achieved if people didn't follow the holly Koran and the prophetic sunna.

The third chapter presented the interference of Al-zohd poetry with different subjects of other kinds of poetry like glory, praise, honor of the prophet Mohammed and his companions by describing their good manner , morals , their

worship to God and their avoiding the vanities of the world. it also showed other subjects like lamenting, wisdom , and philosophical poetry.

The fourth chapter presented a study of the technical characteristics of Al-zohd poetry.

It also studied phenomena of poetry parts that urge the words and meanings of the holly Koran and the prophetic Sunna, which were easy in their structures.

The poets used kinds of inquiry, frequently surprise in order to enable people to learn these poetry parts easily they also used different ways of elocution's so as to draw literary pictures of death, universe, graves, youth, and elderly.

These pictures made people dislike the vanities of the word, on the other hand the pictures encouraged people to work hard to win the paradise.

The conclusion presented a summary of the research .It pointed out that there is no specialized poet in Al-zohd whether this poet was a real hermit or only a poet.

The research recommended to study poetry of Al-zohd and it is subjects in the fifth century and the following centuries so as to join the past of this inveterate and deep-rooted nation with it's future, and to assure that Al-zohd was Islamic.

Then the research was attached to a list of literary historical, old and modern references.

Poetry of Al-Zohd in the fourth century of Al-Hijra

Prepared by:

Nizar Abdullah Al-Dumour

Supervisor:

Prof . Rushdy Al-Hasan

Mu'tah University

17/5/2000